القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • يناير - فبراير 2004



الغاز...
الثروة التي استقلت عن الزيت

نجيب محفوظ يرى..

الحج والحجاج
في كتب المستشرقين

ملف العدد

المدينة وعصر الزحام

العدد 1
المجلد 53

معارض ومؤتمرات

يناير 2004

- **معرض** المنتجات السورية الحادي عشر
  البحرين: **24 ديسمبر - 4 يناير**
- **معرض** الخريف الثامن للتجارة الدولية
  دبي: **10 - 14**
- **مؤتمر** التجارة في عالم متغير
  الدوحة: **12 - 14**
- **معرض** الصحة العربية
  دبي: **18 - 21**
- **معرض** التسوق
  الأحساء: **18**
- **معرض** مسقط الدولي السابع
  عمان: **19 - 22**
- **مؤتمر** النفط المتوسطي
  طرابلس الغرب: **20 - 22**
- **معرض** القاهرة الدولي السادس والثلاثون للكتاب
  القاهرة: **21 - 5 فبراير**

فبراير 2004

- **معرض** ومؤتمر الكهرباء في الشرق الأوسط
  دبي: **15 - 18**
- **المعرض** السعودي الدولي السادس للزيت والغاز والبتروكيميائيات
  الظهران: **17 - 19**
- **المؤتمر** الدولي الثاني للتربية والتدريب
  بيروت: **19 - 21**
- **معرض** التكنولوجيا البيئية
  دبي: **21 - 24**
- **مؤتمر** الطاقة الآسيوية
  سنغافورة: **23 - 26**
- **معرض** الصناعات الكويتية
  الكويت: **25 - 5 مارس**
- **المؤتمر** الثالث للشرق الأوسط ووسط آسيا
  دبي: **25 - 26**

المواهب الشابة

تفتح القافلة صفحاتها لتبني المواهب الشابة الواعدة من الجنسين، في أي من مجالات الكتابة، وتدعو الراغبين في الكتابة إليها إلى إرسال أعمالهم إلى العنوان التالي:

أرامكو السعودية
ص. ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
فاكس 3336 873 3 966
للاستفسار هاتف 5039 873 3 966

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتيرا التحرير
عبود عطية
خالد الطويلي

فريق التحرير
حبيب آل محمود
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
إبراهيم منصور (القاهرة)
ناجية الحصري (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
-
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

يناير - فبراير 2004
ذو القعدة - ذو الحجة 1424

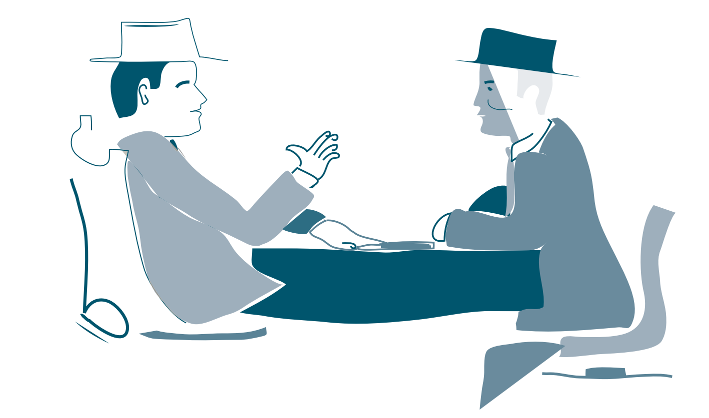
- **توزع مجاناً للمشتركين**
  للاستفسار عن الاشتراكات - هاتف: 6948 874 3 966
- **العنوان:** أرامكو السعودية
  ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
  فاكس: 3336 873 3 966 - البريد الإلكتروني:
  alqafilah@aramco.com.sa

رسالة المحرر

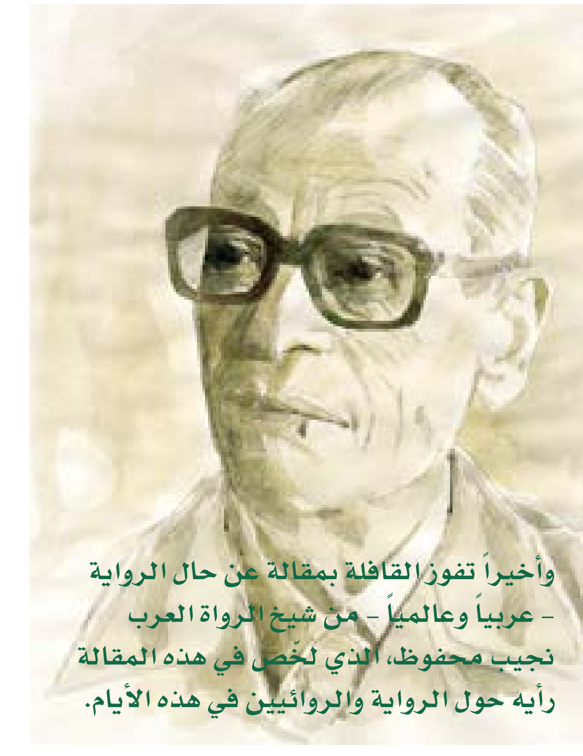
1

تكرّس القافلة في هذا العدد موضوعها الرئيس عن الطاقة لصناعة الغاز السعودية. تلك الصناعة التي شهدت قفزات مهمة في السنوات الأخيرة، من أهمها، بطبيعة الحال، مشاريع الغاز الجديدة في الحوية وحرض، وتوقيع اتفاقية الغاز في الرياض مع عمالقة صناعة البترول حول العالم.

وفي المناخ ذاته تستضيف المجلة قلماً من الجزائر ألقى صاحبه الضوء على ثقافة التفاوض وتباين أساليبه بين الشرق - الصيني بالذات - والغرب الأوروبي، حيث نكتشف خلف سطور هذا الموضوع انعكاسات الثقافات العامة في المجتمعات، خاصة تلك التي تصنعها البيوت والمدارس والجامعات.



2



وأخيراً تفوز القافلة بمقالة عن حال الرواية - عربياً وعالمياً - من شيخ الرواة العرب نجيب محفوظ، الذي لخّص في هذه المقالة رأيه حول الرواية والروائيين في هذه الأيام.

أما قضية العدد فتدور حول تنشئة أبنائنا وبناتنا ليكونوا في نهاية المطاف عناصر بشرية مسؤولة ومنتجة وواثقة بنفسها ومستقبلها. وما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه هي ندوة القافلة الصحفية الأولى ضمن خط تطويرها الجديد، وسيتبعها بإذن الله ندوات أخرى حول مجمل القضايا ذات العلاقة بحياتنا ومستقبلنا.

3

وفي موضوع مفاجئ ومهم تطرح المجلة مسألة "البذخ والبيئة" على بساط البحث: كيف يستهلك الإنسان مصادر الموارد الطبيعية لا لسد حاجاته فقط، بل ليسرف في استهلاك هذه المصادر في ما هو فوق حاجاته مستسهلاً الأضرار التي تنجم عن مثل هذه التصرفات.

يلي ذلك موضوع يكتسب دلالات خاصة من خلال ما يطرحه عن نوع من التلوث يزداد حجماً وانتشاراً مع شيوع استخدام الأدوات والأجهزة الإلكترونية والكهربائية.

الملف المصور في هذا العدد ينتقل بالقارئ إلى مشاهد مصورة من مواسم الحج التقطها مجموعة من الشبان. ويستضيف في لوحته الرئيسة صورة للمصور العالمي رضا، الذي زار المملكة وسجل عدداً من اللقطات لربوعها ومواسمها.



4

وعلى التوالي تستمر صلة مناخ الحياة اليومية بالفن التشكيلي، فبينما تناول العدد الماضي موائد الفنانين الانطباعيين، يستضيف هذا العدد قلم الناقد السعودي محمد المنيف، الذي يغوص في أبعاد الفن التشكيلي السعودي النسائي.

وبقلم كاتبة إيطالية يمكن للقارئ أن يلم بمجال تشكيلي آخر هو: كيف يختار إطاراً للوحته. هذا الأمر الذي طالما شغل الكثيرين من مقتني اللوحات التشكيلية. ومن المحتمل أن تعود القافلة إلى هذا الموضوع مع تفاصيل أكثر وأهم.

5

وفي المناخ الثقافي تطل المجلة على موسم الحج مرة أخرى من خلال موضوع يتناول ما كتبه المستشرقون من انطباعات وملاحظات عن زياراتهم التي استخدموا فيها مختلف الأساليب ليتمكنوا من الوصول إلى الأراضي المقدسة ويفكوا لأنفسهم وشعوبهم ما يسمونه طلاسم أو ألغاز يحاولون فهمها.



قصائد الصيد في التاريخ العربي تستحوذ في هذا العدد على صفحات الديوانين: ديوان الأمس وديوان اليوم، مضافة إليها قصيدة رقيقة للشاعر المصري أحمد بخيت.

ويراجع قسم بيت الرواية كتاب (زهرة الجاهلية) للروائي المغربي سالم حمّيش، لنضيف بذلك إطلالة أخرى على تاريخنا العربي بعد تلك الإطلالة التي تمثلت بقراءة قصائد الصيد.

6



وفي ختام الطريق، طريق القافلة في عددها الذي يصدر على مشارف نهاية سنتها الأولى الجديدة، يجد القارئ في ملفها بحثاً معمقاً عن المدينة: ذلك الكائن الحديث الذي يشتمل على نصف سكان الأرض، ويجدون فيه فرص رزقهم ومعارفهم وتسليتهم.. ما هي المدينة وكيف ظهرت في أول الأمر وماذا حققت للإنسان وما هو مصيرها؟ هذا هو موضوع ملف هذا العدد.

المحرر

الرحلة معاً

مربط البيت العربي

هل يجوز أن نرشح الجنادرية مربطاً للفكر العربي المتجدد؟

باسترجاع سنتها الأولى، تبقى في ذاكرتي تلك الندوة الثقافية الكبرى، التي أطلقت مهرجاننا الوطني للتراث والثقافة عبر الأرض العربية (الثقافية والفكرية). كنت هناك في تلك السنة منتدباً من صحيفة "الرياض" كمحرر ثقافي مبتدئ.. وكان هناك جهابذة الفكر العربي، أو قل، إذا شئت، كان هناك صفوة من حملة القلم العربي وقادة الرأي من المحيط إلى الخليج. على سبيل المثال لا الحصر كان هناك يوسف إدريس، عمدة القصة العربية القصيرة، ومحمد أركون، صاحب النصوص الجدلية التي تحتاج إلى معامل لتكريرها وتيسير هضمها عند القراء البسطاء من أمثالي. وكان هناك حشد من كل أطياف الثقافة العربية والإشكال العربي، الذي لم يغب يوماً عن الساحة.

وللتاريخ، تاريخ الجنادرية وتاريخ العرب، لم يكن هناك ما يبعث على التفاؤل بحدوث متغير ثقافي عربي، فقد شعرت حينها أن كل مثقف أو أديب أو شاعر (كبير) يعيش في واديه القطري من دون أن تكون لديه بادرة لفتح قنوات تصب في أودية الأقطار العربية الأخرى. أكثر من ذلك كنت كلما سألت، كصحافي، مفكراً معروفاً عن مفكر معروف آخر وجدت أن بينهما من الخلاف والتنافر ما تنوء بحمله الجبال الراسية، وبالتالي فإن ما كان يحدث في تلك الندوة على مدار ثلاثة أيام هو خليط من الحضور الثقافي العربي المهم المشفوع بمزيد من التنافر والصراخ وتبادل الاتهامات عن كيف قصّر هذا المفكر في أداء دوره في الحياة العربية، أو كيف ضيّع ذلك المثقف عمره منتسباً لتيار فكري لا ينسجم مع التيار العام الذي يتبناه ذلك الآخر، وإلى ما هنالك من أمور لم تكن تدل على وجود رغبة واضحة في إصلاح خلل البيت العربي ورتق شقوقه التي تتسع سنة بعد سنة. ولم تكن هذه الحالة حكراً على الجنادرية. بل كانت تتجلى في كل مناسبة ثقافية عربية تحاول أن تجمع بين المثقفين العرب، فلا تحصد سوى صور تفرقهم وتناقضاتهم.

وعلى الرغم من أن تلك الندوة المبكرة التي احتضنتها الجنادرية لم تترك أثراً واضحاً في البيت العربي الكبير، ظلّ القائمون على المهرجان الوطني للتراث والثقافة، بإصرار وتفاؤل سعودي متواصل، يعقدون الندوات ويختارون لها موضوعات مهمة وملحة لعل وعسى أن يحدث ما يأملونه من أن ينهض الفكر العربي وتنهض الثقافة العربية بحياة العرب العامة، إذ لا يوجد لديهم أدنى شك في أن الفكر المستنير هو الضمانة الوحيدة لحياة متطورة في كل وجوهها. وأيضاً لقناعة عندهم أن العمل الثقافي المثمر هو في النهاية تراكم، يحتاج إلى جهود متواصلة ومتابعة وإصرار ولا يقف أمام العثرات والسلبيات.

والآن، بعد هذه السنوات الطويلة من عمر إسهاماتها في الحياة الفكرية والثقافية العربية، ألقت الجنادرية بثقلها وخبرتها لتناقش موضوعات شديدة الأهمية تحت عنوان أكثر صراحة وشفافية هو: «إصلاح البيت العربي». ذلك البيت الذي عُنيت به في كل دوراتها التسع عشرة السابقة. تحاول الجنادرية في ظل هذا المحور الدقيق أن تنقذ ما يمكن إنقاذه، مستندة كالعادة إلى دور الفكر والمفكر في ترميم الحياة العربية والرقي بالإنسان العربي ليكون إنساناً مستنيراً ومنتجاً ومشاركاً في التخطيط لمستقبل أقل غموضاً وأكثر إشراقاً.

تريد الجنادرية أن تشارك بسهم كبير في مواجهة كل ما يتهدد حياة ومستقبل الإنسان العربي، والمنطلق الذي تفضل أن تبدأ به هذا السباق الطويل نحو متغير عربي واضح هو الإصلاح الذي يبدأ بالإنسان وينتهي لفائدته وأمنه ورخائه.

تحت هذا العنوان، توظف الجنادرية، على ما أعتقد كل إمكاناتها وخبرتها لتؤسس قاعدة فكرية لإصلاح البيت العربي، والمفكر بلسانه وقلبه العربي سيتحمل، بناء على ما ستفرزه هذه القاعدة، مسؤولية التبشير بأسس هذا الإصلاح. ومن البديهي أن أي مبشر بالإصلاح لا بد أن يتمتع بشعور عام ومخلص يخرجه من شخصانيته أو قطريته إلى الفضاء العربي العام، ويضمن أنه أينما اتجه سيجد ممارسة فكرية عربية تلتقي وإياه على هم مشترك ومصير واحد. في هذه الحالة فقط يمكن أن نتفاءل ونرفع من قدر توقعاتنا عن مستقبلنا.

رئيس التحرير





ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إلى.. رئيس التحرير

من الغلاف إلى الغلاف

قرأت بعناية العدد الرابع من مجلة القافلة وتداعى إلى خاطري أنه صادفتني في رحلة العمر أعداد أخرى متفرقة كنت أقبل على قراءتها، ورأيتني في هذه المرة أقرأ العدد من الغلاف إلى الغلاف استمتاعاً به وإفادة منه وبغية الاستجابة إلى طلبكم ببلورة اقتراحات وملاحظات عليه. وقد وقفت فيما يخص المضمون أمام محطات العدد الست ومعها الفاصل المصور، فوجدتها غنية بالمادة العلمية المفيدة، وتتصف بالتنوع وبسلاسة الأسلوب. وثقتي أن أسرة التحرير حريصة مع كل عدد يصدر على أن تختار لهذه المحطات مادة مفيدة متجددة. وأود هنا أن أثني على مضمون الملف (القمر) وكذلك على المقالين المتصلين بعالمنا الكبير طيّب الذكر الدكتور إحسان عبّاس الذي انتقل إلى دار البقاء. وقد سرّتني عنايتكم بعالم الطاقة وبطرح قضايا، وبتناول الحياة اليومية التي تطرقت إلى المسكن والرياضة المدرسية في هذا العدد. تأملت طويلاً في شكل المجلة وتجلّى لي ما هو مبذول من جهد في تحريرها الفني. وقد جاءت طباعتها متقنة. ويسعدني أن يكون هناك تواصل معكم بشأنها.

أحمد صدقي الدجاني
القاهرة

الملف المصوَّر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأرجو من الله لكم المزيد من العطاء والتألق.
لقد اطّلعت على صور الأخ الأستاذ عبدالعزيز سعد العيّاش في العدد 5 من المجلد 52، فهل لي أن أحصل على عنوانه، أو هاتفه مشكورين، لأنقل إليه إعجابي بموهبته الأصيلة؟
شكراً، وتقبلوا تحياتي واحترامي.

د. أحمد البراء الأميري
مستشار وزير التربية والتعليم - الرياض

القافلة: شكراً لرسالتكم الرقيقة التي أحلناها إلى زميلنا المصور ليتصل بكم.

العلماء العرب والقمر

أشكركم على إهدائكم مجلة القافلة لي بانتظام، وأود أن أعقب على ما جاء في ملف القمر المنشور في العدد الرابع من المجلد 52.
لقد فاتكم ذكر علماء الفلك العرب والشخصيات العربية التي عنيت بالقمر، وهم على سبيل المثال لا الحصر:
- أبو الفداء (1273 - 1331م) جغرافي ومؤرخ عربي صاحب كتاب (تقويم البلدان)
- أبو معشر (787 - 886م) فلكي منجم عربي يعتبر أكبر المنجمين المسلمين من غير منازع.
- البيروني (973 - 1048م) مؤرخ ورياضي وعالم فلك عربي قال بأن الأرض تدور حول محورها.
- الفرغاني (القرن التاسع الميلادي) عالم فلك أشهر آثاره (المدخل إلى علم هيئة الأفلاك).

وتقبلوا تحياتي وتقديري.

حسن حجي الشبيب
الأحساء

وأبيات أخرى في القمر

بكل لهفة تلقيت العدد الرابع من المجلد 52، وأنتهز هذه الفرصة لأعبر لسعادتكم عن إعجابي اللا محدود بالنقلة الحضارية التي تعيشها قافلة الخير والبركة.
وبقراءة متأنية للعدد، خاصة لموضوع الملف "جارنا القمر" فاتكم ذكر عدد من أبيات الشعر مشهورة ومحببة إلى نفس كل قارئ، وتبعث النشوى بين الحبيبين والمحبين:

رأيت الهلال ووجه الحبيب
فكانا هلالين عند النظر
فلم أدرِ من حيرتي فيهما
هلال الدجى من هلال البشر
ولولا التورد في الوجنتين
وما راعني من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيب
وكنت أظن الحبيب القمر

راجياً التكرم بنشرها في العدد المقبل.

د. رمزي عبدالرحيم أبو عيانة
بريدة

الشمولية والأناقة

تسلمت النسخة الجديدة من مجلة القافلة. وإنني إذ أشكركم على عنايتكم، أفيدكم بأنني وجدت فيها الشمولية في اختيار المواضيع والموضوعية في العرض والأناقة في الطبع. وأسأل الله لكم دوام الصحة والتوفيق ولمجلة القافلة مزيداً من التقدم والازدهار.

فهد بن خالد السديري
الرياض

مائدة الانطباعيين

سعدت جداً بإطلالة مجلة القافلة، وأشكركم من القلب على هذه الباقة الرائعة، فهي حقاً هدية قيمة لكل مثقف عربي.
كذلك أشكر فريق التحرير على الموضوع الخاص بالفن التشكيلي "مع الانطباعيين إلى مائدتهم" المنشور في العدد الخامس، وأتمنى تزويدنا دائماً بمثل هذه التحف العالمية والعربية التي تتعلق بالفن التشكيلي والشعر والرواية والفكر والمسرح، إذ أننا دائماً نفتقد المسرح في مجلتنا الغرّاء.

صالح الحربي
عيون الأحساء

أين المغرب العربي؟

طالعت في العدد الرابع من المجلد الثاني والخمسين مقالة الدكتور إحسان عبّاس، يرحمه الله، وما كتب عنه لمناسبة وفاته، ولم أستغرب ذلك. فهذا العلاّمة الكبير يستحق الثناء وكل عبارات التقدير لما قدمّه في حقول التأليف والترجمة والتحقيق.
وما لفت نظري أكثر كان الحديث بعده عن روائي سعودي شاب يخوض مغامرته الأدبية الأولى. لم أستسغ الفكرة أولاً، ولكني بعد أن قرأت المقالة، تحمست للحصول على الرواية وهي (سقف الكفاية) لمحمد علوان، وبعد أن قرأتها أدركت أنكم كنتم على حق. لا بل انتبهت إلى أن هذا هو دور المجلة الحقيقية الجادة والرصينة، ألا وهو الجمع بين احترام التراث وكبار الأعلام وتشجيع المواهب الواعدة في الوقت نفسه.
غير أن لي ملاحظة أخرى، وهي وجوب عدم حصر مصادركم بالمشرق العربي، ولا أن تكتفوا بنشر المعرفة في اتجاه واحد وأعني به من المشرق صوب المغرب. فنرجو أن يلقى الأدب التونسي والمغربي عموماً من اهتمامكم ما يلقاه الأدب السعودي. فالتواصل ما بين كافة الأقطار العربية لا يمكنه أن يكون إلا مصدر ثراء للجميع.

عبدالعزيز سليمان الطبلاوي
تونس

القافلة: تجد على صفحات هذا العدد عرضاً لرواية الأديب المغربي سالم حمّيش "زهرة الجاهلية"، الأمر الذي يؤكد لك أننا متفقون معك. وإذا حصل تقصير في بعض الأوقات، فذلك يعود إلى ضيق المجال لا غير.

رواية سقف الكفاية

وصلني العدد الرابع من المجلد الثاني والخمسين من القافلة، وأعجبت أشد الإعجاب بكل ما ورد فيه من موضوعات أدبية وعلمية واجتماعية، ولاحظت الجهد المضني لفريق العمل المتميز في كل شيء.
ومن أكثر ما أثار اهتمامي في مجلتكم "قافلة القراء" حيث لاحظت أن هناك اهتماماً كبيراً بكل الرسائل التي تصل إليكم. وهذا دليل على العناية بالعلاقات الإنسانية بين فريق عمل المجلة والقراء. ومن موضوعات المجلة كان ملف القمر من بين أجمل ما قرأت. وفي رواية سقف الكفاية، استوقفتني شخصية ديار ذلك الصديق القريب البعيد الغريب الودود، تلك الشخصية هي شخصية أعرفها. وأعجبت بقدرة الكاتب وهو في مثل سني على تصوير الشخصيات بهذه الروعة، الأمر الذي يعجز عنه الكثيرون.

منى محمد السيد سليمان
الإسكندرية

جديرة بكل الحب

يسرنا أن نبعث إلى هيئة التحرير بأرق تهنئة، مقرونة بأغلى أمنية لتحقيق طموحاتنا المشتركة، ولا نملك إلا أن نحني هاماتنا تقديراً وعرفاناً لدوركم الرائد في ريادة هذه المجلة في وطننا العربي وعالمنا الإسلامي، وهي ريادة تحتذى، وقيمة تقتنى، وإذا كان من المتعارف عليه عند المثقفين، أن الدوريات الثقافية ليست مصدراً للثقافة، إلا أن هؤلاء المثقفين أنفسهم، يجمعون على أن "القافلة" تشذ عن هذه القاعدة، لتميزها بشكلها الفريد، فهي موسوعة أدبية، فكرية، ثقافية، علمية، إسلامية، جامعة، كافية، تغني قارئها، ومتابعها عن التعامل مع أية مطبوعة أخرى.
إن ما دفعنا إلى الكتابة إليكم، هو ما لمسناه من تطور، وإعجاز خرافي في التكوين المعرفي الراقي الذي تطرحه تلك المطبوعة الأنيقة، الرشيقة (القافلة) فهي تقدم الوجه المشرق للإنسان العربي والمسلم، بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معنى، وما هذا إلا دليل على أن هذه المجلة جديرة بكل حب، ودعم، من كل صاحب قلم.
وختاماً نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

د. فاتن أحمد مرسي غازي
الإسكندرية

قافلة القرّاء

مقام النادمين

عرفـاتُ ضاعَتْ بالشَّـذى الدفَّاقِ
فتسعَّـرَتْ فـي مهجتي أشواقـي
ورأيـتُ أفـواجَ الحـجيجَ مواكباً
ودعـاؤهُـم يـنـداحُ بـالآفـاقِ
فذكرتُ كيف قصدْتُ بابَ رياضِها
ودخلـتُـهـا فـي زمـرجِ العـشَّـاقِ
ولـدى الصخورِ فاضَ صبابةً
قـلـبٌ، وغـامـتْ بـالـدموعِ مـآقِ
فإذا الصخورُ الصمُّ تورقُ رحمةً
والنورُ يشرقُ في دُجى الأحْداقِ
وارتـجَّ ما خلفَ الضلوعِ مهابةً
ومخافةَ الإعراضِ والإخفاقِ
ودنتْ سماءُ العفوِ، عطرُ فيوضِها
مسَّ الفؤادَ، فأشرقتْ أعماقي
يـاربُّ هل تكفي الدموعُ طهارةً
فتحلُّ منْ أسْرِ الذنوبِ وثاقي
لكَ يا إلـهَ الكونِ ذلتْ هامةٌ...
تـاهَـتْ، وأطـرقَ عـاتيَ الأعنـاقِ
ربـاه إنِّـي جئـتُ بـابَـكَ نـادمـاً
وطـرقـتُـهُ، يـا قـابـلَ الـطُّـرَّاقِ
وانْهَلَّ من عينيَّ دمعُ صبابتي
نهراً يفيضُ بسوسنِ الإشراقِ
حتى كأنَّ القلبَ ذاب فلمْ تَعُدْ
بيـن الجـوانـح خفقةُ الخفَّاقِ
فسألتُ عيني أنْ تكفَّ دموعَها
كي لا يراها صُحبتي ورفاقي
فأجابني دمعُ الرفاقِ على اللِّحَى
وأذابَ دمـعُ صحابتي إشفاقي
لا تحبسِ الدمعَ الطَّهورَ فإنَّهُ
مـاءُ المحبَّةِ، والـعيـونُ سـواقِ
هـذا مقـامُ النـادميـنَ، ودمعُهُمْ
غيـثُ القبـولِ، وآيـةُ الإغـداقِ

درويش الأسيوطي
أسيوط - مصر

مسابقة القافلة

أرسلت لكم مشاركة (قصيدة شعر) في "مسابقة القافلة الذهبية" التي نظمتها مجلتكم، ولم أعرف حتى الآن ما إذا كانت نتيجة هذه المسابقة قد أعلنت أم لا.
أرجو التكرم بإفادتي عن ذلك في أقرب فرصة، راجياً أن يدوم التواصل مع مجلتكم العزيزة التي أرجو أن يتاح لي الحصول عليها بشكل دوري.

ممدوح الشيخ
المنوفية - مصر

القافلة: نتائج المسابقة ستعلن في مناسبة مرور سنة على صدور المجلة في حلتها الجديدة وذلك في مطلع شهر فبراير المقبل. وقد أحلنا عنوانك إلى قسم الاشتراكات، لتصلك المجلة بانتظام بإذن الله.

هاري بوتر

على مدار سنوات طويلة ومنذ صدور العدد الأول، كانت ولا تزال مجلتنا الرائعة "القافلة"، منبراً يعتليه أصحاب الكلمة الأصيلة، والأفكار الصادقة.. فمعظم المجلات تكبر وتشيخ، وقد تموت.. لكنها وحدها "القافلة" تبقى متجددة دائماً، في كل عدد تلبس حلة جديدة، وتبرز أسماء جديدة، وتحدث أبواباً جديدة متلائمة مع ما يستجد من أحداث، وما يظهر من تطورات ورؤى جديدة.. لتبقى دائماً عروس المجلات الثقافية.
لقد طالعت العدد الخامس من المجلد الثاني والخمسين، وجذبني بشدة إخراجه الرائع وموضوعاته الشيقة، واستوقفتني كثيراً رسالة الأستاذ مصباح نور الدين المنشورة في بريد القراء ص 7، الذي سبق أن استوقفه أيضاً في العدد الرابع موضوع "هاري بوتر". ومن المهم أن أشير إلى خطورة ما أشار إليه. وأضيف أنني شرفت بإرسال موضوع إليكم عن "هاري بوتر" تحديداً يؤيد ما ذهب إليه الأستاذ مصباح، بتاريخ 2003/3/20م عن طريق الإنترنت، تناول الكثير حول أبعاد هذا النوع من الأدب المريض وخطورته على أبنائنا، وكان موضوعي بعنوان (أطفالنا والأدب الجانح) لكن يبدو أنه أغفل عمداً، فإذا كنّا حقاً نخشى على أولادنا من التفسخ والضياع فلننبذ هذا النوع من اللا أدب.

أ. د. نبيل سليم علي
الإسكندرية - مصر

القافلة: تناول المجلة لموضوع "هاري بوتر" تم فقط من زاوية الأسباب التي أدت إلى الرواج الهائل الذي لاقته هذه السلسلة، ولا سيما الجزء الخامس منها، وما يتكشف عنه هذا الرواج.
ونظراً لضيق المجال، اضطررنا إلى عدم الخوض في نقد المضمون الأدبي لهذا العمل وأثره التربوي، وهو ما كان موضوع مقالتكم القيّمة، آملين استمرار التواصل معكم.

الفن التشكيلي

على الرغم من الإعجاب الكبير الذي تحظى به القافلة منذ أن خضعت إلى عملية التغيير والتطوير الشاملة في الأشهر الأخيرة، كان هناك عتب عليها - ليس عندي وحدي، بل أيضاً عند الذي أعرفهم ويتسلمونها ويقرأونها باهتمام - وهو غياب مواضيع الفن عموماً والفن التشكيلي بشكل خاص. غير أن هذا العتاب قد زال بعد المقالة الرائعة عن الانطباعيين وعلاقة لوحاتهم بالمائدة.
كل ما نرجوه هو أن لا تكون هذه المقالة قد أتت بالصدفة، وأن تكون هناك مساحة ثابتة في القافلة للفن التشكيلي العالمي والعربي في كل عدد. وأنصحكم، إذا كان يحق لي ذلك، أن تكون مواضيع الفن التشكيلي على غرار الموضوع الذي أشرت إليه أعلاه، أي أن يتناول مجموعة رسامين، أو مدرسة فنية، وليس فناناً واحداً كما جرت العادة في مجلاتنا الثقافية، لأن ذلك قد يبدو من باب الدعاية للفنان، وقد يوجد لكم خصوماً ومنتقدين أكثر من المعجبين.

سوسن يتيم
دمشق - سوريا

القافلة: نرجو أن تجدي في هذا العدد ما يرضي اهتمامك بالفن التشكيلي.

منارة من الشرقية

يسرني أن أتوجه إليكم بأصدق التحيات وعبارات الإعجاب للنقلة النوعية التي حققتها القافلة في الآونة الأخيرة. فتنوع المواضيع وشموليتها، واستكتاب نخبة الأقلام العربية من كافة الأقطار يجعل منها حقاً رائدة في الثقافة العربية من المشرق إلى المغرب. ويحق لنا نحن أبناء الشرقية أن نفخر بأن هذه المنارة تضيء من عندنا.

محمد ابراهيم الدوسري
الدمام

الورق والتصوير

سعدت باستلام قافلتنا الجديدة، وأقدر لكم هذه الالتفاتة راجياً المولى أن يسدد خطاكم على درب النجاح. غير أني لا أكتمكم أني توقعت ورقاً وتصويراً أفضل مما رأيت. أما المادة الأدبية فهي مُرضية.

حسين ظافر الأشول
موظف سابق في أرامكو السعودية

الحروف صغيرة

أود أن أهنئكم على النقلة التي حققتها القافلة في الآونة الأخيرة على صعيد المضمون والشكل. ولكن لي ملاحظة أرجو أخذها بعين الاعتبار، وهي أن حروف المجلة صغيرة، وتزداد قراءتها صعوبة عندما تكون ملونة، فاقتضى لفت نظركم إلى هذا الأمر.

محمد عبدالعزيز الحارثي
جدة

القافلة: ملاحظتكم على اللون في محلها، ونرجو أن تجدوا أن هذه المسألة قد عولجت في هذا العدد.

إلى أصدقائنا الجدد

السادة: حمد خالد الراشد، الأحساء - عطية بن سعد الزهراني، الدمام - إبراهيم ابن محمد الصقيه، الذيبية - محمد عبدالله السعيد، شقراء - ناصر بن حمود الشمري، الدمام - خالد النواد، الظهران - حسن عبدالهادي حسين، بنغازي - عبدالله عابد زقزوق، جدة - محمد عبدالله المبارك، الهفوف - حمد بن دعيج الدعيج، الرياض - محمد بن أحمد ابن علي رضا، المدينة المنورة - يحيى عبدالله علي آل بو عندوس، سراة عبيدة - عبدالله ابن حسن أحمد الحسن، الهفوف - مهند علي أحمد الموسى، الدمام - القاضي سليمان عطية، الأردن - حاجي باقر الحاجي، المبرز - علي ناصر الصايغ، تاروت - محمد عبدالفتاح بوهرام، المدينة المنورة - نوره وليالي خالد الراشد، الأحساء - دكتور ماجد بن مبارك البويت، الهفوف - فيصل حمدان مبارك الشريف، جدة - ناجي صالح عبدالرزاق، البحرين - عتيق ابراهيم السرحان، الرياض - محمد بن سعد آل زعير، الأفلاج - تركي المالكي، الدمام - لولوة الكعبي، البحرين..

تعتز القافلة بالعواطف النبيلة التي أبديتموها في رسائلكم، وقد أحيلت عناوينكم أو التعديلات التي طرأت عليها إلى قسم الاشتراكات، وستصلكم أعداد القافلة بانتظام إن شاء الله.

نعمل لغدنا

احترام المواعيد

يأتيك متأخراً عن الموعد نصف ساعة أو ساعة وأحياناً أكثر.. إذا رأى علامات الانقباض على وجهك بادر إلى الاعتذار متذرعاً بهذا السبب أو ذاك. لا ليعبر لك عن أسفه بصدق، بقدر ما يهدف إلى إبلاغك بأنه يعذر نفسه. أما إذا كنت على خُلق عالٍ واستقبلته ببشاشة، فلا يجد نفسه ملزماً بالاعتذار، ولا حتى بالإشارة إلى تأخره.

فقد صار الاستهتار بالمواعيد - وهو في الواقع استهتار بوقت الآخرين وبكراماتهم - واحدة من أبرز علامات التخلف في حياتنا اليومية مهنياً واجتماعياً. حتى أن الساعة، هذا الاختراع الذي يعتز بقدرته على الإشارة إلى الدقيقة والثانية المحددة، صارت في معاصمنا مجرد سوار للزينة. والأسباب كثيرة.. أزمة السير، تعطّل السيارة، ظرف طارئ، مسألة عائلية... الخ

واحترام المواعيد؟
يبدو أنه سلوك في طريقه إلى الانقراض، إلا إذا استثنينا موعد المرؤوس مع رئيسه أو مع شخص يتمتع بمكانة أعلى من مكانته. فيحضر الأول قبل الموعد وينتظر ضماناً لحصول اللقاء. في هذه الحالة، تكون حركة السير عادية، ولا تتعطل السيارة، وكل الأمور تمام التمام. أما الثاني فقد يحضر في الوقت المحدد وقد يتأخر، ويمكنه حتى أن لا يحضر أبداً طالما أن المنتظر أقل شأناً منه. والشخص الأول الذي تطلّع إلى ساعته عشرين مرة قبل هذا الموعد، ينسى تماماً أن في يده ساعة عندما يكون موعده مع شخص آخر من مستواه أو دونه..

وناهيك عن الوقت الذي يتسبب بإهداره الاستهتار بالمواعيد، فإنه لا بد وأن يخلق مزاجاً عكراً عند المنتظر. وعليه، ومهما كان نوع اللقاء، لا بد أن يخضع لتأثيرات هذا المزاج العكر.. وفي العمل، قد يكون الثمن غالياً.

الأسوأ من كل ما تقدّم، أن هناك من يتعمد التأخر عن المواعيد لأن حمل الآخرين على انتظاره طويلاً سيعطي لطلّته بهاءً وقيمة.. وهذا العيب شائع عند شعوب عديدة في صفوف المهووسين بالصعود الاجتماعي الزائف وأوهام التفوق، حتى أن هناك مثلاً فرنسياً في هذا الشأن يقول: "إن الأكابر يصلون دائماً متأخرين". الأمر الذي ردّ عليه واحد من أبناء الأكابر فعلاً، وهو الملك لويس الثامن عشر بقوله: "الدقة أدب الملوك".

المحرر



الغاز

الثروة التي استقلت عن الزيت...

خمسة آلاف سنة من جهل الإنسان لطبيعته، قرنان على استعماله بشكل محدود في الإنارة والتدفئة وطبخ الطعام، عقود معدودة من اعتماده في صناعة جديدة تعرف باسم صناعة البتروكيماويات.. ومؤخراً، خرج الغاز الطبيعي من ظلّ الزيت الذي بقي فيه طويلاً، ليصبح منافساً قوياً له. وراحت المنجزات في عالم استخراجه وصناعته تتسارع وتزداد حجماً وأهمية وتستقطب عن جدارة المزيد من الأضواء التي يستحقها هذا المنتج بعدما صار واحداً من أعمدة الأساس التي يقوم عليها اقتصاد المملكة.

فريق التحرير أعدّ لنا هذه الرحلة إلى عالم الغاز الطبيعي وتطور إنتاجه واستغلاله في المملكة.

أرامكو السعودية

القصة من أولها

الغاز الطبيعي واحد من أفضل مصادر الطاقة، وقد تزايد الاعتماد عليه كمصدر للوقود أينما كان في العالم خلال السنوات الأخيرة.

والغاز الطبيعي مُركّب لا لون له ولا شكل ولا رائحة. أي أنه كاد يفلت من اهتمام الإنسان لولا ميزته الرئيسة: إنه قابل للاشتعال بسهولة فيولد طاقة حرارية عالية. ولا يشبه الغاز الطبيعي الزيت أو الفحم في شيء، سوى كونه مثلهما من أنواع الوقود الأحفورية. أي أنه تشكل أساساً في باطن الأرض من بقايا النباتات والحيوانات والجزيئات الحية التي عاشت قبل ملايين السنين.

هناك نظريات عديدة حول تشكّل الغاز الطبيعي. غير أن أكثرها رواجاً يقول إن الأجسام الحية على سطح الأرض كانت تُدفن تحت طبقات من التراب والصخور التي تزداد ثقلاً بمرور الزمن - بمعنى ملايين السنين - وتتعرض بالتالي إلى ضغط متزايد. وبإضافة الحرارة المرتفعة في باطن الأرض إلى هذا الضغط يؤدي الأمر إلى تفكك المواد الكربونية عن بقايا المواد العضوية. وكلما غصنا في باطن الأرض ارتفعت الحرارة. في الأعماق المتوسطة حيث تكون الحرارة بدورها متوسطة (نسبياً) ينتج عن الأمر زيت أكثر من الغاز. وكلما ازداد العمق ازدادت نسبة الغاز. ولهذا فإن الغاز الطبيعي يتشكّل إلى جانب الزيت في المكامن الواقعة على أعماق تتراوح ما بين كيلومتر واحد وكيلومترين تحت سطح الأرض. أما في الأعماق الأكبر من ذلك، وبعيداً جداً في باطن الأرض، فإن نسبة تشكيل الغاز هي أكبر من نسبة الزيت، وفي حالات كثيرة لا يتشكّل غير غاز الميثان.

ما يهمنا من هذا كله هو أن الغاز الطبيعي يستخرج من باطن الأرض إما عَرَضاً خلال استخراج الزيت، وهذا ما يسمّى الغاز المرافق، وإما عمداً ولوحده من دون زيت ويسمّى الغاز غير المرافق.

الغموض الذي ساد طويلاً

تؤكد المصادر التاريخية أن الإنسان عرف عَرَضاً الغاز الطبيعي منذ الألف السادس قبل الميلاد. فقد أدهشته ينابيع النار المتدفقة من بين الصخور، وربطها بمعتقداته الوثنية وأقام المعابد حولها من اليونان إلى بلاد فارس والهند. أما الاستعمال الأول للغاز الطبيعي بشكل علمي فيعود إلى الصين ما بعد القرن السادس قبل الميلاد. والمدهش أن



مسيرة الغاز الطبيعي في العالم..

6000 – 2000 ق.م.:
إشعال النار في ينابيع الغاز الطبيعي خلال الطقوس الدينية في بلاد فارس والهند حيث أقيمت المعابد حول هذه "النيران الخالدة" حسبما توهموا.

1000 ق. م.:
بناء معبد دلفي في اليونان حول نبع غاز طبيعي ملتهب اكتشفه أحد رعاة الماعز.

500 – 211 ق. م.:
أول استخراج للغاز الطبيعي في الصين بواسطة أنابيب من قصب الخيزران الغليظ (البامبو)، واستعماله لتحلية مياه البحر والحصول على سلعتين: الملح ومياه الشرب!

1659م:
اكتشاف الغاز الطبيعي في أوروبا، ولكن من دون أن يلقى اهتماماً آنذاك.

1785م:
ظهور صناعة الغاز الطبيعي في بريطانيا. ولكن هذا الغاز كان مستخرجاً من الفحم، وليس من الغاز الطبيعي الموجود في آباره الخاصة.

1816م:
وصول الغاز الطبيعي المصنّع إلى الولايات المتحدة، حيث استخدمته أولاً مدينة بلتيمور لإنارة شوارعها.

1821م:
إنشاء أول خط أنابيب غاز لأهداف تجارية في بلدة فريدونيا القريبة من نيويورك في الولايات المتحدة، وذلك لتلبية حاجات المستهلكين في مجالي الإنارة وطهي الطعام.

1855م:
عالم الكيمياء الألماني بونسن يخترع جهازاً صغيراً يسمح بخلط الغاز الطبيعي مع الهواء بالنسب الضرورية للاحتراق الكامل والمتواصل. الأمر الذي شكّل أساس تصنيع معدات طبخ الأطعمة في المنازل.

1890م:
اختراع أنابيب نقل الغاز المنيعة ضد التسرب.

1904م:
استعمال الغاز لأول مرة في التدفئة المركزية وتأمين كميات كبيرة من المياه الساخنة في لندن.

1927 – 1931م:
تطور ملحوظ في صناعة الأنابيب لنقل الغاز، واكتشاف مكامن جديدة في أنحاء عديدة من أوروبا وأمريكا. الأمر الذي أدى لاحقاً إلى توسعة القطاع الصناعي المعتمد عليه بدءاً من نهاية الحرب العالمية الثانية.

1940م:
تصنيع أول مولد كهرباء للاستخدام العام يعمل على الغاز، وبداية تشغيله بنجاح في سويسرا.

1959م:
اكتشاف الغاز الطبيعي في غرونيغن – هولندا.

1991م:
تدشين المرحلة الأولى من الحقل الشمالي في قطر، وهو أكبر حقول الغاز الطبيعي المعروفة في العالم.

2001م:
روسيا تحتل المرتبة الأولى عالمياً في إنتاج الغاز الطبيعي (20.5 تريليون قدم مكعبة)، وأيضاً في تصديره (6.1 تريليون قدم مكعبة).

هذا الاستعمال كان لغاية مماثلة لواحدة من غاياتنا المعاصرة من استعماله: تحلية مياه البحر. إذ استعمل الصينيون الغاز الطبيعي لفصل الملح عن الماء، مستخدمين في ضبط استخراجه من باطن الأرض أنابيب من قصب الخيزران الغليظ (البامبو)!

الأغرب من كل هذا أن أهمية الغاز الطبيعي نامت بعد ذلك لألفي سنة. إذ أن هناك فجوة تاريخية لم يطرأ فيها أي تطوير يذكر على الغاز الطبيعي، وتمتد هذه الفجوة حتى أواخر القرن الثامن عشر عندما بدأ استخدام الغاز المستخرج من الفحم لإنارة شوارع المدن. ويتألف الغاز الطبيعي من مجموعة غازات متعددة بنسب مختلفة بين موقع وآخر. وأكثر هذه الغازات شيوعاً الميثان الذي تتراوح نسبته ما بين 70 و 90 في المئة من الغاز الطبيعي، ثم الإيثان والبروبان والبوتان بنسب تتراوح ما بين 0 و 20 في المئة، وثاني أكسيد الكربون ما بين 0 و 8 في المئة، والنيتروجين وكبريتيد الهيدروجين ما بين 0 و 5 في المئة والأكسجين ما بين 0 و 2 في المئة إضافة إلى كميات ضئيلة من الغازات النادرة.

تعدّ الإنارة، التدفئة، طبخ الطعام بواسطة غاز البروبان.. من الاستعمالات الرئيسة الأولى للغاز الطبيعي. وظلت هكذا على مدى أكثر من قرن. فالمسيرة كانت بطيئة أولاً، غير أن القرن العشرين شهد تسارع القفزات واتساعها في تطوير الغاز الطبيعي واستعمالاته التي تعددت مجالاتها بحيث بات صعباً تعدادُ الصناعات التي تعتمد كلياً أو جزئياً على الغاز الطبيعي ومشتقاته، ومنها على سبيل ما صار يشكل جزءاً أساساً من الأشياء التي تحيط بنا في حياتنا اليومية مثل خيوط الأقمشة لصناعة الملابس على اختلاف أنواعها، والأثاث المنزلي ومنه السجّاد وبياضات الأسرة والطاولات والكراسي البلاستيكية والوسائد ومراتب النوم. وفي السلع الكهربائية يدخل الغاز الطبيعي في صناعة العوازل والمقابس وأغلفة الكوابل وغير ذلك الكثير، ونجده أيضاً في قطع السيارات مثل أطر الأبواب والنوافذ والمكابح وقطع نقل الحركة الهيدروليكية وباقي القطع البلاستيكية والمطاطية وصولاً إلى مفروشاتها، ومنه تصنع أيضاً أشرطة التسجيل وأغلفة الكتب وأفلام التصوير والمواد العازلة والطلاء والمذيبات وبعض أنواع الصابون والمنظفات، وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى، الأمر الذي أدى إلى تنامي صناعة الغاز بسرعة هائلة أينما توافر في العالم. فلو أخذنا الولايات المتحدة مثلاً حيث استعمل الغاز الطبيعي للمرة الأولى سنة 1816م لإنارة شوارع مدينة بالتيمور، لاكتشفنا تنامي أهمية صناعته بالإشارة إلى أن طول شبكة أنابيب الغاز التي تغطي الولايات المتحدة برمتها حالياً وصل إلى نحو مليون وستمائة ألف كيلومتر!!

الغاز في المملكة.. بداية المسيرة

خلال السنوات الأولى من عمر صناعة الزيت في المملكة، كان الغاز المرافق يحرق في الهواء لعدم وجود سوق قادرة على استيعاب جميع الكميات المنتجة منه، شأنه في ذلك شأن الغاز المرافق في معظم دول العالم. حتى أن ألسنة اللهب المتصاعدة منه تبدو كأكثر الأماكن إضاءة على سطح الأرض في الصور الملتقطة من الأقمار الصناعية ليلاً..

في العام 1975م، وعندما كانت المملكة في بدايات نهضتها الصناعية والتنموية، شرعت الحكومة في وضع برنامج عملاق يهدف إلى الاستغلال الأمثل للغاز المرافق ومنتجاته السائلة ذات القيمة العالية، وعهدت إلى أرامكو آنذاك بتنفيذه. وأرفقت الحكومة برنامجها هذا ببرنامج آخر لا يقل طموحاً ويهدف إلى تشجيع قيام سوق لهذا الغاز تمثلت في الصناعات البتروكيميائية في مدينتي الجبيل وينبع الصناعيتين في شرق المملكة وغربها. الأمر الذي كان يهدف – وأدّى بالفعل – إلى تعزيز القاعدة الصناعية في البلاد عموماً، تنويع مصادر الدخل، زيادة الوظائف، وحماية البيئة من آثار حرق الغاز.

في العام 1980م أنهت أرامكو السعودية تنفيذ هذا البرنامج الطموح الذي تضمّن إنشاء شبكة ضخمة لمرافق معالجة وتجزئة ونقل الغاز فكان من أكبر البرامج الصناعية خلال الربع الأخير من القرن الماضي، ودخلت شبكة تصنيع الغاز وضعاً تشغيلياً منذ ذاك.

من المرافق إلى غير المرافق

وُضع هذا البرنامج لتجميع الغاز المرافق للزيت والاستفادة منه. وهذا ما تم بالفعل في السنوات القليلة الأولى. غير أن إنتاج الزيت تذبذب في أوائل الثمانينيات، الأمر الذي انعكس انخفاضاً في إنتاج الغاز المرافق. وللوفاء بالتزامات إمداد الغاز، بدأت أرامكو السعودية برنامجاً آخر يهدف إلى تطوير احتياطات الغاز غير المرافق.

المحترف السعودي

من أولى فوائد استخدامات الغاز الطبيعي اسطوانات غاز البروبان الواسعة الانتشار في المنازل. أما استخداماته الأهم فهي كوقود في مشاريع تحلية المياه وتوليد الطاقة، بالإضافة إلى استخداماته في الصناعات البتروكيميائية مثل السلع الكهربائية والعوازل والملابس والعديد من الأدوات المنزلية.

مسيرة الغاز الطبيعي في المملكة..

أرامكو السعودية

1969م:
أول إنتاج للغاز في المملكة.

1975م:
حكومة المملكة تطلب من أرامكو السعودية البدء بتصميم وتنفيذ برنامج أعمال الغاز السعودي لمعالجة الغاز المرافق.

1980م:
شبكة تصنيع الغاز السعودي تدخل في وضع تشغيلي.

1984م:
إعادة تأهيل بعض معامل الغاز في أرامكو السعودية لتجميع وتصنيع الغاز غير المرافق المستخرج من الآبار العميقة في منطقتي شدقم والعثمانية في حقل الغوار.

1995م:
أرامكو السعودية تشرع في تنفيذ مشروعات أساسية لتلبية الطلب المتزايد باستمرار لغاز البيع ومنتجات سوائل الغاز الطبيعي في المملكة.

2000م:
اكتمال توسعة شبكة الغاز الرئيسة من نقاط تجميع غاز البيع إلى الرياض.

2001م:
بدء الإنتاج في أول معمل عملاق للغاز غير المرافق في الحوية، والذي يبلغ نحو 1.4 بليون قدم مكعبة يومياً من غاز المبيعات.

2001م:
حكومة المملكة تضع "استراتيجية الغاز"، التي تعتبر خارطة طريق تحدد الأطر الأساسية للتطورات المستقبلية لصناعة الغاز في المملكة.

2003م:
بدء الإنتاج في معمل حرض، الثاني بعد الحوية لإنتاج الغاز غير المرافق، مما أضاف 1.5 بليون قدم مكعبة يومياً من غاز المبيعات إلى إجمالي الإنتاج السنوي.

2003م:
حكومة المملكة توقع إتفاقاً مع العمالقة الثلاثة: أرامكو السعودية وشل وتوتال للتنقيب عن الغاز وإنتاجه في مساحات شاسعة غير مستكشفة في الربع الخالي.

وفي عام 1984م، تمت توسعة شبكة الغاز الرئيسة لاستخراج وتجميع ومعالجة الغاز غير المرافق الذي يُستخرج من مكامن عميقة بمنطقتي شدقم والعثمانية في حقل الغوار العملاق. وعلى الرغم من أهمية التوسع الذي حصل آنذاك، فإنه يبدو اليوم وكأنه مجرد بداية لعصر جديد في صناعة الطاقة، عصر أصبح فيه الغاز عاملاً اقتصادياً رئيساً قائماً بحد ذاته، وليس فقط منتجاً ثانوياً على هامش إنتاج الزيت.

وفي منتصف التسعينيات الميلادية، تم وضع خطط طموحة للتوسع في استكشاف الغاز غير المرافق وإنتاجه. وقد تكللت هذه الجهود بسلسلة من الاكتشافات الكبيرة وبدأ في العام 2001م تشغيل معمل الحوية العملاق، وهو الأول من نوعه في المملكة لجهة إنشائه بهدف تجميع ومعالجة الغاز غير المرافق. وقد أضاف إنتاج هذا المعمل إلى السوق حوالي 1.5 بليون قدم مكعبة يومياً من الغاز الطبيعي تركز استخدامها في المنطقة الوسطى من المملكة التي وصلها الغاز للمرة الأولى فأصبحت مركزاً كبيراً لاستهلاكه، وحلّ محل الوقود السائل المستخدم في توليد الكهرباء، كما وصلت بعض كمياته، من خلال إنشاء شبكة توزيع محلية قام بها القطاع الخاص، إلى المصانع المتوسطة والصغيرة في المنطقة الصناعية الثانية في الرياض.

وبعد تدشين معمل الحوية بعامين، كان معمل مماثل يدخل وضعاً تشغيلياً في منطقة حرض على بعد نحو مئة كيلومتر من الأول، ليضيف بدوره نحو 1.5 بليون قدم مكعبة يومياً من غاز المبيع، ويرفع معدل إنتاج المملكة منه إلى نحو 7 بلايين قدم مكعبة يومياً، وهو ضعف ما كان عليه قبل خمس سنوات.

ويعتقد البعض أن اكتمال بناء معمل حرض كان حدث العام 2003م على صعيد صناعة الغاز من دون منازع، نظراً لضخامته وتميّز إنجازه الذي نال اعترافاً دولياً. برغم أن العام ذاته شهد حدثاً متميزاً آخر هو توقيع اتفاقية التنقيب عن الغاز غير المصاحب وإنتاجه ما بين حكومة المملكة وتحالف الشركات العملاقة الثلاث: شل، توتال، وأرامكو السعودية. وقبل التطرق إلى هذه الاتفاقية ومقاييسها الفلكية، يجدر بنا التوقف أمام ما كان عالم الغاز الطبيعي قد آل إليه في المملكة عشية توقيعها.

نمو صناعته وآفاقها

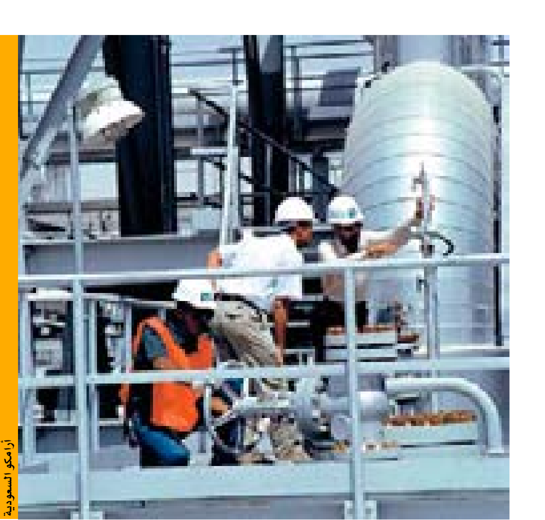
بشكل عام، يعتبر الغاز الطبيعي أسرع مصادر الطاقة نمواً في العالم. وتتوقع الدراسات أن يبلغ معدل نموه خلال المدة الممتدة من يومنا هذا وحتى العام 2025م نحو 2.8 في المئة سنوياً، بالمقارنة مع 1.8 في المئة سنوياً للزيت، و 1.9 في المئة سنوياً لجميع مصادر الطاقة الأخرى. وتزيد حصة الغاز في الطاقة المستهلكة في المملكة عن مثيلاتها في العالم، حيث زادت نسبة مساهمة الغاز في الطاقة المستهلكة من 35 في المئة عام 1990م لتبلغ 40 في المئة في العام 2002م. ومن المتوقع أن تزداد هذه النسبة باطّراد لتصل إلى 51 في المئة في العام 2008م.

وفي الوقت الحاضر، يحتل معدل استهلاك الفرد من الغاز في المملكة المرتبة الثانية على مستوى العالم، إذ بلغ 251 قدماً مكعبة في اليوم خلال العام 2002م، على أساس احتساب مجموع الغاز المستهلك محلياً بالنسبة لعدد السكان. وهو أعلى من نظيره في بعض دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية التي يتمتع مواطنوها بأعلى دخل كالولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحدة وألمانيا واليابان.

ويحتسب سعر الغاز الطبيعي على أساس وحداته الحرارية. وكل مليون وحدة حرارية بريطانية تساوي ألف قدم مكعبة. وفي تحويل ذلك إلى المقاييس بالبراميل نشير إلى أن البرميل من الغاز الجاف يساوي ستة آلاف قدم مكعبة. وتختلف نسب الاستفادة من الفارق بين سعر الغاز وسعر الزيت من مكان إلى آخر. ففي حين أن سعر الغاز في المملكة ينافس سعر الزيت فإن سعره يرتفع في الولايات المتحدة ليصبح مماثلاً للزيت.

على صعيد آخر، حققت صناعة البتروكيميائيات الفتية في المملكة نمواً في السنوات الأخيرة تراوح ما بين 5 و 7 في المئة سنوياً. فباتت المملكة تصنف من بين أفضل منتجي المواد البتروكيميائية الأساسية في العالم وهذه المواد يتم إنتاجها جميعها من أنواع لَقيم غازية المصدر.

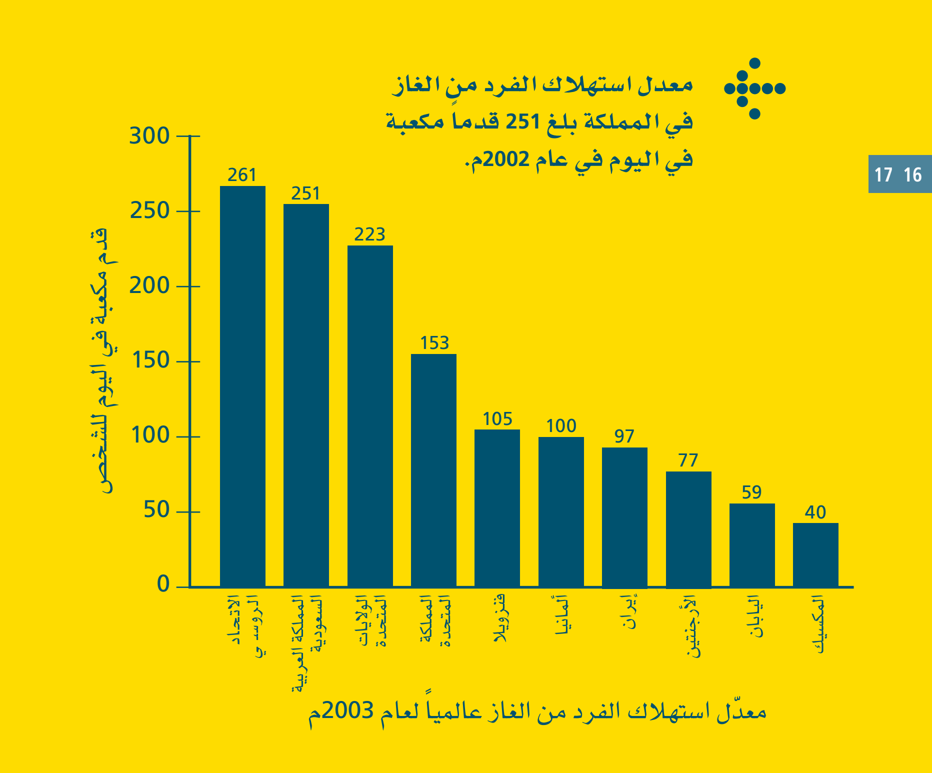
وفي الواقع، فإن نجاحات برنامج الغاز الذي وُضعت أسسه قبل 25 عاماً تقريباً، تبدو جليّة وباهرة



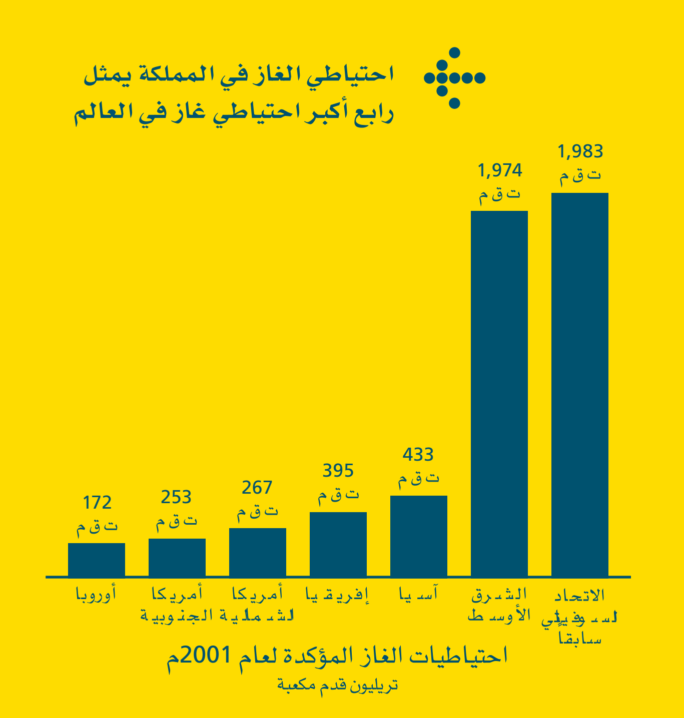
أرامكو السعودية

من أبرز مزايا مشاريع الغاز الجديدة أنها فتحت مجالاً لانخراط الشباب السعودي في إنشائها وتشغيلها. هذا إلى جانب توفيرها آلاف فرص العمل الجديدة أكان في الصناعة نفسها أو في مجالات متصلة بها، مما يضاعف من فوائدها بالنسبة للاقتصاد الوطني

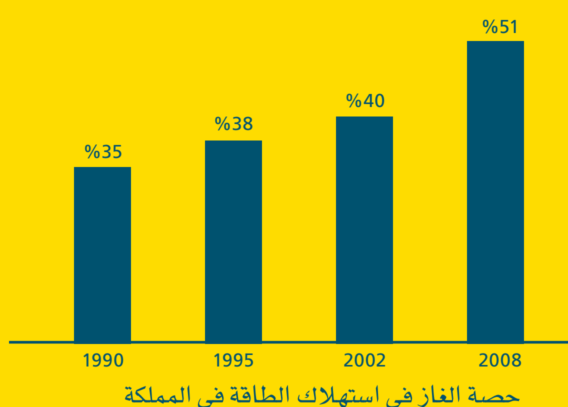
معدل استهلاك الفرد من الغاز في المملكة بلغ 251 قدماً مكعبة في اليوم في عام 2002م.



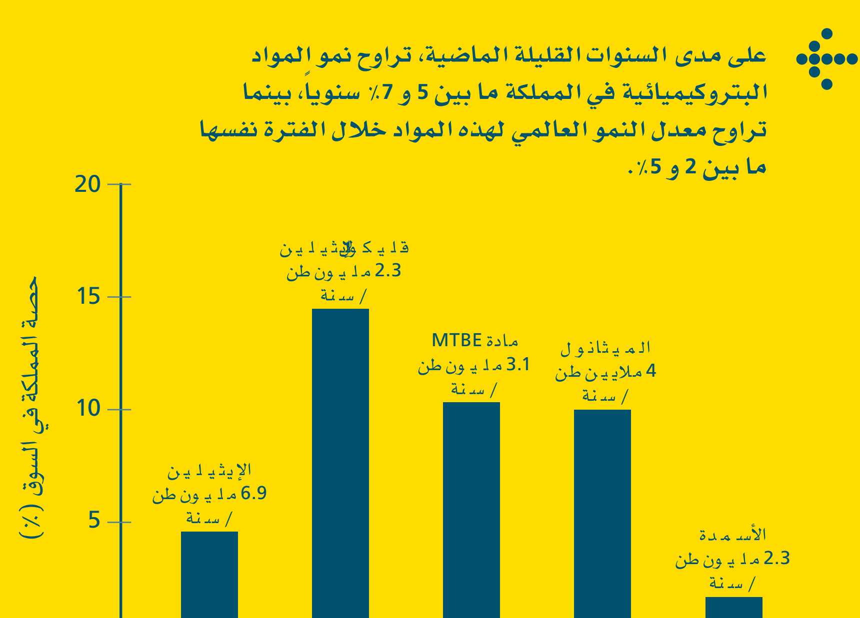
احتياطي الغاز في المملكة يمثل رابع أكبر احتياطي غاز في العالم



تزيد حصة الغاز في الطاقة المستهلكة في المملكة على مثيلاتها في العالم، حيث زادت نسبة مساهمة الغاز في الطاقة المستهلكة من 35٪ في عام 1990م لتبلغ 40٪ العام المنصرم. ويتوقع أن تزيد هذه النسبة لتبلغ 51٪ في عام 2008م. وتعكس هذه الزيادة التوسع في الأنشطة الاقتصادية التي تعتمد على الغاز.



على مدى السنوات القليلة الماضية، تراوح نمو المواد البتروكيميائية في المملكة ما بين 5 و 7٪ سنوياً، بينما تراوح معدل النمو العالمي لهذه المواد خلال الفترة نفسها ما بين 2 و 5٪.



عندما نتطلع اليوم إلى الصناعات والمنافع العديدة المعتمدة عليه. ففي نهاية العام 2003م صار الغاز الطبيعي صاحب الفضل في إنتاج 19 مليون طن سنوياً من المواد البتروكيميائية، و 10 ملايين طن سنوياً من الصلب والأسمنت، و 13,500 ميغاواط من الكهرباء، و 400 مليون جالون يومياً من المياه المحلاة، تعتمد جميعها على وقود ولقيم بأسعار تنافسية. وبلغت مساهمة صناعة الغاز حوالي 25 بليون دولار من التدفقات النقدية سنوياً، أي ما يمثل حوالي 15 في المئة من الناتج المحلي الإجمالي. من دون أن ننسى أن هذه الصناعة وفرّت 35 ألف وظيفة مباشرة، وحوالي 150 ألف وظيفة غير مباشرة من خلال دعم الصناعات والخدمات المرافقة لها. كما أن المملكة صارت اليوم أكبر دولة مصدرة لسوائل الغاز الطبيعي بنسبة تصل إلى 40 في المئة من إجمالي سوائل الغاز الطبيعي المتداولة في العالم.

والاحتياطي ينمو أيضاً

بعدما أيقن العالم بأسره أن لا عودة إلى الوراء في صناعة الغاز الطبيعي، وأن كل المؤشرات تؤكد حتمية نموها خلال السنوات والعقود المنظورة، وفيما كانت الورش المختلفة لهذه الصناعة تقوم في شرق المملكة وغربها، خصصت أرامكو السعودية جهداً موازياً للتنقيب عن مزيد من مكامن الغاز غير المرافق في طبقات جيولوجية عميقة.

ولكن لماذا التركيز على الغاز غير المرافق؟ تحتل المملكة حالياً المرتبة الرابعة عالمياً من حيث احتياطيات الغاز التي تبلغ فيها حوالي 231 تريليون قدم مكعبة. وعلى الرغم من هذا المركز المتقدم، فإن حوالي 136 تريليون قدم مكعبة من هذا الاحتياطي موجود على شكل غاز مرافق، أي أنه ممزوج بالزيت الخام، يرتبط إنتاجه بإنتاج الزيت. ومن حيث المبدأ، فإن الغاز المرافق ذو أفضلية لتكلفة إنتاجه المعتدلة ولاحتوائه على نسب عالية من الإيثان وسوائل الغاز الطبيعي القيمة. ولكن المشكلة تكمن في أن إنتاجه مرتبط بإنتاج الزيت المرتبط بدوره بعوامل عديدة مثل نشاط تجارته عالمياً وركودها ناهيك عن المؤثرات السياسية الكثيرة. لذا يتمتع الغاز غير المرافق بمرونة أكبر على صعيد إنتاجه وتسويقه بعيداً عن كل هذه المؤثرات. وبعدما كانت كمية الغاز غير المرافق لا تزيد على 44 تريليون قدم مكعبة من مجموع الاحتياطي، تمكنت أرامكو السعودية خلال عشر سنوات فقط بفضل التوسع في نشاطات التنقيب والاكتشافات التي حققتها، من مضاعفة هذا الرقم ورفعه إلى 92 تريليون قدم مكعبة. والآتي سيكون أعظم.

الاتفاقيات الأخيرة..
طموحات بمقاييس الربع الخالي

في العام 2001م، وضعت حكومة المملكة ما صار يعرف بـ "استراتيجية الغاز"، التي تقوم أساساً على تمسك المملكة بتحقيق أقصى حد ممكن من الفوائد الاقتصادية والاجتماعية من موارد الغاز الطبيعي. ومن المبادئ الرئيسة في هذه الاستراتيجية نذكر ما يأتي:

أولاً: التنقيب بكثافة في المناطق التي لم يتم التنقيب فيها سابقاً بشكل كاف لاكتشاف موارد إضافية من الغاز غير المرافق يمكن تطويرها لزيادة الإمكانات، وتلبية النمو التقديري للطلب المحلي الذي تشير التوقعات إلى احتمال تواصل ارتفاعه تدريجياً ليصل في العام 2025م إلى 12.2 بليون قدم مكعبة في اليوم.

ثانياً: تركز الاستراتيجية على الاستخدام المحلي للغاز الطبيعي، وتصدير ما يناسب تصديره من مشتقاته، بدلاً من تسييله وتصديره كغاز طبيعي مسيّل، لأن ذلك يضيف إليه عائداً إضافياً، ويحقق فوائد أكبر للمملكة وأبرزها توفير المزيد من فرص العمل للشباب السعودي.

ثالثاً: فتح المجال للمستثمرين للمشاركة في تطوير موارد الغاز على أسس تنافسية جذابة، وتطوير بيئة استثمارية تتميز بتشريعات وأنظمة مرنة ومتوازنة.

وزير البترول والثروة المعدنية مع ممثلي الشركات الثلاث، أرامكو السعودية، شل، توتال، خلال توقيع اتفاقية الرياض في نوفمبر الماضي والتي فتحت آفاقاً جديدة في مسيرة الغاز الطبيعي في المملكة

أرامكو السعودية

مناطق التنقيب المستقبلية وشبكة الغاز القائمة

أ، ب: المناطق التي ستخضع للتنقيب عن الغاز الطبيعي بموجب اتفاقية الرياض الأخيرة.

ج، د، هـ: ثلاث مناطق متجاورة في شمال شرق الربع الخالي، لثلاثة مشاريع اتفاقيات للتنقيب عن الغاز وإنتاجه

وانسجاماً مع هذه الاستراتيجية، تم توقيع اتفاقية الغاز الشهيرة بالرياض في شهر نوفمبر من العام الماضي.

تؤدي هذه الاتفاقية إلى تأسيس شركة جديدة يبلغ نصيب شركة شل منها 40 في المئة، وتتقاسم أرامكو السعودية وتوتال بالتساوي 60 في المئة منها. وتمنح الاتفاقية هذه الشركة الحق الحصري في التنقيب عن الغاز غير المرافق وإنتاجه في منطقتين تقعان في جنوب الربع الخالي وشرقه تبلغ مساحتيهما 209,160 كيلومتراً مربعاً، وذلك لثلاث مدد تنقيب تبلغ كل منها خمس سنوات، ومدة إنتاج قدرها خمسة وعشرون سنة لكل منطقة تطوير على أن لا تتجاوز المدة الكلية للاتفاقية بأي حال أربعين سنة.



قاموس الغاز

- **الغاز الطبيعي:** هو الغاز بكل ما في تركيبته عند استخراجه من الأرض، كغاز مرافق أو غير مرافق للزيت. ويكون إمّا مُرّاً، أي أن نسبة الكبريت فيه مرتفعة، أو حلواً وتكون نسبة الكبريت فيه متدنية. وفي جميع الأحوال، فإن غالبية الغاز الطبيعي تكون من الميثان.
- **الغاز الجاف:** هو غاز قليل الشوائب، ولا يحتاج إلى معالجة ويستخلص من الغاز الطبيعي ويتحوّل مباشرة إلى غاز بيع.
- **غاز البيع:** هو غاز الميثان وهو الغاز الجاهز للبيع كي يستخدم كوقود لتوليد الطاقة أو كلقيم للبتروكيميائيات.
- **الغاز المُسال:** هو الغاز الطبيعي الذي يتم تسييله بهدف الشحن، لصعوبة شحنه بصفته الغازية.
- **سوائل الغاز الطبيعي:** مجموعة غازات (إيثان، بروبان، بوتان، وغازولين طبيعي) تنتج عن تجزئة ما يبقى من الغاز الطبيعي بعد استخلاص غاز الميثان منه. وتُسيَّل للشحن، ما عدا الإيثان الذي يحتفظ بحالته الغازية.
- **معمل التجزئة:** وهو الذي يتولى تجزئة الغاز الطبيعي إلى مشتقاته.
- **معمل المعالجة:** يقوم في إطار معمل التجزئة بتنقية الغازات من الشوائب.
- **اللقيم:** هو المادة الطبيعية التي تستخدم كأساس في إنتاج المواد البتروكيميائية.

وهكذا، نكتشف اليوم كم ابتعدنا عن تلك المرحلة التي كان الغاز الطبيعي يعتبر فيها عبئاً يحرق في الهواء في معامل إنتاج الزيت وتكريره. فقد ترسّخ ثروة لا تقل شأناً في تأثيرها في حياتنا عن ثروة الزيت، وتعد بآمال على مقاسات الربع الخالي.

والمستفيد الأول؟

اتفاقية الرياض ما بين الحكومة والشركات الثلاث التي أشرنا إليها نصّت على وجوب توظيف مواطنين سعوديين لشغل نسبة 65 في المئة من جميع الوظائف بعد بدء عمليات التشغيل والإنتاج، على أن ترفع هذه النسبة إلى 75 في المئة خلال ثلاث سنوات. كما تلزم هذه الاتفاقية الشركة الجديدة بإعداد برامج تدريب وتأهيل الموظفين السعوديين. وما كل ذلك إلا تنفيذاً لمبدأ أساسي في الاستراتيجية الحكومية للتعامل مع الغاز.

الرسوم البيانية والخرائط من إعداد أرامكو السعودية

الغاز السعودي بعد حرض

بقلم: ضيف الله العتيبي*

يعتبر معمل حرض آخر المشاريع العملاقة في صناعة الغاز الطبيعي التي نفذتها أرامكو السعودية، ولكنه بإذن الله لن يكون الأخير.

فلدى الشركة خطط معتمدة لتوسعة معمل الحوية بإضافة وحدات معالجة للغاز تبلغ طاقتها 800 مليون قدم مكعبة في اليوم، ومن المتوقع أن تدخل هذه الوحدات الخدمة في منتصف عام 2007م.

فعلى صعيد التنقيب، ستستمر أعمال الاستكشاف لأرامكو السعودية في مناطق امتيازاتها لزيادة الاحتياطات المكتشفة من الغاز جنباً إلى جنب مع الاستكشافات التي تقوم معها بالتعاون مع شركات أخرى.

إلى ذلك، هناك خطة اعتمدتها أرامكو السعودية لإنشاء معمل ضخم في منطقة الحوية لاستخلاص سوائل الغاز الطبيعي من غاز معملي الحوية وحرض، ويتوقع له أن يدخل الخدمة في منتصف العام 2007م. الأمر الذي سوف يوفر مزيداً من كميات اللقيم للتوسع في الصناعات القائمة على الغاز. وقد تم مؤخراً تخصيص كميات كبيرة من الغاز ومنتجاته من مشروعات أرامكو السعودية الحالية والمستقبلية، لعدد من المشروعات الصناعية في عدة أماكن من المملكة، ومن المتوقع أن ينتج عن عملية تخصيص هذه الكميات استثمارات سعودية وعالمية في عشرة مشروعات ضخمة تقدّر قيمة منتجاتها البتروكيميائية والمعدنية بحوالي 18 مليون طن متري سنوي، وهو ما يمثل زيادة بمقدار 50 في المئة عن مستويات الإنتاج الحالية من المواد البتروكيميائية والمعدنية في المملكة. وستشكل هذه المشروعات قاعدة لصناعات تحويلية أخرى، كصناعة المواد البلاستيكية بمختلف أنواعها والسجاد والعوازل والمذوبات الصناعية والأسمدة، بالإضافة إلى صناعة معدنية أخرى.

ومن المقدر أن يبلغ إجمالي الاستثمارات في هذه المشروعات نحو 75 بليون ريال سعودي، وستوفر مجتمعة نحو 12 ألف وظيفة مباشرة، وعدداً أكبر من الوظائف غير المباشرة. وحسبما هو مخطط له، فستبدأ هذه المشروعات في الإنتاج بإذن الله خلال الفترة الواقعة ما بين العامين 2006 و 2009م.

ويمثل أحد هذه المشروعات، قفزة نوعية على المستوى الصناعي والتقني. إذ أنه يقضي بتحويل مصفاة رابغ إلى مركز عالمي عملاق ومتكامل لإنتاج وتصنيع المنتجات البترولية والكيميائية. وقد تم قطع شوط كبير في عمليات التخطيط للمشروع، وتجري حالياً مناقشته مع شركاء محتملين، ومن المتوقع أن يجلب المشروع استثماراً مباشراً يزيد على 15 بليون ريال، وسوف يبدأ تشغيله في أواخر عام 2008م.

هذا على صعيد خطط أرامكو السعودية للسنوات القليلة المقبلة، أما على الصعيد الوطني والمشاريع المشتركة كاتفاقية الرياض التي وقعت في نوفمبر الماضي، فقد طرحت وزارة البترول والثروة المعدنية، ومن خلال جدول زمني محدد، مناطق أخرى واعدة في منطقة شمال الربع الخالي على شركات بترولية عالمية للتنقيب عن الغاز الطبيعي وإنتاجه. وإجراءات طرح هذه المشروعات تسير حسب الجدول المعدّ لها بدقة. فقد تم تسليم الشركات وثائق المنافسة، كما تم فتح غرف المعلومات لتزويدها بالمعلومات الجيولوجية الدقيقة عن المناطق المعروضة. وهناك إقبال جيد على المشاركة، وستعلن نتائج هذه المنافسة في الربع الأول من العام الجاري بإذن الله.

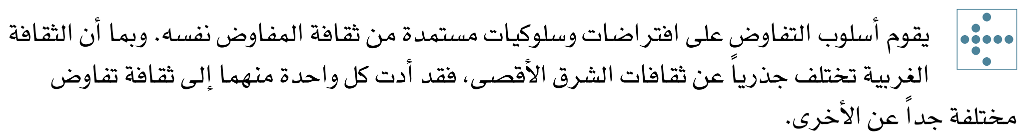
* النائب الأعلى لرئيس أرامكو السعودية لأعمال الغاز

ثقافة التفاوض في الأعمال بين الصين والغرب



مع تزايد الانفتاح الاقتصادي في الصين على العالم، عرضت تريزيا تاوبر في مقالة لها في "نشرة البنك الدولي" لثقافة التفاوض في مجال الأعمال، واختلافاتها الكبيرة في الصين عن ما هي عليه في الغرب.

الموضوع الذي ترجمه للقافلة عبدالحفيظ جباري، موجه أساساً إلى رجال الأعمال. ولكنه يكتسب بعداً ثقافياً عاماً من خلال إظهار عمق الأثر الذي يتركه الاختلاف الثقافي في التفاوض في مجال العمل والاقتصاد.



يقوم أسلوب التفاوض على افتراضات وسلوكيات مستمدة من ثقافة المفاوض نفسه. وبما أن الثقافة الغربية تختلف جذرياً عن ثقافات الشرق الأقصى، فقد أدت كل واحدة منهما إلى ثقافة تفاوض مختلفة جداً عن الأخرى.

أصل الاختلاف

بتطور ثقافات الغرب نشأت وتطورت معايير أُسست على قوانين وقواعد وتنظيمات غايتها أن تنفَّذ على الفرد. ولهذا يرغب الغربيون في أن تكون العدالة "عمياء" ونزيهة وغير متحيّزة. أما في الجانب الآخر، أي في ثقافات الشرق الأقصى، فقد نشأت معايير استندت إلى كل ما هو في نظر أبنائها ضروريٌّ للإبقاء على حُسن العلاقات داخل مجموعاتهم المكونة لمجتمعاتهم (القرية فيما سبق وحاضراً وحدة الأعمال). ففي نظمهم يجب ألاَّ تكون العدالة "عمياء" بل مفتوحة العينين، يصحبها فهْمٌ واضح لما يكون في المتناول من أوضاع لجميع تبعاتها وللفاعلين فيها، وينسحب ذلك على العلاقات القائمة بين هؤلاء الفاعلين وأيضاً العواقب المترتبة عن النزاعات بالنسبة للمجموعة بمجملها. ويتضح أن الفرق الأساسي القائم ما بين "القواعد" و"العلاقات" يقود إلى ثلاثة اختلافات: أسلوب تفكير المجموعة مقابل أسلوب تفكير الفرد، التركيز على الأفراد مقابل التركيز على المهمات، والتطوير مقابل التراتبات السطحية. إن هذه الفروق لا تزال في الوقت الحاضر تقود إلى نشوء وتشكُّل افتراضات وسلوكيات مختلفة في عالم الأعمال. الأمر الذي يؤدي إلى اختلاف بين الجانبين فيما يخص طرق ضمان وتأمين وطمأنة كل جانب للآخر إلى حسن نواياه وبشعوره الودّي، مردّه تباين الأدوار المنوطة بالقواعد وبالعلاقات في إطار ثقافة كل جانب.

الجدول (1): إيلاء الاهتمام لدور «القواعد» و«العلاقات»

نصائح للمفاوضين الصينيين	نصائح للمفاوضين الغربيين
أعلنوا عن النقاط الأساسية المتعلقة بالأعمال المشتركة بينكم في شكل عقد مبكراً. سيدل هذا على جدية اهتمامكم. اجعلوا النقاط ذات البعد الذاتي واضحة لأن الجانب الغربي سيندهش من حصول أي تغيّر لاحقاً.	لا تحاولوا إدراج كل الإمكانيات الممكن تصورها في عقدكم أو عقودكم. هذا يُبديكم وكأنكم تتوقعون الأسوأ من علاقتكم مع الجانب الآخر. ركزوا اهتمامكم على الاحتمالات الأكثر أهمية.
إذا ما شرع الغربيون في تناول أشد المواضيع حرجاً ربما يُعدّ هذا مؤشراً إيجابياً. إنهم يفضلون استبعاد المشكلات الرئيسة مبكراً حتى يضمنوا وجود أساس مشترك، ولا يضيّعون وقتهم وجهدهم في تناول حالة أو قضية متعذرة ومستحيلة.	الصينيون أمْيل إلى تسوية النقاط السهلة أولاً. إن تحقيق تقدّم جزئي أو كما يُقال - إلى منتصف المسافة - مع أي شريك سيجعلهم يشعرون بتحفز أكبر لإتمام المسائل الأكثر صعوبة أيضاً.
إذا ما قام شريككم بالإشارة إلى مطلب شرعي وقانوني في بلده، فليس ثمة مجال للانفلات من ذلك لأن القوانين الغربية لا تمنح مهلة كبيرة.	إذا ما أشار شريككم إلى مطلب شرعي وقانوني وأتى على ذكره، تحققوا من ذلك على مرتين. فالقوانين في الصين تشهد تغيراً وتعديلاً متواصلاً ومطرداً. فقد يجهل شريككم آخر التنظيمات سارية المفعول أو قد يستغل هذا الشريك هذا الوضع المبهم وغير الواضح لأغراض تكتيكية.
يعتقد الغربيون أن عقداً موقعاً يجعل من اليسير رسم مساع أخرى تدور في فلك هذا الفعل الثابت (أي توقيع العقد) وأن فكرةً معاودة التفاوض بشأن اتفاقية مكتوبة يعد أمراً مروّعاً لهم ويُنشئ ارتياباً عميقاً في نفوسهم.	في الصين لا يُعدّ توقيع العقد نهاية للمفاوضات بل يُعدّ نقطة انطلاق جديّة. ويعتقد الصينيون أن في هذه المرونة تكمن فرصة لاستغلال أفضل لما يطرأ من أوضاع جديدة.

المجموعة مقابل الفرد

عند التقاء وفدين صيني وغربي يتبيّن لهما أن ثمة اختلافاً بيّناً في تركيبة كل طرف. فالغربيون هم أكثر استعداداً للتعبير عن آرائهم الفردية. في حين أن الصينيين لا ينزعون إلى معارضة المجموعة المنتمين إليها على نحو صريح وغير متحفظ. وتجدر الإشارة إلى أن الثقافتين لديهما مشكلات في التعامل مع العمل الجماعي بفاعلية. فالغربيون يرون أن الأفراد يمكنهم أن يتصرفوا مثل "الذئاب المنعزلة"، أي أن يتعاملوا مع الأمور بحسب ما تفرضه الأوضاع التي يتواجدون فيها. أما بالنسبة للصينيين فإن التفكير في ظل المجموعة ينطبق على تلك المجموعات المعينة لمدة طويلة، ولا ينطبق ذلك على أي وفدٍ جُمع أعضاؤه حديثاً ولأسباب تقنية محضة لا غير.

الجدول (2): الأخذ في الاعتبار دور الفرد ودور المجموعة

نصائح للمفاوضين الصينيين	نصائح للمفاوضين الغربيين
إذا أردتم أن ينظر الطرف الآخر باحترام وتقدير وجديّة لبعض أعضاء فريقكم المفاوض، حاولوا أن تُهيئوا الأمر لهؤلاء الأعضاء حتى يتحدثوا بشكل كافٍ. فالأعضاء الذين يظلون صامتين سيُبخسون قدرهم.	أوقفوا في الحال أي نزاع ينشب في حضور زبون أو شريك محتمل! فكروا مسبقاً في الاتفاق مع أعضاء فريقكم المفاوض على التحدث بواسطة القليل من الإشارات التي في وسع أي عضو من الفريق استخدامها ليَبين عن فكرته معناها «بروز الحاجة لوقت مستقطع».
إذا ما شعرتم بأنكم على توافق حسن مع أحد أعضاء الفريق الآخر، في وسعكم أن تتصلوا بهذا الشخص باعتباره «حلاّل عُقَدْ» عند الضرورة والاقتضاء. هذا الفرد سيشعر بعدها بالمسؤولية فيتصرف بوصفه وسيطاً (طبعاً لا تتوقعوا أن يتصرف تصرفاً يُعارض المصالح الجوهرية لفريقه أو لفريقها).	إذا ما شعرتم بأنكم على توافق خاص مع عضو من الفريق الآخر، فلا تُبدوا ذلك علناً وبشكل واضح. فهذا أمر قد يُعرّض وضع ذاك الشخص للاهتزاز والارتياب في شأنه من قِبل فريقه المفاوض، وقد ينحى الأمر إلى استبعاده من الوفد.

التركيز على الأشخاص مقابل التركيز على المهام

وبدرجات متباينة ومتفاوتة، ينزع الغربيون إلى التركيز على المهام أكثر من تركيزهم على الأشخاص. ويبلغ الأمر أقصى مداه لدى الألمان والسويسريين. فهم يرون أن البراهين والحجج المستخدمة للاتفاق بشأن معاملة أو صفقة ما يجب أن تستند إلى حقائق معقولة. ويعتقدون أن أكثر ما يفضله الزبون، حين تعامله مع وكيل مبيعات أو خدمات، هو أن يتسّم هذا الأخير بالخبرة والفورية.

أما الأشخاص الذين يركِّزون على الأفراد فيلجأون إلى قلة الحديث بوصفه أساساً مهماً في الأعمال. فعلاقات المرء ومعارفه الشخصية المتبادلة، وبشاشة الوجه، وكذا الثقة المتبادلة هي أكثر الأمور التي يُعولون عليها بدلاً من التعويل على التكلّم والتحدث وطرائقه. فهم يبحثون عن وكلاء أعمال بمقدورهم أن يُنشئوا وإياهم علاقة جديرة بالثقة والائتمان. وينطلقون من فرضية أن الغربيين جميعاً أُناس مقتدرون في الجانب التقني للاستفادة من خدماتهم. وأن الأهم في نظرهم معرفة مدى استعداد أي شخص يرغب في القيام بتلك الخدمة لصالحهم وكيفية ذلك.

وحين البدء في التفاوض يظهر الفارق القائم بين الشركاء الذين يركّزون على المهام والشركاء الذين يركّزون على الأشخاص من خلال أسلوب تعاملهم مع مفهوم "الوجه".

الجدول (3): الأخذ في الاعتبار دور «الحقائق» مقابل دور «الوجه»

نصائح للمفاوضين الصينيين	نصائح للمفاوضين الغربيين
خذوا في حسبانكم أن إراقة ماء الوجه أمر لا يخشاه الغربيون كثيراً. وفي أحيان كثيرة، لا يتنازلون عن إثبات نقاط أساسية في تعاملاتهم وعقودهم لمجرد صون ماء الوجه.	لا تجيزوا على نحو متعمد أو دون دراية منكم أن يبذل الآخرون ماء وجههم. فهذا أمر مؤلم للصيني وللصينية أكثر مما تظنونه وأكثر مما يبديه أو تبديه.
توقعوا من الغربيين أن يسعوا لإفقادكم ماء وجهكم وهم جاهلون ذلك تماماً. لأنهم غير معتادين على هذا المفهوم غير المعهود في ثقافتهم. أخبروهم إذن بأن ما قالوه وتلفظوا به أو فعلوه يُعدّ فظاً وغير لائقٍ في ثقافتكم وأضيفوا لهم على نحو مهذّب أنكم متأكدون من أن تصرفهم هذا غير مقصود وغير متعمّد.	توقعوا أن يقوم الصينيون وعن قصد وتعمّد منهم بإفقادكم ماء وجهكم، خصوصاً قبل الإعلان عن الشروع في العلاقة العملية. إن أردتم دوام العلاقة، أكّدوا لهم أن الشيء الذي يرغب شريككم أن تفعلوه غير مقبول، لأن ذلك سوف يُفقدكم ماء وجهكم داخل مؤسستكم التي تعملون فيها.
إن الغربي الذي يُسمّي شيئاً ما «تافها» تفضّل أنت أن تُعيّنه بتفصيل في مضمون العقد، فالاحتمال الغالب أنه لا يقصد أن يشتمك لكنه يعتقد بأنه يعينك على تجنب الوقوع في الخطأ (فالغربيون يسلكون هذا السلوك فيما بينهم أيضاً). إذن تجاهل هذا التعليق.	إذا كان الجانب الآخر يُفضّل أن يتناول شيئاً ما يُعدّ تافهاً في رأيك أنت، وطالما أن هذا لا يؤلمك فاقبله ولا داعي لإيذاء وإيلام الطرف الآخر. ما عليك فعله هو أن تشرح لرئيسك بعد عودتك سبب ذكر هذا البند في العقد.

التطوير مقابل التراتبات السطحية

نظرياً، يعتقد المفاوضون من كل ثقافة ذات الخلفية المختلفة أن مقاربة المفاوض الآخر ستجعل اتخاذ القرار أكثر استطالة وبذلك تكون النتائج أقل وثوقاً. وما يسبب الإحباط لدى الغربي أنه بعد كل جولة من المفاوضات عليه أن يسعى إلى إقناع المستوى الأعلى الموالي في الجانب الصيني.

ويُحبَط الصينيون أيضاً لأن العديد من نظرائهم في الجانب الغربي يجب أن يُوافقوا، فيتبدّى وكأن هذه المفاوضات ستستغرق وقتاً طويلاً. عكس ما يستغرقه صدور قرار يتخذه رئيس أو مدير قوي. والحقيقة أن نظامي كلا الثقافتين يضمّان أطواراً سمتها السرعة حيناً والبطء حيناً آخر هي التي تشكّل في مجملها سيرورة اتخاذ القرار.

الجدول (4) الأخذ في الحسبان دور التراتب

نصائح للمفاوضين الصينيين	نصائح للمفاوضين الغربيين
ستلقى مستويات عدة من التراتب تختلف عن ما هو سائد في ثقافتك. اعلم أن كل شخص ترسله شركة غربية للتفاوض في الصين هو اعتيادياً مرخّص كليةً لاتخاذ القرارات اللازمة والمناسبة حتى وإن كان شابّاً.	ستلقى الكثير من مستويات التراتب تفوق ما هو سائد في ثقافتك. ويتوقّع كل واحد من نظرائك أن تقدّم العديد من التنازلات. فإن تعيّن عليك منحها فَليتم ذلك على نحو يُرضي كل طرف. واعلم أن القائد الأعلى سيتخذ قرارات غير مناقضة للمشاعر القوية الصادرة عن مرؤوسيه.
لأجل مساعدة نظيركم على فهم وإدراك مدلول وظيفتكم داخل شركتكم، قدّموا له توضيحاً حول الهيكل التنظيمي الذي يشرح تركيبة وحدة الأعمال التي تتبعونها. فالغربيون يلتبس عليهم الأمر بسبب كثرة التسميات أو الألقاب المهنية.	توقّع أن تقابل ببطاقات الأعمال المثيرة للإعجاب (فبالتقريب كل شخص تقابله إما أنه مدير شركة أو نائب مدير شركة)، ثم قُم بترجمة وتوصيف وظيفتك في صيغة مقبولة.

أخيراً بعض التلميحات للطرفين

أولاً: الصينيون

إن التحجج بمقولة إن "هذا الأمر يؤدي (أو لا يؤدي) وفق هذه الطريقة في الصين "يتعيّن استخدامها فقط في حال استنادها إلى الواقع. إن الغربيين، وباهتمام زائد، يكونون قد استنفدوا جهدهم في تحضير سفرتهم إلى الصين وعَنوا بها كل العناية وباستطاعتهم أن يُخبروكم متى استخدمتم هذا التحجّج لأسباب تكتيكية لا غير.

ثانياً: الغربيون

إن التحجج بمقولة إن "هذا الأمر ممارسة مقبولة ومعمول بها دولياً" لا بدّ أن تستخدموها في حال كونها حقيقة وواقع. فالصينيون بدورهم، وباهتمام زائد، مطلّعون على الإجراءات الدولية في عالم الأعمال وواعون بالأمر إلى أقصى مداه وبالتالي بمقدورهم أن يُدركوا حقيقة مخادعتكم في حينها.

وبالنسبة للجانبين فإن حسن التعامل المتبادل يلقى قبولاً طيّباً بين الطرفين، سواء فيما يخصّ صياغة العقد أو حين مباشرة تنفيذه. وفي منعطف القرن الماضي، تم إكراه الصينيين على معاهدات غير متكافئة من طرف إمبرياليين غربيين. ومنذ ذلك الحين حصل تغيّر، وأضحت البنود المتبادلة مهمة لدى المفاوضين الصينيين ويتعيّن إدراجها كلما تيسّر ذلك. وعند حلول آجال تنفيذ بنود عقد ما، فإن الغربيين سيُقصرون اهتمامهم أصلاً على الالتزام بوعودهم التي قطعوها على أنفسهم إذا ما جرّبوا وخبروا بأن شركاءهم الصينيين يفعلون الشيء نفسه.

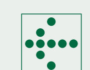
ونخلص إلى القول أنه ما دام أن الغرض من ثقافتي الشرق الأقصى والغرب هو الوفاء أساساً بمتطلبات وحاجيات وضرورات شعوبهما فإن المشكلات تنشأ دوماً حين التقاء الطرفين.

وليس هناك قواعد عامة تُمكّن من معرفة ما يفضله كل طرف. فالأمر الأساسي هو أن كل لقاء يُعقد بين الطرفين سينشئ ثقافته المصغّرة التي تخص هذا اللقاء. ويُعدّ صقل هذه المسيرة وتحسينها أمراً حاسماً إن كانت الغاية منها إنجاح المفاوضات. وبالتالي فمن الضروري أن يحاط كل طرف علماً بخصوصيات الطرف الآخر بهدف تطوير استراتيجيته تحقيقاً لمحادثات ناجحة وموفقة.

قول في مقال

حال الرواية

في ظل التحولات الكبيرة التي يشهدها العالَمُ على الصعد الثقافية والفنية، وحتى على نمط الحياة ككل، بات من الممكن أن نتساءل.. هل تراجع دور الرواية في التعبير عن الواقع الإنساني؟ وما هي طبيعة التنافس بينها وبين الأشكال الأدبية الأخرى؟ وما هي التحديات التي تواجهها في ظل ثورة المعلومات والاتصالات وسيطرة الصورة المرئية.. شيخ الرواية العربية الحائز على جائزة نوبل الأديب **نجيب محفوظ** يخص القافلة برأيه في هذا الموضوع.



منذ أن ظهرت الرواية بشكلها البسيط - في صورة حكايات - إلى أن وصلت إلى شكلها الذي نعرفه الآن وهي تقوم بدورها في كل العصور في التعبير عن الواقع في المجتمع الذي تولد فيه خاصة البعد الاجتماعي والإنساني لهذا الواقع، وهذا هو سبب بقائها وقربها من الناس.. وذلك لأن الناس في كل عصر يحبون الحكايات، وعندما تكون الرواية ذات مستوى أدبي وتقني رفيع، فإنها تنجح في التأثير في الناس وتدفعهم للتفاعل معها.. وأهم أسباب حب الناس وتفاعلهم مع الرواية أنها تشبع العديد من الحاجات الإنسانية لديهم فالناس دائماً بحاجة إلى واقع جديد - أياً كان - بشرط أن تكون خيوطه هي نفس الخيوط التي نُسجت منها حكاياتهم هم والتي يعيشونها في الواقع.. لذلك عندما يقرأ الإنسان رواية ما فإنه في أحيان كثيرة يجد نفسه بطلاً للحكاية التي تسردها الرواية، أو أنه يتمنى أن يصبح هذا البطل أو يجد نفسه في أحد شخصياتها.. ومن الممكن أن يجد في أشخاص الرواية صورة لأشخاص يعرفهم أو عرفهم في حياته.. إذن قد يجد الإنسان في الرواية قصة وأحداثاً عاشها أو تمنى أن يعيشها أو - على الأقل - كان شاهداً عليها.. وفي أحيان أخرى تكون الرواية مهرباً من الفشل الذي يلاقيه الإنسان في حياته الواقعية، حيث يرى فيها واقعاً آخر تمنى أن يعيشه أو آمالاً تمنى أن يحققها، فمثلاً إذا كان يعاني من فشل في الحب فإن قراءة قصة حب ناجحة يسعده فتراه يتأثر ويتفاعل مع الحب الذي يقرأ عنه فإذا جاء مشهد فيه جفاء بين الحبيبين فهو يشعر بأنه هو الذي يعيش هذا الموقف ويتمنى أن ينتهي مشهد الجفاء بين الحبيبين.. كذلك قراءة موقف يعبر عن معاناة إنسانية يجد فيه - القارئ - عزاءً إنسانياً له عن ما يعيشه من معاناة ربما تكون متشابهة مع ما تحكيه الرواية.

وليس صحيحاً أن الإيقاع السريع للحياة جعل الناس تبتعد عن القراءة بشكل عام، والرواية بشكل خاص.. صحيح أن المادة طغت على كل شيء في العصر الذي نعيشه، لكن كلما طغت هذه المادية شعر الإنسان بأنه أكثر حاجة إلى إنسانيته، فمثلاً يمكنك أن تجلس على الإنترنت لتعقد صفقات في دقائق قليلة، أو تعرف معلومات تتحول إلى أموال ورغم ذلك ستجد نفسك تقضي أضعاف هذا الوقت في مطالعة رواية لن تعود عليك بأي مكاسب مادية؛ وذلك لأنك بحاجة إلى إنسانيتك بحاجة إلى إشباع حاجات إنسانية لن تشبعها المكاسب المادية.. ولا تهم الوسيلة التي تطالع بها الرواية سواء كانت كتاباً أو على الإنترنت، المهم أنك ستسعى إليها، لأنها تمثل لك شيئاً مهماً يعيدك إلى إنسانيتك التي تبحث عنها والتي فقدتها وسط طغيان المادة.

والقول بأن الرواية لم تعد تقوم بدورها يحتاج إلى الكثير من المراجعة؛ لأن الأزمة التي تمر بها الرواية ليست أزمة أدبية لكنها جزء من أزمة عامة تتمثل في حالة «الانحدار العام» في كل شيء في الأدب والفنون والسياسة والرياضة وكافة مجالات الحياة فعندما يكون المناخ العام سيء لا بد أن يتأثر كل شيء بهذا المناخ.. ولا يمكن للأدباء أن يفعلوا أكثر مما يفعلون فهم يعبرون عن هذا الواقع المتردي في إنتاجهم الأدبي، أما أن يُقبِل الناس على هذا الإنتاج أو لا فطالما أن الإنتاج جيد ويعبّر عن الواقع فإنها ليست أزمة الأدب أو الأديب فقط لكنها أزمة المجتمع كله.

في وقت من الأوقات كان الشعر سيد الأشكال الأدبية جميعاً.. لكن في السنوات الأخيرة استطاعت الرواية أن تسحب البساط من تحت أقدام الشعر لأنها تقدم للناس احتياجاتهم الإنسانية أكثر من الشعر لذلك تفاعلوا معها.. فالشعر يكتفي بالضغط على أوجاع الناس فيصرخون ألماً.. أما الرواية فإنها تتعامل مع الجرح بيد جرَّاح ماهر فتغوص بداخله وتلقي الضوء على أبعاده المختلفة وتناقش تفاصيله المتعددة وهو ما يخلق حالة «التقاء إنساني» بين القارئ والرواية تؤدي إلى حالة التوحد التي تدفعنا إلى عدم القدرة على إغلاق رواية ما إلا بعد أن ننتهي من قراءتها حتى النهاية.

ولست أخشى على الرواية من التراجع لأنه مهما تغيرت أحوال الدنيا ستظل الرواية أكثر الأشكال الأدبية تعبيراً عن الواقع، وأكثر ما يمكن أن يشبع الحاجات الإنسانية لدى الإنسان، لذلك مهما طغت القيم المادية على الحياة وحولتها إلى مجرد أرقام فإن الإنسان سرعان ما سيدرك ما الذي يحتاجه وستدفعه فطرته الإنسانية إلى إدراك أنه يحتاج إلى إنسانيته، وأن هذه المادة التي سيطرت عليه ما هي إلا مجرد وسيلة لا يجب أن تسيطر عليه، لذا ستجده يبحث عن ما يشبع حاجاته الإنسانية، وهنا سنجد الرواية والتي يجب أن تستمر - رغم كل المتغيرات - في القيام بدورها في التعبير عن واقع الإنسان والتأريخ الاجتماعي للتحولات الخطيرة التي تطرأ عليه لأن هذا الاستمرار هو الضمان لبقائها، فإذا توقفت عن التعبير عن هذا الواقع أو تجاهلته تكون قد انتهت.

التطورات التكنولوجية المتلاحقة وثورة المعلومات، والتي جعلت العالم أشبه بقرية صغيرة تخلق تحدياً جديداً أمام الرواية، حيث سيكون في استطاعة القارئ بسهولة شديدة الاطلاع على الإنتاج الأدبي لأدباء من كل مكان في العالم مما سيعد منافسة شرسة بين الأدب المحلي والأدب العالمي.. وفي تقديري إنه على الأدباء أن يعبروا عن القضايا المحلية أكثر؛ لأن الإغراق في المحلية الشديدة - على ما يتصور البعض - هو الضامن للاحتفاظ بالقارئ فإذا كانت الرواية العالمية أكثر تقدماً وتتمتع بتقنيات وأدوات فنية أكثر تأثيراً فإن محلية الرواية الداخلية ستضمن بقاءها في المنافسة، لأنها مرتبطة بواقع القارئ مما يجعلها أكثر قرباً منه وأكثر تعبيراً عن حاجاته الإنسانية.

ورغم كل ذلك لا نستطيع أن ننكر أننا في عصر العلم الذي أصبح الوحيد لتقدم الأمم على عكس عصور مضت كانت الآداب والفنون هي مقياس تقدم الأمم وتحضرها.. لكن ذلك لا يلغي دور الأدب والفنون ربما يقلل من دوره - مؤقتاً - نوعاً ما لكنه لا يلغيه لأنه - كما قلت - جزء من نسيج الإنسان ومعبر حقيقي عن واقعه الإنساني والاجتماعي.



ندوة القافلة..

تعثّر التربية!

متى ضممت ابنك آخر مرة؟

التربية هي تلك العملية الأسرية التي تستمر لسنوات، سعياً من الأهل إلى إطلاق أولادهم على دروب الحياة وهم في حالة تبعث على الرضا والاطمئنان إلى مصيرهم.

ومن دون الوصول إلى الحديث عن "فشل عام"، لا بد من الاعتراف بأن هذه المساعي تشهد اليوم تعثراً أكبر من ذلك الذي واجهته الأجيال السابقة. والخيبة تكاد تطغى اليوم على الرضى عند الآباء والأمهات.

من هنا بدأ التساؤل حول التربية وما تواجهه اليوم في ندوة «القافلة» التي استضافت الدكتور سعيد وهّاس القحطاني الأستاذ المساعد والاستشاري الطبي النفسي السريري في جامعة الملك فيصل، والأستاذ جمال المطير الأخصائي في تطوير الموارد البشرية، والمعالجة النفسية ليلى الكاظم.

استهلت القافلة الندوة بالسؤال العريض: لماذا تفشل التربية في تحقيق النتيجة التي تتوخاها؟

وبدأ الأستاذ جمال المطير بإجابة شبّه فيها التربية بعملية التصنيع قائلاً: "العملية التربوية مشابهة لأية عملية تصنيعية، تحتاج إلى مُدخلات تعالج بطريقة ما لتؤدي إلى مُخرجات.." وبتبسيط أكثر يرى المطير أنه "إذا كانت المُخرَجات لا تتوافق مع ما يريدهُ المصنع أو المستهلك؛ فهذا يعني وجود خلل ما في العملية التصنيعية". واستكمالاً للصورة التشبيهية يرى

لدينا مشكلة في تربية أبنائنا.. ولكنها صامتة

حين نهتم بالسلوك وننسى القيمة نكون كمن لا يفعل شيئاً

أرامكو السعودية

أن "هذا ما يحدث في العملية التربوية فعلاً". ويتساءل: "كيف يمكننا تحويل القيم والمفاهيم والمعرفة -باعتبارها مُدخَلات- إلى مُخرَجات يتفاعل معها المجتمع من أجل تكوين نشء صالح قادر على مواجهة التحديات..؟"

وأقرّ المطير بوجود "مشكلة لدينا في المُخرَجات التربوية، وأن كثيراً من الأسر تعاني بصمت.. هذا الصمت يؤكد وجود الخلل"..!

ويؤكد الدكتور سعيد القحطاني صحة هذا التشبيه قائلاً: "إذا نظرنا إلى المُخرَجات السلوكية الخاطئة، فإننا سنجدها نتاجاً متوقعاً لأخطاء في المُدخَلات أو في طريقة معالجتها". هذا يعني في رأي الدكتور القحطاني "أننا نعاني أخطاء في العملية التربوية، حيث نرى الكثير من السلوكيات غير المقبولة التي نتعامل معها، وهي تبدأ بالسلوك البسيط وتنتهي بالمعقّد"..!

طريقة المعالجة مسألة التقطتها ليلى الكاظم مشيرة إلى ما تحتاجه العملية التربوية من مهارة "في الزمن الماضي كان الكبير يعلّم الصغير في المجتمع الصغير البسيط.. كان قليل من العواطف العفوية كافياً للتهذيب والتوجيه. لكنّ تعقيدات الحياة حوّلت التربية إلى مهارة من المحتّم تعلّمها. والعيادات النفسية تشهد بوجود مشكلة. هناك بعض الأسر تبحث عن استشارات تربوية، إنها خطوة مهمة نحو تحسين الواقع. هذه الرغبة في تحسين الواقع تكشف عن خطورة الواقع وحجم الاهتمام بالفعاليات التوعوية المتصلة بالتربية، كالمحاضرات والندوات وحلقات التدريب".

معايير.. قيم.. تطبيق

التربية لا تشبه التصنيع في كل شيء بالطبع. عبر التصنيع تُنتج سلعة، وعبر التربية هناك إنسانٌ..! بيد أن الحالتين في حاجة إلى مقاييس مناسبة. "لا يمكن أن نحكم بأن إنتاج هذا المصنع، أو ذاك، رديء إلا بواسطة مقاييس خاصة". هذا رأي الأستاذ جمال المطير. والمنطق ذاته ينطبق على القياس السلبي والإيجابي في مسألة التربية والسلوك.

إن أي مجتمع تحكمه معايير ثلاثة رئيسة، في رأي د. سعيد القحطاني: "المعيار الديني وهو ضابط قويٌّ لسلوك الإنسان والدين يفصل بين ما يجوز وما لا يجوز والدين الإسلامي غنيّ بالمعايير السلوكية ومن المؤسف أن بُعدنا عن الدين يقف وراء الكثير من السلبيات في حياتنا.. وهناك المعيار الاجتماعي بما تحشده العادات والتقاليد والأعراف السائدة.. وهناك المعيار الحضاري الذي وفّرته ثقافة المجتمع أو استفادت منه".

وبالنظر إلى هذه المعايير والواقع معاً فإن الإشارات تنبّه إلى وجود "انفصام في عرى العلاقة بين هذه

المعايير والواقع". ويضيف د. القحطاني: "الشاب اليوم ليس لديه خجلٌ من المحظور الاجتماعي.. هناك ضعف فيما نسميه الوازع الديني.. الأثر الحضاري غير موجود على نحو كافٍ. المجتمع، في الزمن الماضي، كان يُعاقب المُسيء على الأقل معنوياً.. والفرد اليومَ لم يعد في حاجة إلى المجتمع، وبالتالي لا خوف من كسر قيوده. يُضاف إلى ذلك تداخل الثقافات والحضارات، هذا التداخل -الذي يُمكن وصفه بالتصادم أحياناً- صنع أسئلة مشوشة كثيرة جداً حول ما هو مقبول وما هو مرفوض. وهذه كلها أسباب في تشويش المقاييس والقيم".



جوهر القيمة

«القافلة»: إذا كانت القيمة هي الجوهر الذي ينبثق منه السلوك فكيف يُمكن المحافظة على هذا الجوهر وتفعيله في نفوس الأبناء..؟

جمال المطير: ثمة قيم أخرى تُضاف إلى القيم الدينية.. مثل القيم الاجتماعية وغيرها. والمهم أن تظهر القيمة في العملية التربوية. القيم من المؤثرات السلوكية غير الظاهرة، والمشكلة هي أن السلوك يظهر بلا قيم. نحن نخطئ في تقييم السلوك لعدم معرفة الدافع الذي يقف وراءه. كان الأوائل يمارسون تعليم القيم بالتطبيق، يعلّم قيم الصدق، والوفاء بالوعد، وغضّ البصر، واحترام الكبير بواسطة ما يفعله ويمارسه. اليوم يتكلّم الأب، أمام أبنائه، عن القناعة والتواضع، بينما لا ينعكس كلامه على ممارساته.!

وفي هذا المجال تقول ليلى الكاظم: "ما يجب التركيز عليه هو جوهر القيمة وفوائدها. وهي تترسخ عبر الفعل قبل القول. والأب الذي يخوّف طفله من دخول النار في حالة ارتكابه الكذب – مثلاً – لن ينجح في زرع قيمة الصدق أبداً لديه. إنه لا يربّي هنا بل يمارس التخويف وحسب".

وتضيف: "قيمة الصلاة بما تحمل من أثر روحاني وحماية للإنسان من السلوكيات الشاذة التي يتعرض لها هي ما يحتاج الطفل إلى تلقيه. كذلك الالتزام بالمواعيد وما ينطوي عليه من احترام للآخرين، التواضع، الكرم. كل ذلك حين يتجسد عملياً فإنه يكون زرعاً للقيمة وليس مجرد توجيه إلى سلوك سوي".

الرسالة التربوية

«القافلة»: هذا يقودنا إلى التساؤل حول أساليب بث الرسالة التربوية من أجل أن تكون مؤثرة وفاعلة ومنتجة، فما هي مقاييس هذه الرسالة..؟

جمال المطير: "قد تكون الضغوط المادية المسلطة علينا بشكل يومي وراء انشغال الكثير منا بالبحث عن الطرق النموذجية. مع ذلك فإن المربين يريدون معرفة هذه الوسائل. ونحن نعرف – كما في الهندسة النفسية – أن التعلم لدى الإنسان يتم على مستويين: مستوى العقل أو الشعور أو الوعي، ومستوى اللاشعور.

وحين يتم التركيز على الوعي فنرسل إليه الرسائل، فإن الكثير من هذه الرسائل يضيع في خضم التزاحم المادي. وهذا ما يجعل من الضروري مخاطبة اللاوعي وإرسال الرسائل إليه في العملية التربوية.

كان الأوائل ناجحين في هذه الوسيلة، وكانوا يتبعون القصة مثلاً، في بث الرسائل الأخلاقية والدينية وتكوين مجموعة قيم في نفسية الطفل.. على سبيل المثال كانت الجدة تروي القصة الطويلة للصغار وعبر عملية السرد تسرّب قيمة من القيم، كأن تقول:

"ولما دخل الرجل منزله وجد جارته بلا خمار فخرج مسرعاً حتى لا يطّلع على عورة جارته". وفي هذه العبارة تسريب لقيمة العفّة التي تخاطب اللاوعي وتؤسس خلقاً حميداً، وتنعكس بشكل تلقائي في السلوك لاحقاً.

وفي القرآن الكريم العديد من الوسائل المؤثرة، فهناك القصص، والتحدث بمستويات السمع والبصر والحس. والقرآن الكريم يخاطب الشعور واللاشعور على نحو راقٍ جداً، ويكرس القيم والمفاهيم على نحو حقيقي. ولهذا فإن تلاوته والمداومة عليه من وسائل تربية السلوك لدى الكبار والصغار".

آباؤنا خاطبوا اللاوعي عبر القصص، وهذا ما نفتقده اليوم

المجتمع في حاجة إلى مؤسسات متخصصة، ولكن البداية من الذات

أما د. القحطاني فيقول: "وفقاً للنظرية السلوكية والمعرفية فإنه بالإمكان زرع القيم والمبادئ من خلال وسيلتي الوعي واللاوعي معاً. والأهم من الوسيلة هو البيئة الصالحة لنمو السلوك الجيد. البيئة تبدأ بالنموذج المثالي في الأسرة وانسجام القول والعمل، ثم ما نراه في الأماكن العامة، ونشاهده في وسائل الإعلام.. كل هذه الأوساط تشكل بيئة. القضية ليست قضية أبٍ وأم، أو مسجد، أو مدرسة.. إنها قضية هؤلاء جميعاً. نحن نقرأ القرآن الكريم، ونحضر المحاضرات، ونتابع برامج التوعية، ولكن هل ترجمنا ذلك إلى محددات سلوكية. إن ذلك يستدعي تضافر الجهود على المستويات الفردية والاجتماعية والرسمية لتأكيد القيم والثوابت والسعي للوقاية في المجال التربوي سواءً على طريق الوعي أو اللاوعي. ينبغي بناء المناهج والقوانين على النموذج الوقائي لا النموذج المرضي، ليس في قطاع الصحة والبيئة فحسب، بل حتى في القطاع التربوي".

إذا افترضنا وجود فشل في العملية التربوية؛ فمن هو المسؤول عن هذا الفشل..؟

ليلى الكاظم: أولاً لا ينبغي توجيه الاتهام، أو اللوم، إلى جهة محددة وتحميلها المسؤولية، حتى لا نخلق نوعاً من المقاومة والرغبة في الدفاع عن الذات.

ثانياً: الأسرة هي الأساس في العملية التربوية مهما كانت مسؤولية الجهات الأخرى. الأسرة هي المرجع الأول ومصدر الأساسيات التي تُكوّن الإنسان، وسيبقى أثرها قوياً. وتعرّض الطفل لرسائل مناقضة لما تعلّمه من أسرته أمر متوقع وبشدة في أي مجتمع. ولا تستطيع أسرة أن تمنع طفلها من الاحتكاك بالآخرين بهدف تحصينه من العدوى السلوكية. غير أنها على درجة عالية من التأثير في بذر القيم التربوية من خلال السلوك السوي داخل الأسرة بالدرجة الأولى. من المهمّ احتواء الطفل وتحصينه إيجابياً تجاه أي سلوك شاذ قد يراه في الشارع أو المدرسة، أو أي مكان.

جمال المطير: ليست المسألة تحميل المسؤولية جهةً ما. إنما هناك نقص في فهم العملية التربوية. وما نحتاج هو الإرشاد والتوجيه. هناك متغيرات هائلة تجري من حولنا. والمجتمع في حاجة إلى التهيؤ لهذه المتغيرات ومواجهتها ومواكبتها بما يتناسب وقيمه ومفاهيمه ومبادئه.

لا سلطة بعد اليوم..!

«القافلة»: سلطة الأسرة كانت هي صانعة القرارات والمسيطرة تماماً على كل شيء.. فهل ما زالت الحاجة ماسة إلى استمرار هذه السلطة..؟

جمال المطير: ما ينبغي التنبّه إليه في موضوع سلطة الأسرة هو الحذر من التركيز على السلوك

ونسيان أن السلوك ينتج عن مشاعر وأفكار. أنت تضغط على الابن - أو على الموظف - فتظن أنك تمارس سلطة، ولكن بمجرد زوال الضغط سيعود الأمر إلى ما كان عليه ويتكرر السلوك الخاطئ نفسه. ولذلك فالحل ليس في ممارسة السلطة.

ليلى الكاظم: كثير من الآباء والأمهات يتصرفون على أساس أن لديهم سلطة على أبنائهم، وهذه السلطة - في نظرهم - ناتجة عن الشعور بملكية هذا الطفل الذي كان الأبوان سبباً في مجيئه إلى العالم..! وليس في ممارسة هذه السلطة أية رسالة



يتلقّاها الطفل إلا إفهامه بأنه بغياب السلطة يمكنه فعل ما يريد..!! وهذا يعني أن ما يجدي حقيقة هو بناء علاقة على أساس الاحترام المتبادل، إذ ينبغي أن أحترم ابني أولاً قبل أن أتوقع منه احترامي: أحترم رأيه، مشاعره، قدراته، أعترف به كياناً مستقلاً، أعطيه فرصة لحلّ مشكلاته. حتى حين أضع قانوناً يتعارض ورغبته فإن عليّ أن أحترم غضبه وأشرح له الأسباب. وبمثل هذه الوسائل نصنع شخصاً مسؤولاً قادراً على التفكير والحكم على الأمور.

د. سعيد القحطاني: قبل السلطة هناك مبدأ الحوار. فغياب الحوار بين الآباء والأبناء من أهم أسباب الخلل في العملية التربوية. والسلطة ليست حلاً. والتركيز على السلبيات في تصرفات الأبناء والنقد المتواصل لسلوكياتهم، والتقليل من شأنهم.. كل ذلك أخطاء مركبة، تترك آثاراً سيئة وتجعل السلطة مجرد ضاغط - ولكن - غير مؤثر..!

الرهاب.. والنموذج

«القافلة»: الأستاذ المطير يميل إلى أساليب الأجداد، والدكتور القحطاني يعتبر موروثنا التربوي نقدياً.. فكيف يمكن صياغة توليفة تربوية فاعلة..؟

جمال المطير: لا تنافر بين الرأيين؛ فالأجداد كانوا يمارسون بعض الصرامة في زرع قيم التربية. ففي مسألة احترام الكبير كان الأب يحرص على صمت ابنه في أثناء كلام الكبار وهذا قد ينطوي على نوع من الرهاب، ولكن الأوائل كانوا يديرون المسألة التربوية بـ "ضغط زر" لأنهم كانوا يرون القيم، على العكس من حالنا الراهن الذي لا نعرف فيه القيم التي نريدها، وتنقصنا القيم التي لا نريدها..!

د. سعيد القحطاني: الأوائل كانوا يؤسسون رؤاهم السلوكية والتربوية على النموذج والقدوة. فأين هي القدوة اليوم من عالمنا؟؟!

من أين تبدأ المهارة؟

القافلة: إذا كانت التربية مهارة وفناً؛ فكيف يمكن بناؤهما في المربين بهدف الوصول إلى مستوى الجدارة والفاعلية..؟

ليلى الكاظم: قد يكون المجتمع في حاجة إلى مؤسسات وبرامج مشابهة لبرامج الصحة الأولية يعمل فيها خبراء ومتخصصون، ويديرون عمليات التوعية ويستخدمون التقنيات والاتصالات الحديثة في تقديم خدمات استشارية وقائية وتوجيهات وخلاف ذلك.. لكن بناء المهارة في التربية يبدأ من الذات. الذات هي الأب والأم. والثقافة التربوية مدخل جيد، ولابدّ من الانطلاق من نقطة ما.

من واجب الأب على طفله أن يكون على درجة مناسبة من فهم مراحل النمو والسلوكيات التي تُفرزها كل مرحلة حتى يتمكن من التعاطي معه بشكل تربوي إيجابي. من الواجب التواصل بينهما على أساس الاحترام المتبادل والإصغاء والتحاور والتشجيع، وبناء الشعور بالمسؤولية، وتقويم السلوك.. وغير ذلك من المهارات التي يجب على الوالدين التمتع بها.

وإلى ذلك يقول الدكتور القحطاني: حين يتخذ الفرد قرار الزواج؛ فهل يسأل نفسه عن مقدرته على ممارسة التربية؟ قد تكون الإجابة: نعم، وقد تكون: لا..! المهم هو مواجهة النفس أولاً. بمعنى لا بدّ من الإقرار بأن التربية علم وفن تتطلب ثقافة ودراية وفهماً. مواجهة النفس يجب ألا تسمح للأب بإرجاء حل أية مشكلة - مهما صغرت - أو تسويف الحل، أو ترك حلها لأفراد من خارج الأسرة بمن فيهم الأقارب.

سحر التواصل الجسدي

ويختتم الأستاذ المطير الحديث عن المهارات المطلوبة بالإشارة إلى واحدة قلمّا تحظى بالاهتمام الذي تستحقه قائلاً: المهارات كثيرة نظراً للطبيعة الحساسة التي تتسم بها التربية. ولكن -في نظري- هناك مهارة مهمة للغاية أوصي بها كل أب وأم. إنها مهارة التواصل الجسدي مع الأبناء. هذه المهارة تبدأ بالنظرة الإيجابية، مروراً بالابتسامة، فالمصافحة، فالتربيت على الكتف، وتنتهي بالضم..!

حين تضمّ ابنك؛ فإنك لا تحيطه بعاطفة أبوية حميمة فحسب؛ بل تنفذ إلى أفكاره ومشاعره، وعبره تنفذ، أيضاً، إلى دوافع السلوك. في اعتقادي؛ متى ما أصبح أحد الأبوين، أو كلاهما، قادراً على لمس الولد أو ضمّه؛ فإنه سيكون - بلا شك - قادراً على فتح أبواب كثيرة مغلقة.. إنها - باختصار - ممارسة سحر على الابن.. ولكنه سحرٌ تربوي حلال..!

وأستطيع أن أسأل كل أب هنا: متى ضممت ابنك آخر مرة؟ وهل تملك الشجاعة على فعلها الآن؟ إن لم تكن على درجة كافية من الشجاعة فحاول، وستنجح، وستجد أنك تمارس السحر الذي يوطّد علاقتك بابنك، ويصنع بينك وبينه جسراً من تواصل الأفكار والمشاعر.. الأمر الذي لا يمكنه أن يكون إلا للأفضل.

ضيوف الندوة

د. سعيد وهّاس القحطاني:
- دكتوراة من جامعة شفيلد البريطانية
- أستاذ مساعد، واستشاري نفسي سريري بقسم الطب النفسي بجامعة الملك فيصل، ومستشفى محمد الدوسري بالخبر

جمال حسين المطير:
- بكالوريوس فيزياء من جامعة الكويت
- ماجستير في تطوير الموارد البشرية وتعليم البالغين من جامعة مينيسوتا
- منسق الجمعية العالمية للتعلم المنظّم
- عضو الجمعية العالمية لتحسين الأداء
- مدرب معتمد في الهندسة النفسية (البرمجة اللغوية العصبية) من الجمعية العالمية لتدريب الهندسة النفسية في فيرجينيا

ليلى عبدالله الكاظم:
- ماجستير في علم النفس الإكلينيكي
- خبرة عشر سنوات في المعالجة النفسية وخصوصاً الأطفال
- تعمل في قسم الأمراض النفسية في مركز الظهران الصحي
- لها مشاركات في العديد من الندوات والأنشطة الاجتماعية

من القافلة

محمد العصيمي
رئيس التحرير

عبود عطية
سكرتير التحرير

حبيب محمود

محمد أبو المكارم
من فريق التحرير



تنشئة الأطفال على التفكير الناقد

التفكير بشكل عام هو عملية ذهنية نشطة، وهي نوع من الحوار الداخلي المستمر مع الذات التي ترافق القيام بعمل، أو مشاهدة منظر أو الاستماع إلى رأي. وقد يكون التفكير نشاطاً ذهنياً بسيطاً كما هو الحال في أحلام اليقظة، وقد يكون أمراً بالغ التعقيد كما هو الحال في حل المشكلات واتخاذ القرارات.

ويُورد فاسيوني التعريف الذي أجمع عليه عدد من الخبراء المختصين بالموضوع، هذا التعريف يوضح بأن التفكير الناقد هو حكم منظم ذاتياً وهادف وهو أداة ضرورية للاستقصاء. والتفكير الناقد يؤدي إلى التفسير، والتحليل، والتقييم، والاستدلال، والشرح، وتنظيم الذات.

التفكير الناقد في المدرسة

يرى التربويون أن التعليم الجيد لا يكتفي بالتركيز على المعلومات والحقائق فحسب، بل يشجع الطلاب على مساءلة ما يقرأون ويسمعون وعلى مناقشة الأفكار والقضايا التي تعرض عليهم في الصف. فالمعلمون الذين يتفهمون أهمية تعليم التفكير قد يطلبون من الطلبة أنشطة تعليمية غير تقليدية. كأن يسأل المعلم الطلبة: "ما أفضل طريقة لجمع المال اللازم لإصدار نشرة طلابية مدرسية؟" وقد يطلب المعلم من الطلاب القيام بلعب الأدوار بعد مناقشة حدث تاريخي معين وفهم الخلفية والحقائق حول هذا الحدث.

في صفوف الروضة والمراحل التعليمية الدنيا، مثلاً، يمكن للمعلمة أن تناقش مع الأطفال قصة سندريلا والصورة النمطية التي ترسمها القصة لزوجة الأب وللفتاة الجذابة من خلال طرح بعض الأسئلة التالية: "هل تعتبر زوجة الأب شريرة دائماً؟ هل الجمال وحده كاف لتحقيق السعادة؟". إن مثل هذه الأسئلة تساعد الأطفال في التفكير وعدم التسليم المطلق بما يسمعونه.

إن تنمية مهارات التفكير الناقد تتطلب من المعلم طرح أسئلة مفتوحة تركز انتباه الطلبة وتطور لديهم التوجه نحو التعلّم النشط، وتحفِّز الطلبة على المشاركة، وتزوِّدهم بالفرصة لاستيعاب المعلومات وتأملها، ويجب أن تساعد هذه الأسئلة الطلبة في تطوير مهارات الاستدلال والتحليل والشرح والتقييم.

تنمية مهارة مراقبة الذات

مهارة مراقبة الذات تشمل طرح التساؤلات التالية: ما الغرض مما أقوم به؟ ما هي غايتي؟ وما هي الطريقة التي أتبعها لتحقيق هذه الغاية؟ ماذا سأستفيد؟ وماذا سأخسر؟ هل تحقيق الهدف يساوي المجهود الذي سأبذله؟ وتكمن أهمية هذه التساؤلات في أنها تدور حول أفعال الفرد التي تحدد مسار حياته. لو سألنا مجموعة من الطلاب عمَّا يعنيه النجاح بالنسبة لهم لحصلنا على إجابات مختلفة قد تتراوح بين الحصول على معدل 50٪ إلى التفوق والتميز. وكذلك الحال لو سألنا أشخاصاً بالغين عن معنى النجاح فإننا سنحصل على إجابات متفاوتة. أي أن النجاح لشخص ما قد يكون هو الوضع الحالي لشخص آخر وهو أمر نسبي يختلف باختلاف توقعات الأفراد. ولهذا تعتبر مهارة "تقييم الذات" أعلى مهارات التفكير. فالنجاح في الحياة لا يتحقق نتيجة للصدفة بل يحتاج إلى تخطيط وتحضير، سواء في الحياة الأكاديمية أو في العمل أو حتى في العلاقات الشخصية.

يتطلب النجاح التخطيط المدروس وبذل الجهد ودراسة القرارات، ولا يتحقق نتيجة الحظ والصدفة والاختيارات العشوائية. كما لا يعتمد على الظروف التي يجد فيها الفرد نفسه، بل على نظرته وتفسيره للمواقف المهمة في حياته. لذلك لا بد للمعلمين من تدريب طلبتهم على مهارة تقييم الذات من خلال مساعدتهم في تحديد نقاط القوة والضعف في عملية تعليمهم.

الميول الوجدانية

ويرى الخبراء في مجال التفكير الناقد أن للتفكير الناقد أبعاداً معرفية وعقلية كما أن له ميولاً وجدانية لخّصها الخبراء في حب المعرفة، التفهم وسعة الأفق، الميل إلى التحليل، التنظيم، النضج العقلي، الرغبة في اكتشاف الحقيقة، الثقة بالذات.

إن الأطفال يأتون إلى المدرسة دون القدرة على التفكير الناقد ويكون تفكيرهم متمركزاً حول الذات وحول رغباتهم. وهذا ما يؤكد أن من واجب النظام التعليمي مساعدتهم ليكونوا أشخاصاً مسؤولين وعادلين متسلحين بمهارات عقلية وميول إيجابية. فهناك ثلاثة أنماط للتنظيم العقلي هي الشخص غير الناقد، والشخص المفكر الأناني، والشخص الناقد العادل. فالمفكر الناقد هو الذي يمتلك مهارات التفكير الناقد ويتمتع بالقيم والميول الوجدانية الإيجابية. أما الشخص الأناني فهو الشخص الذي يمتلك مهارات التفكير الناقد ولكنه يستغلها لخدمة مصالحه الشخصية فحسب. وأخيراً هناك الفرد غير الناقد وهو الذي يسهل خداعه والتلاعب به.

التكامل بين البيت والمدرسة

للوالدين دور أساس في تنمية مهارات التفكير لدى الأطفال. فيمكن للوالدين أن يساعدوا أطفالهم في التفكير بشكل أفضل من خلال السماح لهم بطرح الأسئلة عن ما يدور حولهم، بل ومن خلال تشجيعهم على التساؤل والاستماع بجدية لأفكارهم وإجابة أسئلتهم دون إطلاق الأحكام عليها. كذلك من خلال إعطائهم الفرصة للتعبير عن مشاعرهم ومخاوفهم والتجاوب معهم من خلال سؤالهم لماذا يشعرون على هذا النحو. إن مشاركة الأطفال في قراءة قصصهم ومناقشتهم بأحداث برامجهم المفضلة ينمي لديهم مهارات التفكير. فيمكن للوالد أن يسأل طفله: "ماذا تتوقع أن يحدث الآن؟ كيف تعرف؟"، "هل أعجبتك القصة؟ لماذا؟"، كما يمكن للوالدين استغلال الأمور الحياتية البسيطة لتعليم الأطفال ولتنمية مهارات التفكير لديهم، فمثلاً بدلاً من إعطاء الطفل قائمة بالأشياء التي عليه إحضارها من البقالة، يمكن التحدث معه حول هذه المشتريات وأسعارها ومجموع كل الأسعار، كما يمكن الطلب منه أن يقدّر المبلغ الذي سيدفعه وباقي المبلغ الذي سيعيده. إن تعزيز الأطفال عندما يطرحون الأسئلة أو عندما يفكرون بطريقة صائبة يزيد من ميولهم الإيجابية نحو التعلّم وينمي ثقتهم بأنفسهم كمتعلمين وكمفكرين. ولا بد من الإشارة إلى أن الطفل الذي يسأل ويحاول أن يفهم ما يدور حوله في البيت ويشارك والديه في الحوار هو الطفل الذي يشارك ويفكر بفعالية في الصف والمدرسة وفي مختلف السياقات اليومية.

وللعائلة أيضاً دور أساس في مساعدة الأطفال على تنمية مهارة مراقبة الذات وتطوير عادات دراسية إيجابية تبقى معهم مدى الحياة مثل تنظيم الوقت، والتعلم المستقل، وتحمل مسؤولية أعمالهم. قد يكون ذلك من خلال جدولة برنامج محدد لحل الواجبات المنزلية ووضع إشارة على ما تمّ الانتهاء منه. وعلى الوالدين الحديث مع أبنائهم حول أهمية تنظيم الوقت وتحديد الأولويات.

ضياء دجاني

جلال الدين فايس
(جوليان سابقاً)

فرنسي سكنته موسيقى الشرق.. فاستوطن حلب!

ترك الموسيقى الغربية حباً في الموسيقى العربية. وإكراماً لعينيها ترك بلاده واستوطن حلب. غرس جذوره عميقاً في المدينة، وبمرور الوقت صار عَلَمًا من أعلام نسيجها الثقافي والفني. إنه الموسيقي المستعرب الفرنسي الأصل جوليان فايس، الذي اختار اسم جلال الدين بعد أن استوطن حلب الشهباء.

الزميل محمد أبو رمضان يرسم لنا صورة هذه الشخصية المميزة.

المحترف السعودي

أَلِفَ سكان حلب القديمة، وخاصة المنطقة المجاورة لباب قنسرين، رؤية ذلك الرجل الخمسيني ذي الملامح الأوروبية يتجول في أحيائهم بملابس عربية. عرفوه منذ منتصف الثمانينيات ضيفاً أجنبياً، أما اليوم فصار واحداً منهم. بارع في العزف على القانون وعاشق للموسيقى الشرقية وفن الطرب الأصيل الذي غَّير حياة الرجل وذهب بها في اتجاه يبعد كثيراً عن بداياتها الأوروبية الصرفة!

ولد جوليان فايس في باريس سنة 1953م من أب فرنسي وأم سويسرية من أصل ألماني. هوى الموسيقى منذ شبابه وتعلم عزف "الغيتار" الذي كان آلته الموسيقية المفضلة، إلى أن حصل ما شكل المنعطف الأول الكبير في حياته.

يروي فايس حكاية هذا المنعطف بنفسه فيقول: "في أحد أيام العام 1976م حضرت حفلاً في باريس في منزل السيد فاروق حسني الذي كان آنذاك مديراً للمعهد الثقافي المصري، وتركت تلك الحفلة أثراً بالغاً في نفسي، فبدأت دراستي للموسيقى الشرقية بشكل حقيقي سنة 1977م، وكنت أعيش وقتها في مصر. وازداد تعلقي بها بتعمق تجربتي وتوسع اطلاعي عليها في البلدان التي زرتها لهذه الغاية مثل تونس والعراق وتركيا، إضافة إلى ما تعلمته في مصر طبعاً، وتعرفي على العديد من الفنانين وأهمهم عازف القانون العالمي سالم حسين."

ما الذي أتى به إلى حلب؟ هنا يتحدث فايس عن المنعطف الكبير الثاني في حياته الذي قاد زورقها إلى الرسو في هذه المدينة الجميلة بشمال سوريا، يقول: "في سنة 1985م كنت أعيش في باريس، وكنت متزوجاً من هند أبو إبراهيمي الفيلالي وهي مغربية، ولي منها ابنة وحيدة تدعى كنزي. وخطر لي آنذاك أن آتي إلى حلب لشراء قانون حلبي. كانت هذه هي الغاية من الزيارة فقط. وخلالها أحببت أن أحضر إحدى الأمسيات الموسيقية في المدينة فدعيت إلى عدد منها. وكانت الأولى في بيت يحيى زين العابدين الذي كان يجمع في منزله الواقع في حي باب الحديد في حلب مساء كل سبت عدداً من المطربين والعازفين والأصدقاء لقضاء أمسية جميلة على أنغام الموسيقى والطرب الأصيل. ومنذ ذلك الحين فكرت جدياً بالاستيطان نهائياً في حلب، بعد أن فكرت لبعض الوقت بالعيش في بغداد."

ولا يعرف السبب إلا من يعرف عن كثب مدينة حلب، فهذه المدينة هي بحق مدينة الذوق المرهف على كل الصعد. وتشكل الموسيقى المعلم الأبرز ليس من حياتها الثقافية بالمفهوم التقليدي للكلمة، بل من واقع الحياة اليومية للآلاف من أبنائها.

> **دعاه فاروق حسني إلى حفلة للموسيقى الشرقية فهجر الموسيقى الغربية والغيتار وبدأ بدراسة العزف على القانون.**

> **الموسيقى الشرقية.. أعطيتها نصف عمري فهندست روحي وكياني ومشاعري**

فأينما تجول المرء في هذه المدينة وخاصة في أحيائها القديمة يجد لافتات صغيرة على الشرفات ومداخل الأبنية تقول: نعلّم عزف العود، نعلّم الغناء وعزف القانون، نعلم القانون والكمان ..
وفي أحد أحياء حلب القديمة الزاخرة بدور السكن القديمة والمساجد الأثرية والخانات والحمامات والأسواق التي يبلغ مجمل طولها نحو 14 كيلو متراً، وتحديداً بالقرب من الأسوار الجنوبية، اشترى جلال الدين فايس بيتاً أثرياً يعود إلى القرن الرابع عشر وانتقل إلى العيش فيه.

يشعر الذي يزور هذا المنزل الأثري الهادئ الجميل وكأنه في متحف مليء بالقطع الأثرية النفيسة والسجاد والمنسوجات وشهادات التقدير والثناء التي حصل عليها فايس في مجال الموسيقى.

وفي هذا البيت يستقبل فايس كبار العازفين والمطربين الحلبيين والعرب في أمسيات موسيقية عمودها الفقري مجموعة من المطربين الحلبيين ألفوا فرقة للطرب والغناء وسموها "صالون الموسيقى الشرقية". وتقام هذه الأمسيات يوم الخميس مرة كل شهر على الأقل، فيجلس الموسيقيون على الإيوان وهو مصطبة تعلو الساحة الوسطى للمنزل، في حين يتحلق الضيوف والحضور الذين يسمونهم في حلب "السميعة" حول نافورة الماء التي تتوسط الساحة وتشتهر بها البيوت العربية التقليدية. وفي هذا الجو الذي ينضح بهجة، يسمع الزائر المطربين يتبادلون الأدوار في الغناء، ونذكر من هؤلاء عازف الناي المعروف محمد قدري دلال، والمطرب صبري المدلل الذي يجسد بالفعل الذاكرة الحقيقية للغناء الشرقي الأصيل، يرافقه المطرب الشعبي المعروف عمر سرميني وغيرهم العشرات من أصحاب الباع الطويل في فن الموشح والقد الحلبي بشكل خاص.

زوّاره اليوم كثر، يقصدونه للتحدث معه عن حياته وتجربته، فيحدثهم حديث الواثق بنفسه: "أعتقد أنني حققت نجاحاً على صعيد إغناء تجربتي الموسيقية وإنتاجي أيضاً. فقد تطورت معلوماتي كثيراً بفضل مرافقتي للعديد من المحترفين الأقوياء المجتهدين في الحفاظ على التراث الأصيل من أمثال محمد قدري دلال وزياد قاضي أمين وهو أفضل عازف ناي في سورية، وعازف الجوزة في بغداد محمد كومار، ومطرب المقامات حسني إسماعيل الأعظمي، وغيرهم من الكبار مثل صبري المدلل وأديب الدايخ وعمر سرميني من حلب وحمزة شكور من دمشق وأحمد حبوش ولطفي بوشناق من تونس.

تعاونت على الدوام مع هؤلاء العمالقة، وبلغ عدد أسطواناتي حوالي ثماني عشرة أسطوانة عالمية تتضمن عزفاً منفرداً على القانون، وموسيقى عربية وموشحات مع فرقة إنشاد.

ويلخص فايس أثر الموسيقى الشرقية في حياته فيقول: "لقد قلبت حياتي رأساً على عقب. أعطيتها نصف عمري فهندست روحي وكياني ومشاعري. والفضل في ذلك يعود إلى وجودي في حلب، درة المدن العربية، فمن الصعب أن أحقق ما حققته في أي مكان آخر."



البذخ والبيئة!

لكل ما نستهلكه أثر في البيئة، طالما أنه يعود في أصله إلى الموارد الطبيعية. وللبذخ الذي تبدل مفهومه في العصر الحديث وخاصة في العقود الأخيرة، أثر سلبي كبير - وإن كان غامضاً - في هذه الموارد والبيئة ككل. والموضوع الذي نتوقف أمامه هنا هو الأذى الذي نلحقه بالبيئة نتيجة مبالغاتنا في الاستهلاك وتبذير الموارد الطبيعية التي كان من الممكن توفيرها. الزميل رياض ملك يحدثنا عن الموضوع.

الكبار في السن نسبياً اليوم يتذكرون ولا شك الطريقة التي تعاملوا فيها مع ورق الكتابة في الماضي. كانوا يكتبون بدءاً من الزاوية العليا إلى اليمين، وينتهون في الزاوية السفلى إلى اليسار، وعندما تمتلئ الصفحة تماماً، كانوا يقلبون الورقة لمتابعة الكتابة على ظهرها. أما اليوم فصرنا نكتب على وجه الورقة فقط، وذلك بعد أن نترك ثلثها الأعلى بياضاً، وهامشين حرّين وعريضين لجهتي النص.



العلاقة بين الإنسان والبيئة تزداد قساوة مع تزايد الأدوات الإنتاجية، ووصلت اليوم إلى الذروة

سقنا هذا المثال البسيط للدلالة على التغيير الذي طرأ على نمط استهلاكنا للأشياء خلال العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة. وهذه الأشياء - ومن أوضح عيّناتها الورق - مصدرها الطبيعة، وبالتالي فإن استهلاكها لا يمكن أن يتأمن لنا من دون إلحاق شكل من أشكال الأذية المتفاوتة الخطورة بالبيئة.

لو استعرضنا تاريخ العلاقة بين الإنسان والطبيعة لتبين لنا أنها كانت تزداد قساوة مع كل حقبة جديدة يتم فيها اختراع أدوات إنتاجية جديدة. مرحلة صيد الحيوانات البرية التي استمرت حوالي الثلاثين ألف سنة قضت على جزء من الحيوانات، ومرحلة تدجين الحيوانات وزراعة بعض الأنواع من النباتات التي بدأت منذ حوالي ثمانية آلاف سنة، أدت إلى انقراض بعض الحيوانات البرية والنباتات، وإلى القضاء على مساحات شاسعة من الغابات. وبوصول تطور الأدوات الإنتاجية في عصرنا الحالي إلى ذروة غير مسبوقة في التاريخ من حيث القدرات والتنوع، يمكن القول إن اعتداء الإنسان على الطبيعة بلغ بدوره ذروة غير مسبوقة من حيث القسوة والقدرة التدميرية.

لا مفر من الاعتراف بأن الطبيعة بكل ما فيها، من حيوان ونبات وجماد هي لقيم حياة الإنسان ومصدر كل ما يستهلكه للعيش والتطور والبقاء. ولكن اعتداءنا على الطبيعة وصل - ربما عن طرق غير مباشرة في بعض الأحيان - إلى مرحلة الهدر الذي يمكننا الاستغناء عنه، وتجاوزت منطلقاته تلبية الضرورات، لتشمل جنوحاً نحو البذخ والتبذير.

إن التحولات العملاقة التي طرأت على وسائل الإنتاج من حيث القدرات والتنوع، لم تبدل فقط في علاقتنا بالطبيعة، بل غيّرت أيضاً مفهوم البذخ بحد ذاته فجعلته أكثر ضبابية وغموضاً ومستتراً رغم أنه أصبح أكثر خطورة مما كان عليه في الماضي.

في الماضي، كما تنقل الروايات التاريخية، كان مفهوم البذخ يشمل أموراً معدودة ذات أخطار محدودة جداً على البيئة، مثل امتلاك الأثرياء للقصور والمجوهرات والآنية المصنوعة من الفضة أو الذهب، والولائم العامرة وما شابه.. فالقصر المبني بحجارة من المنطقة نفسها أقل ضرراً بالبيئة من "فيلا" مبنية بحجر مستورد، واستخراج الحجارة الكريمة من الأرض أقل ضرراً من استخراج الألمنيوم.. وصناعة كميات محدودة من الملابس الحريرية وصباغها بالألوان الطبيعية أقل ضرراً بكثير من الأنسجة الحديثة المصبوغة بالألوان الصناعية... وذلك على الرغم من أن الفيلا الحديثة تبدو أكثر تواضعاً من ذلك القصر التاريخي، وملابسنا أرخص من ملابس سلاطين أيام زمان.

أرخص! بهذا نضع إصبعنا على الجرح.

التبدّل الذي طرأ على نمط استهلاكنا للورق - المثل الذي ضربناه هنا - لم يطرأ ببطء على مر التاريخ، بل حصل خلال ثلاثة أو أربعة عقود على الأكثر. ولمعرفة خطورة هذا التبدّل ومقاييس الضرر الذي يلحقه بالبيئة نشير إلى أن صناعة طن واحد من

الورق تستلزم قطع 17 شجرة كبيرة و 7000 غالون من الماء، وبرميلين ونصف البرميل من الزيت.. وهذا التبدّل لم يأتِ منفرداً أو عَرَضاً، بل هو نتيجة تبدّل شامل في نظرتنا إلى قيمة ما نستهلكه، التي راحت تنخفض تدريجياً في العقود الأخيرة من القرن العشرين، نتيجة الخطأ الفادح الذي ارتكبناه عندما ربطنا القيمة بالسعر.

فتزايد الاستهلاك كما هو معروف مرتبط بالقدرة الشرائية. والقدرات الشرائية تتزايد في



أماكن وتتضاءل في أماكن أخرى. وكلما تزايدت هذه القدرات، ضاعت الحدود الفاصلة بين الضروري وغير الضروري، وبين تلبية الحاجات والبذخ.

ومما يؤكد ضياع هذه الحدود هو في المفارقة التي شهدها الربع الأخير من القرن العشرين الذي شهد الوعي البيئي وتناميه في العالم. فمن الشرارات الأولى التي أشعلت هذا الوعي كان صيد الحيوانات البرية بهدف استعمال فرائها للملابس النسائية أو العاج مثلاً لتزيين المنازل والقصور، الأمر الذي كان يمثل آنذاك ذروة الاعتداء على الطبيعة إشباعاً للميل نحو البذخ. وحققت هذه الحملة نتائج إيجابية، فصدرت القوانين الحامية لبعض أنواع الحيوانات المعرضة للانقراض. ولكن، وفي المقابل، نما نوع من البذخ المستتر الذي يتطلب مستويات عليا من الوعي لإدراك خطورته.

ضروري أم لا؟.. تلك هي المسألة

السيارة وسيلة نقل لا غنى عنها. هذا أمر لا شك فيه. ولكن احتراق غالون واحد من وقود السيارات ينفث في الهواء نحو 10 كيلوغرامات من ثاني أكسيد الكربون حسبما تشير الدراسات. وإذا كان هذا شر لا بدّ منه للانتقال من البيت إلى العمل مثلاً، فماذا عنه، عندما نستعمل السيارة للتفسّح والترويح عن نفوسنا مثلاً؟

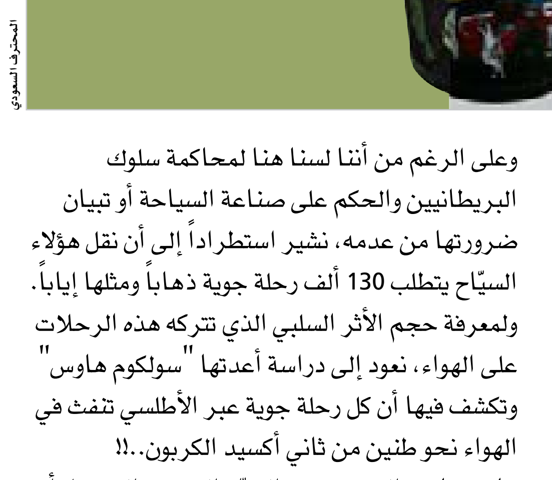
تقدر دراسات أجرتها وزارة النقل الأمريكية أن معدل الجولة الترفيهية التي يقوم بها الأمريكي في سيارته تتراوح ما بين 27 و 47 ميلاً. أي أنه يتسبب في نشر ما يتراوح ما بين 7 و 9 كيلوغرامات من ثاني أكسيد الكربون في الهواء من دون سبب غير حاجته إلى "شمّ الهواء"!!

(ليس هناك أية دراسة دقيقة حول الاستعمال الترفيهي للسيارة في العالم الثالث، ولكنه ولا شك أعلى مما هو عليه في البلدان الصناعية، نظراً لتوافر المزيد من الوقت (بسبب البطالة) وأيضاً بسبب تطلّع الكثيرين إلى السيارة باعتبارها أداة صعود اجتماعي ومدعاة للتباهي..).

والسياحة عموماً نشاط لا يجوز تصنيفه في إطار البذخ. فهي ضرورية لتجديد الحيوية عند الذين يقومون بأعمال رتيبة على مدى أشهر السنة، ومن ضرورات التثقيف وتنمية الوعي. ولكن ماذا لو وضعنا السياحة في ميزان الاقتصاد - البيئة؟

لنأخذ بلداً غربياً نموذجياً مثل بريطانيا المعروفة بولعها بالإحصاءات. تشير أرقام المكتب القومي للإحصاءات إلى أنه خلال عام 2002م، سافر من بريطانيا 59,377,000 شخص، من بينهم نحو 39 مليوناً بغرض السياحة والاستجمام (لأن هناك أشخاصاً يسافرون عدة مرات في العام الواحد)، وهؤلاء السيّاح هم في غالبيتهم الساحقة من ذوي الدخل المحدود الذين يتكبدون نحو 10 في المئة من دخلهم السنوي على القيام بسياحة إلى مكان ما. ولو عدنا بالأرقام عشر سنوات إلى الوراء لانخفض عدد السياح إلى النصف تقريباً (22 مليوناً)، وإذا عدنا عشر سنوات أخرى إلى الوراء لانخفض أيضاً

إلى أكثر من النصف بقليل (حوالي 13.7 مليون). إذاً فالرقم يتضاعف تقريباً كل عشر سنوات. وبالمقابل، فبعدما كانت ديون البريطانيين لبطاقات الائتمان في العام 1987م نحو 6.036 بليون جنيه، ارتفعت في العام 1992م إلى أكثر من 10 بلايين جنيه، وفي الوقت الحاضر إلى 52.7 بليون جنيه. أي أننا أمام أناس يضاعفون رحلاتهم السياحية كل عشر سنوات، في حين أن ديونهم تتضاعف كل خمس سنوات تقريباً.



وعلى الرغم من أننا لسنا هنا لمحاكمة سلوك البريطانيين والحكم على صناعة السياحة أو تبيان ضرورتها من عدمه، نشير استطراداً إلى أن نقل هؤلاء السيّاح يتطلب 130 ألف رحلة جوية ذهاباً ومثلها إياباً. ولمعرفة حجم الأثر السلبي الذي تتركه هذه الرحلات على الهواء، نعود إلى دراسة أعدتها "سولكوم هاوس" وتكشف فيها أن كل رحلة جوية عبر الأطلسي تنفث في الهواء نحو طنين من ثاني أكسيد الكربون..!! ما يهمنا في الموضوع هو التغيّر الجذري الذي طرأ على الحياة الاستهلاكية وأينما كان في العالم.

بين الفقراء والأثرياء

حتى وقت قليل مضى، تركزت الانتقادات الموجهة إلى السلوكيات المؤذية للبيئة على فقدان الوعي لمخاطر هذا السلوك أو ذاك. ولأن هذا الوعي يتضاءل كلما كان المجتمع فقيراً ومتخلفاً، انتشر الاعتقاد بأن قضية البيئة هي في الدرجة الأولى قضية فقر ومجتمعات فقيرة. غير أن الدراسات الأخيرة راحت تؤكد أكثر فأكثر أن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً.

فالولايات المتحدة الأمريكية التي تضم نحو خمسة في المئة من سكان العالم، تفرز خمسين في المئة من مجموع نفاياته. ومعدل ما يستهلكه طفل يولد في إحدى دول الشمال الغنية يعادل عشرين ضعفاً ما يستهلكه الطفل في دول الجنوب الفقيرة. ويفرز الأول نفايات تفوق عشرة أضعاف ما يفرزه الثاني.

ففي هذا الإطار يقول الباحث المعروف اموري لوفينز أن مجمل مصروف أمريكا من الطاقة يزيد على ميزانية الدفاع البالغة 9 آلاف دولار في الثانية!؟ ويضيف في مقال له حول موضوع تحديد النسل في الدول الفقيرة: "إننا إذا أصرينا على تحديد النسل كسبيل للخروج من المأزق البيئي وتضاؤل الموارد الطبيعية، فعلينا البدء بتحديد النسل في الدول الغنية في الشمال طالما أن أطفالهم يستهلكون أضعاف ما يستهلكه أطفال الجنوب الفقراء. ويمكن في هذه الحالة أن يؤدي الأمر بعدة عائلات ثرية إلى المشاركة في تربية الطفل الواحد.. إنني لا أقول ذلك جدياً وبمعناه الحرفي. ولكننا إذا كنا لا نريد سماع من يقول لنا إن علينا تخفيض عدد الولادات عندنا، فعلينا من دون أدنى شك، الواجب الأخلاقي القاضي بتخفيض المستوى الباذخ من استهلاكنا وتلويثنا للبيئة قبل أن ندعو الآخرين إلى تخفيض أعدادهم السكانية".

فالمسألة إذن في الدرجة الأولى اقتصادية. وقبل إسقاطها على أمثلة معاشة في تفاصيل حياتنا اليومية لا بدّ من الإشارة إلى الأرض الخصبة التي قام عليها هذا النمط الحديث والمتخلف من البذخ.

الترويج للهدر!

إن السباق الاقتصادي المحموم الذي نشب بين الدول الصناعية الغنية غداة الحرب العالمية الثانية، قام أساساً على تنمية هذه الصناعات، وتصريف منتجاتها. وشهدت العقود الأخيرة سيلاً عارماً من المنتجات التي سهّلت أمور الحياة أو جعلتها أكثر متعة، ترافق مع سياسة ترويجية وإعلانية تزين كل سلعة بمجموعة مزايا وحسنات تنتصر في عين الفرد

على قدراته الاقتصادية وحتى على مفهوم ضرورة الشيء من عدمها. يغذيها في ذلك تزايد القدرة الشرائية عند الفرد، أو قل التسهيلات في الدفع.

فعندما كانت الورقة البيضاء ثمينة وعزيزة على قلب صاحبها، كان صندوق الكرتون بدوره شيئاً مهماً يحتفظ فيه في المنزل لحفظ الأشياء بداخله، وكانت السلعة (المصنعة محلياً) تكتفي بورقة واحدة لتوضيبها. أما اليوم فتأتي السلعة المستوردة ملفوفة بورق خاص، وموضبة في علبة من الكرتون، ومجموع



العلب الصغيرة في صندوق أكبر.. وبوصول السلعة إلى المستهلك تكون العلب قد تكدّست في مكبات النفايات بجوار المخازن الكبرى..

وقبل نصف قرن فقط كانت المطبوعة، أية مطبوعة ولو من أربع صفحات، شيئاً ثميناً ومهماً يُشترى ويُحافظ عليه، أما الترويج للسلع الاستهلاكية والخدمات، فقد جعل المطبوعات الدعائية شائعة أينما كان، حتى صارت هناك صحف توزع مجاناً وتقوم صناعتها على الإعلانات الترويجية فقط، والمستفيدون منها كثر: الشركات المنتجة للسلع، العاملون في صناعة الصحيفة، وأحياناً المستهلك.. أما المتضرر الكبير منها فهو الغابة التي قطع شجرها لصناعة ورق الصحيفة.

لقد انخفضت أسعار السلع بشكل ملحوظ مقارنة مع ازدياد القوة الشرائية عند الناس في أماكن عديدة من العالم، نتيجة التطور الذي طرأ على طرق التصنيع. وهذا ما يسهل اليوم سبل الحصول عليها. ولكنه أدى في الوقت نفسه إلى الاستخفاف بقيمتها الحقيقية وبالأثر الذي يتركه هدرها على البيئة.

انخفضت تكلفة صناعة الملابس، فصرنا نشتري الضروري منها وغير الضروري، ونستبدلها بملابس جديدة اتباعاً للموضة أو التباهي قبل أن نتلف الملابس القديمة، ومن دون أن نفكر في أن هذه الملابس مصنوعة من موارد طبيعية محدودة وأن صناعتها تكلف ماءً ووقوداً وأصباغاً ملونة والعديد من الأشياء الأخرى، وأن توفيرها كان سيريح البيئة من أعباء إضافية.

الأمر نفسه ينطبق على كل ما نستهلكه في حياتنا اليومية، من المفروشات المنزلية إلى طرق استخدام الأدوات الكهربائية. وقد أشرنا سابقاً على صفحات هذه المجلة إلى أن أجهزة الانتظار في الأدوات الكهربائية التي لا وظيفة لها سوى اختصار مرحلة واحدة من مراحل تشغيلها، تستهلك في بلد واحد مثل فرنسا من الكهرباء سنوياً ما يعادل إنتاج محطة نووية كاملة.

ومن بين كل الأسلحة التي لجأت إليها استراتيجية الترويج، هي في إظهار بعض أنماط الاستهلاك بأنه يهدف إلى تحقيق "الأسهل" أو "الأكثر إمتاعاً"، بغضّ النظر عن ضرورة وظيفته التي يمكن للمتوافر سابقاً أن يؤديها.

ففي الماضي، كانت المرطبات تباع في زجاجات ترد وتعاد تعبئتها. ولكن تسهيلاً للاستهلاك، وتنشيطاً لصناعات الزجاج والبلاستيك والألمنيوم، صارت اليوم تباع في قناني تُرمى في مكبّ النفايات. والمستفيدون هم المنتجون والمستهلكون الذين ارتاحوا من رد القناني الفارغة إلى المتاجر. ولكن المتضرر الوحيد هو الطبيعة التي عليها أن تؤمن المواد الأولية لهذه الصناعات، ومن ثم تلقي نتائجها في شكل نفايات.

وفي هذا الإطار، يقول أحد الظرفاء، أنه عندما قصد مطعماً حديثاً للوجبات السريعة، لاحظ أن حجم الأجسام الصلبة من نفايات علب الستايروفوم وأكواب البلاستيك والورق ومعالق البلاستيك كان عند انتهائه من تناول وجبته أكبر مما كان عليه عندما تناول الصينية من النادل! إنها الحياة الأسهل بالنسبة لنا، ولكنها الأصعب على الطبيعة.

من أكثر الأمثلة وضوحاً عن التكلفة البيئية لرفاهية الإنسان المعاصر، هناك الهاتف الخلوي الذي ولد في سياق التطور التكنولوجي الهادف إلى جعل الحياة أكثر رفاهيةً وإمتاعاً. ولكن مركز البحوث البيئية في الولايات المتحدة يشير إلى أنه بحلول العام 2005م، سيرمي مستخدمو هذه الهواتف نحو 130 مليون جهاز في سلال المهملات مخلفين بذلك 65 ألف طن من النفايات. والأدهى من ذلك، يقول المركز نفسه، أن نحو 40 في المئة من هذ الأجهزة سيكون صالحاً للاستعمال وأن التخلص منه سيكون بدافع امتلاك طراز أحدث أو أكثر تطوراً.. وناهيك عن الموارد المستهلكة في صناعة هذه الأجهزة وتسويقها، فإنها تحتوي على مواد سامة مثل الرصاص، الزئبق، والكادميوم.. ورميها في الطبيعة كيفما اتفق يؤدي إلى تسميمها بهذه المواد.

باختصار، يمكن القول أنه كلما كبر مصروف الإنسان، كلما كبر الضرر الذي يلحقه بالبيئة. وعندما يصل المصروف إلى مستوى التبذير يصبح الضرر البيئي المجاني في حدوده القصوى. ولا مخرج من هذا المأزق إلا بالوعي. فقد عوّل الكثيرون على الإنترنت للتخفيف من استهلاك الورق، نحو 2.7 مليون طن سنوياً، بفضل تبادل الرسائل إلكترونياً. الأمر الذي علّق عليه البعض بالقول إن هذا التوفير في الورق سيبقى أقل من كمية الورق التي يستهلكها توضيب الأحذية في تجارتها العالمية.

إقرأ للبيئة

الابتكار من أجل البيئة
Inventing For The Environment



كتاب يصف الطرق الكثيرة التي يؤثر من خلالها الإبداع في البيئة على نطاق واسع يشمل جميع أشكال التفاعل بين البشر والطبيعة.

ينطلق الكتاب الذي يقع في 398 صفحة من الطبيعة نفسها، ثم يقود القارئ إلى تفحص البيئة المشيّدة، فإلى تكنولوجيات محددة في مجالات مثل الصحة العامة والطاقة. ويركز كل جزء على قضية بيئية بذاتها. وتتشعب المواضيع من دور الإبداع في تحسين المناظر الريفية إلى العلاقة بين الإبداع التكنولوجي والصحة العامة والبيئة. ويتضمن كل جزء مقالة كتبها مؤرخ وأخرى كتبها محترف و"لوحة إبداعية" تصف شخصاً أحدث عمله اختلافاً وتأثيراً في حياة الآخرين. والجمع بين المؤرخين والمحترفين منهم، لأن الروايات حول البيئة تقيس بالضرورة الأوضاع الراهنة والمستقبلية في مقابل الأوضاع في الماضي. ففي مستهل الثورة الصناعية مثلاً، كانت مداخن المصانع والمعامل ترمز إلى الازدهار. وفي نهايتها صار ينظر إلى هذه المداخن كعلامات تلوث.

والأمثلة التاريخية التي جمعها الكتاب يمكن أن تقود أيضاً إلى إعادة اكتشاف تكنولوجيا قديمة غير ملوثة للبيئة. وفيما يستكشف الكتاب تاريخ الابتكار الخاص بالبيئة، يقترح طرائق حديثة كثيرة لتسخير الماضي لخدمة الصالح العام.

ويفتح كتاب "الابتكار لأجل البيئة" حواراً بين التاريخ البيئي الحديث وبين المبتكرين والمعماريين والمخططين الذين يسعون إلى الاستراحة. وذلك ليس من خلال المعادلة القديمة التي تحدد المشكلات التي يمكن "حلها" من خلال وصفة تكنولوجية ثابتة، بل إن هؤلاء المؤرخين يرون تداخلاً أكثر تعقيداً بين الطبيعة والثقافة. فيحددون حلولاً بيولوجية لمشكلات تكنولوجية ويعتبرون الأشكال المُدنية طبيعية. ويجادلون بأن الحرائق ومستجمعات الأمطار تشكل جوانب ثقافية ويصفون طرائق لتحويل النفايات إلى مواد تدوم أكثر من الصلب.

إنه كتاب طموح يحفِّز القارئ على تفسير المستقبل بطرق أكثر حكمة وإبداع. والكتاب لمؤلفين هما: أرثر موليللا Arthur Molella وهو مدير مركز ليميلسون لدراسة الابتكار والإبداع وجويس بيدي Joyce Bedi وهي مؤرخة في معهد سميسونيان التابع للمركز نفسه. والكتاب صادر عام 2003م عن :
The MIT Press Massachusetts Institute of Technology Cambridge, Massachusetts 02142

قصة ابتكار

المسامير الليلية

عيون القطط

كانت واحدة من الليالي المظلمة والضبابية في العام 1933م، حين كان العامل البريطاني بيرسي شو يقود مركبته إلى برادفورد ويشق طريقه بصعوبة إلى أن تفادى وفي اللحظة الأخيرة السقوط في جرف، حين انعكست أضواء المركبة في عيني قطة كانت جالسة على سور إلى جانب الطريق ما جنبه الموت. تلك الحادثة أوحت لشو بفكرة جعلته مشهوراً، وقدمت للإنسانية وسيلة للأمان على الطرق. إذ اعتبر أن ثمة حاجة ملحة لشيء على الطرقات لمساعدة السائقين على القيادة في الظلام.

كان سائقو المركبات في ذلك الوقت يهتدون ليلاً داخل المدن البريطانية بالضوء المنعكس من خطوط الترام. وعندما استبدل الترام بالباصات فقد السائقون دليلهم، وتذكر شو ما كان أخبره به صديق يعمل في حقل العلوم بأن عيون القطط تعكس جزءاً من الضوء المسلط عليها. فالقطط لديها ما يشبه المرآة خلف عيونها، وهي عبارة عن عدسة ومرآة معكوسة تعيد الضوء المسلط عليها إلى مصدره. هذه المعلومة الصغيرة وحادثة تلك الليلة دفعت بشو إلى ابتكار شكل جديد في ترشيد الطرق. عدسات محدبة على خلفية مرآة من الألمنيوم مطمورة في لبادة مطاطية ومزروعة ضمن قالب حديدي في الطريق.

وكما عيون القطط، فإن العدسة والمرآة ثبتتا بطريقة تعكس الضوء المسلط عليها من مصابيح السيارات المقبلة وترده إلى السائق. وفي العام 1935م أنشئ أول مصنع لإنتاج المسامير الليلية أو «عيون القطط»، وانتشر هذا الابتكار في العالم وراج أثناء الحرب العالمية الثانية عندما دعت الحاجة إلى استخدامه في المطارات.

ومع تطور التكنولوجيا بات لـ «عيون القطط» وظائف أخرى، منها مراقبة السائقين. فقد طورت شركة بريطانية «عيون قطط ذكية» تستطيع أن تلتقط صور السيارات العابرة، وأن تراقب سرعة السائقين وحتى تحذيرهم إذا كانت قيادتهم تشكل خطراً على سلامة السير، وذلك من خلال ربط هذه العيون بأجهزة كومبيوتر مركزية تحوّل الإشارات الملتقطة إلى نظام الكومبيوتر ما يساعد الشرطة على مراقبة حركة السير والحوادث التي تقع.

وثمة «عيون قطط ذكية» تتضمن لواقط حساسة جداً لأوضاع الطقس، وتسجل سرعة حركة السير. وعندما تلتقط هذه الوحدات خطراً ما مثل الضباب فإنها تطلق ضوءاً أبيض يسلط على السيارات المقبلة ما يمنح السائق رؤية واضحة أمامه على خلاف «عيون القطط» التقليدية، وإذا انخفضت الحرارة وصار هناك احتمال تكوّن طبقة من الجليد على الطريق فإن «عيون القطط الذكية» تطلق ضوءاً أزرق وتتابع إطلاقه إلى أن يذوب الجليد.

قصة مبتكر

لوك هاوارد

الرجل الذي صنّف الغيوم



لا أحد يعرف ما كانت عليه تعليقات العلماء الذين اجتمعوا في لندن ذات يوم من شهر ديسمبر 1802م، للاستماع إلى شاب في الثلاثين من عمره يدعى لوك هاوارد يقرأ على مسامعهم ما توصّل إليه في مجال دراسة الغيوم وتصنيفها علمياً. ولكن المؤكد ألاَّ أحد منهم أدرك آنذاك أنه أمام الحدث الذي سيؤسس لعلم الأرصاد الجوية الحديث، وأن الأسماء المستحدثة في أوراق هاوارد ستبقى نفسها حتى عصرنا هذا.

ولد لوك هاوارد في سنة 1772م، وبعد أن عمل لبعض الوقت في مشغل للحدادة يملكه والده، انتقل وهو في الثانية والعشرين من عمره إلى لندن للعمل في إحدى صيدلياتها. وكان من المتوقع أن يمضي حياته في هذا الميدان، غير أن هناك ما حوله عن الصيدلية إلى الغيوم..

فقد شهدت سنة 1783م طقساً سيئاً جداً، أو قل كارثياً في أوروبا بأسرها. إذ اجتاحتها عواصف وأعاصير مدمرة، وضربتها الزلازل في أكثر من مكان، وثارت البراكين.. وفي منتصف شهر يونيه حجب الضباب الكثيف الضوء عن لندن وكان ذا رائحة كبريتية قوية، ففسدت اللحوم في المتاجر وتساقطت أوراق الشجر، وأصيب عشرات الآلاف بالغثيان والصداع الشديد. كان هاوارد آنذاك في الحادية عشرة من عمره. وبقيت أحداث تلك السنة في ذاكرته، وطبعت مزاجه الشخصي بطابعها، حتى أنه كتب عنها لاحقاً في مذكراته.

أمضى هاوارد سنوات وهو يراقب الغيوم ويدرس أشكالها ومدى ارتفاعها عن سطح الأرض، وما إذا كانت ممطرة أم لا.. وتوصل في النهاية إلى تصنيف الغيوم في ثلاث فئات رئيسة، أطلق على كل منها اسماً لاتينياً: سيروس (وتعني الخيوط) للغيوم شاهقة الارتفاع، كومولوس (وتعني الممتدة) لمتوسطة الارتفاع، وستراتوس (أي المتكتلة) للغيوم الأقرب إلى الأرض.

ولأن الغيوم تتحرك وتتبدل أشكالها وتنتقل من مستوى إلى آخر، وضع هاوارد تصنيفات لأربع طبقات أخرى، أطلق عليها أسماء مركبة مثل سيروكومولوس، وكومولوستراتوس، وما شابه.. مستفيداً بذلك من منهاج تسمية الأشياء بكلمتين الذي أسسه السويدي كارل فون لينه سنة 1735م، وراج لاحقاً في كافة الحقول العلمية.

توفي هاوارد سنة 1864م، وعدد طبقات الغيوم التي صنفها سبع. ولم يعتمد هذا التصنيف ولا الأسماء المستحدثة رسمياً إلا في العام 1891م. وعلى مدى قرنين من الزمن لم يضف علماء الأرصاد الجوية في العالم بأسره، سوى اسمين لطبقتين انتقاليتين من الغيوم، ليستقر العدد النهائي على التسع.

ناقوس خطر آخر..

الحقول الكهرومغناطيسية

تنتقل وتأكل وتنام معنا!

في نهاية القرن العشرين، أضيف إلى قاموس التلوث مصطلح علمي جديد: "التلوّث الكهرومغناطيسي". فإضافة إلى الحقول الكهربائية والمغناطيسية الموجودة في الطبيعة منذ الأزل، وتآلف الإنسان معها، يبدو أن حضارة الكهرباء التي أدخلت إلى بيوتنا وحياتنا اليومية مجموعة أدوات صغيرة ومسالمة ظاهرياً، رفعت مستويات الحقول الكهرومغناطيسية في حياتنا إلى درجات تستحق التوقف أمامها كي لا نقول قرع جرس الإنذار.

الدكتور نزار دندش* الذي درس الموضوع خلال الصيف الماضي مع اثنين من العلماء الروس الاختصاصيين في هذا الشأن، ويعد بحثاً مفصلاً حوله، يلخص لنا الموضوع.



منذ وجوده على الأرض يتعرض الإنسان (ومعه باقي الكائنات الحيّة) إلى سيل من الإشعاعات (كالضوء وباقي الموجات الكهرومغناطيسية المختلفة الأطوال) التي تصل إلى فضاء الأرض وإلى سطحها من الفضاء الخارجي. كما يتعرض إلى إشعاعات قليلة الغزارة والقوة مصدرها العناصر المشعة الموجودة في الماء الذي يشربه، والهواء المحيط به وأيضاً في المواد التي تشكّل طعامه. هذه الإشعاعات تسمى طبيعية؛ لأنها ليست من صنع الإنسان، وقد شكّلت على امتداد التاريخ جزءاً من الطبيعة التي نعيش في حضنها. حتى أن بعض مكوّنات جسم الإنسان تعتمد المبادئ الكهرومغناطيسية (الكهربائية والمغناطيسية) أساساً لتأدية وظائفها، نذكر من ذلك عمل الخلايا والجهاز العصبي ووظائف القلب والدماغ وغير ذلك.

غير أن المدنية الحديثة المتسلحة باكتشافات العلم المتتالية والمتسارعة أضافت إلى هذه الإشعاعات كماً هائلاً فاق معدل ما تعوّد الإنسان أن يصادفه في الطبيعة. وقد زاد معدل الإشعاعات التي تبثها الأجهزة الكهربائية، التي ابتكرت أصلاً لتأمين راحة الإنسان، حتى وصل في أماكن معينة وفي ظروف معينة إلى مستويات تلحق الضرر بالصحة وتهددها، كما تشهد التجارب العديدة التي أجريت في مناطق مختلفة من العالم.

عندما يزيد معدل الحقول الكهرومغناطيسية الناتجة عن التموجات الكهرومغناطيسية أو عن هياكل الأجهزة والأدوات الكهربائية (بما فيها الأدوات المنزلية) ومحطات البث الراديوي بمختلف أشكاله و... عن حدٍّ معين تصبح ضارة فتصنّف تلوثاً؛ وقد راح العالم ومنذ نهايات القرن العشرين يعرف نموذجاً آخر من التلوث هو التلوث الكهرومغناطيسي.

ومن مخاطر هذا النوع من التلوث أنه لا يمكن إدراكه بواسطة حواس الإنسان الخمس ولا يمكن كشفه إلا بواسطة أجهزة خاصة، وهو ما يزيد في خطورته لأن إحساس

*رئيس رابطة الأساتذة الجامعيين في لبنان لحماية البيئة

الإنسان بالمخاطر ينبهه إلى ضرورة تلافيها، ومصيبته مع التلوّث الكهرومغناطيسي لا يعلم بوجوده رغم عوارضه. فقد يشعر الإنسان بألم في الرأس أو صداع أو فقدان للذاكرة أو... نتيجة تعرضه لتأثير حقل كهربائي أو حقل مغناطيسي، لكنه لن يعرف السبب من تلقاء نفسه، وقد يعيده إلى عوامل صحية مجهولة فيلجأ إلى المهدئات التي تتكتّم على المجرم وتخفي آثار جريمته.

موجودة في الطبيعة

يمكن تقسيم التلوّث الكهرومغناطيسي إلى طبيعي وصناعي، أما المصادر الطبيعية فأهمها الإشعاعات الكونية التي تصل إلى كوكب الأرض آتية من الفضاء الخارجي. وتعتبر الشمس المصدر الرئيس للإشعاعات الكونية التي تصلنا. والإشعاعات الشمسية غزيرة ومتنوعة تبدأ بموجات الضوء المرئي وتكاد لا تنتهي! وهي ناتجة في الأصل عن التفاعلات النووية التي تحدث في الشمس. وتعتبر الإشعاعات الشمسية مصدر الطاقة لكوكب الأرض، إلا أن فيها إشعاعات خطيرة جداً على صحة الإنسان والحيوان، ولولا وجود الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض ويحمينا من بعضها لكان وضع الحياة على الأرض صعباً ومهلكاً. ويعتبر الغلاف الجوي الواقي الفعّال. لكن فاعلية وقايته تختلف من منطقة إلى أخرى حسب درجة كثافته. وتبلغ كثافته ذروتها على شاطئ البحر (وفي المناطق المنخفضة) فيمنع الكثير من الإشعاعات الضارة (خاصة الأشعة فوق البنفسجية) من الوصول إلى سطح الأرض. وتخف كثافة الهواء كلما ارتفعنا عن سطح البحر فيصبح أقل فعالية في حمايتنا من الإشعاعات الضارة ويصبح عديم الفاعلية في طبقات الجو العليا، لذلك يتعرض سكان بعض الجبال العالية (وركاب الطائرات) إلى كميات من الإشعاع تفوق تلك التي يتعرض لها سكان المناطق الساحلية. ويصبح السكن محفوفاً بالمخاطر على ارتفاع يزيد على أربعة آلاف متر عن سطح البحر.

الدراسات تؤكد تزايد الآثار السلبية لهذا النوع من التلوث وإجراءات المواجهة بدأت تُتخذ في الدول المتقدمة

المصدر الطبيعي الآخر للتلوّث الكهرومغناطيسي هو الحقل المغناطيسي لكوكب الأرض. فالمعروف أن قوة هذا الحقل تختلف من منطقة إلى أخرى، وسكان منطقة خط الاستواء هم الأقل تأثراً به، ويبدأ تأثيره بالازدياد كلما اتجهنا نحو أحد القطبين (الشمالي والجنوبي). ولحسن الحظ فإن المنطقتين القطبيتين غير صالحتين للسكن، إلا أن المناطق القريبة من القطب الشمالي مسكونة وتعتبر على شيء من الخطورة بالنسبة لساكنيها. وتشير الدراسات الإحصائية إلى تغيّر في بعض المزايا الفيزيولوجية عند سكان المناطق القريبة من القطب، كالتركيب الكيميائي للدم على سبيل المثال.

والملاحظ أن الحقل المغناطيسي للأرض يحميها من الكثير من الجزيئات المشحونة كهربائياً (مثل الألكترونات، البروتونات وجزيئات ألفا) التي تبثّها الشمس. إلا أن هذه الحماية تكون فعّالة في المناطق الوسطى من سطح الأرض، أي الأقرب إلى خط الاستواء حيث تكون خطوط الحقل المغناطيسي متوازية مع مستوى سطح الأرض ثم يبدأ مفعول هذه الحماية بالتهقر كلما ابتعدنا باتجاه القطبين فتنعدم فيهما، أي عندما تصبح خطوط الحقل المغناطيسي متعامدة مع سطح الأرض.

موجات صناعية

وقد أدى تطوّر الثورة العلمية – التقنية إلى ارتفاع حاد في غزارة الحقول الكهرومغناطيسية المختلفة في المؤسسات العلمية والإنتاجية والخدماتية (المنزلية منها على الأخص). ويمكننا القول إن كل جهاز ينتج الطاقة الكهربائية أو يستخدمها يعتبر مصدراً للحقول الكهرومغناطيسية التي تبث إشعاعات في الفضاء المجاور. إن هذا لا يعني بالطبع أن كل الأجهزة الكهربائية ضارة ومتساوية في ضررها. فكل جهاز يخلق حقلاً كهربائياً وحقلاً مغناطيسياً بقوة معينة. وهناك حدود يعتبر ما دونها مقبولاً وينصح بعدم تجاوزها. ومن المصادر الصناعية للتلوّث الكهرومغناطيسي نذكر على سبيل المثال: خطوط التوتّر العالي، التمديدات الكهربائية في الأبنية، الأدوات الكهربائية المنزلية، الشحنات الكهربائية على المسطحّات، محطات الإرسال الراديوي، الأجهزة الكهربائية في المستشفيات وغيرها.

الحقول.. والأضرار

تُجمع الأبحاث العلمية على أن الحقول الكهرومغناطيسية (الخلفية الطبيعية) ضرورية لحياة الإنسان البيولوجية، لكنها تصبح ضارة وخطيرة على جسم الإنسان وعلى تركيبة الكائنات الحية الأخرى عندما تزيد قوتها على الحدود التي

نسميها آمنة. ويتحدد مدى تأثير هذه الحقول على المحيط الحيوي بحسب قوتها وتردداتها وحسب ديمومة التعرض لها.

ومن أهم خصائص الأجسام الحية أنها تولّد كُمُوناً كهربائياً Electric Potential وهي خاصية عجيبة في الميكانيزم الطبيعي والحياتي وفي العمليات الوظيفية خاصة في الجهاز العصبي المركزي. والمعروف أن توجيه عمل الجهاز العصبي عند الكائنات الحية (والخلايا المنفردة) يتم بواسطة عملية كهربائية أبطالها الأيونات السالبة والأيونات الموجبة.

جسم الإنسان وأجسام باقي الكائنات الحية مؤهلة لالتقاط التموجات الكهرومغناطيسية، لكن الأعضاء المسؤولة عن تلقي الضوء (وهو عبارة عن موجات كهرومغناطيسية) تختلف من كائن إلى آخر. عند الإنسان والثدييات الصغيرة وغالبية الحشرات تعتبر حاسة النظر هي المسؤولة عن تلقي هذه الموجات، ففي الإنسان مثلاً تلتقط التموجات ما بين 400 و 750 نانومتراً (من اللون البنفسجي إلى اللون الأحمر) بينما تتلقى الحشرات العديدة الضوء ذا الموجات التي تتراوح ما بين 400 و 550 نانومتراً. بعض الحشرات، كالنحل مثلاً، يلتقط الأضواء ما فوق البنفسجية التي تقل أطوال موجاتها عن 300 نانومتر وهذا ما يساعدها في تأدية مهمتها في مختلف ظروف الرؤية / وبعض الحشرات والحيوانات الليلية تستطيع رؤية أضواء ما تحت الحمراء (كالخفّاش مثلاً).

الموجات الكهرومغناطيسية موجودة في الطبيعة، ولكن إضافات حضارة الكهرباء حوّلتها إلى "تلوث"

ويمتص جسم الإنسان إشعاعات بأطوال موجات لا تميزها العين المجردة. ولهذه الإشعاعات مفاعيل بيولوجية نافعة أحياناً وضارة أحياناً أخرى. لذلك من الضروري تحديد أطوال الموجات ذات المفعول السلبي لكي يتم تحاشيها وعدم تعريض الجسم لتأثيرها. وقد تم بالفعل تقسيم الأشعة فوق البنفسجية إلى ثلاث فئات تبعاً لتأثيرها في جلد الإنسان وردة فعل الجلد عليها (بالاحمرار أو غيره) هي:

- الفئة A: طول الموجات يتراوح ما بين 320 و 400 نانومتر
- الفئة B: طول الموجات يتراوح ما بين 280 و 320 نانومتراً
- الفئة C: طول الموجات أقل من 280 نانومتراً

والإشعاعات الضوئية المختلفة يجري امتصاصها من قبل جسم الإنسان بواسطة عناصر معينة، فالضوء العادي يتم امتصاصه بواسطة الهيموغلوبين والسيتوكرومات والكاتالاز والكاروتين وغيرها مما يؤدي إلى تفاعلات كيميائية متعددة. أما الأشعة ما فوق البنفسجية فيجري امتصاصها بواسطة البروتينات، الحوامض النوكلينية، الهرمونات وغيرها، ونتيجة التفاعلات يتم إنتاج مواد مهمة في الجسم كالفيتامين D مثلاً وتتم بواسطتها معالجة بعض الأمراض كمرض الصداف والتهاب المفاصل. أما عندما تزيد كمية الأشعة فوق البنفسجية التي يمتصها الجسم على حد معيّن فإنها تتحوّل إلى ضارة وخطرة (خاصة الفئة B) لأنها تقضي على بعض العناصر الضرورية للجسم فتؤثر في عملية الأيض ويختل نظام تبادل المواد داخل الجسم كما يؤثر ذلك في جهاز المناعة ككل ويضعفه.

ولا يقتصر تفاعل جسم الإنسان على الإشعاعات الضوئية بل يتأثر بالإشعاعات الأخرى وبكل أشكال الحقول الكهرومغناطيسية. فالإشعاعات الصفرية (الميكروويف) تؤثر في العاملين في أجهزة ومحطات الاتصالات الراديوية والتلفزيونية ومحطات الكشف الراديوي. وقد دلت الأبحاث العلمية على تأثير موجات الميكروويف في الجهاز العصبي المركزي والقلب والأوعية الدموية والنظر وغير ذلك.

هناك دراسات وتجارب علمية كثيرة أجريت على الحيوانات (كما أجريت على البشر، وهي في معظمها تجارب إحصائية) في أوروبا وأميركا وأستراليا، قد بينت تأثر الحيوانات بالحقول الكهرومغناطيسية على أنواعها. وقد تراوحت ردّات الفعل بين إعتام عدسة العين، تخريب التوازن الحراري، فقدان الذاكرة والقدرة على التركيز، تعطيل المناعة، التصرفات غير الطبيعية، فقدان القدرة على الإنجاب، الأورام المرضية المختلفة والموت المبكر للحيوانات التي تعرضت إلى مستويات عالية. وقد وضعت في دول عديدة معايير صحية ومقاييس للإشعاعات التي لا يجوز تعريض جسم الإنسان لها (في النمسا، بريطانيا، أميركا،

روسيا، فرنسا، أستراليا، هولندا، بلغاريا، هنغاريا، فنلندا، سويسرا وغيرها..).

نتاجات حضارتنا

لقد حقق الإنسان في القرن العشرين خطوات كبيرة وسريعة في ميدان استغلال الطبيعة وابتكار وسائل الراحة فملأ بيته بأدوات كهربائية كثيرة (براد، تلفزيون، فرن كهربائي، ميكروويف، هاتف لاسلكي، ...) ساعدته في تيسير أموره. لكن لكل خطوة حضارية ثمناً و"عوارض جانبية" سلبية، فكما كانت العقاقير الطبية التي تعتمد على الكيمياء فعّالة في القضاء على الأمراض السارية كان لتناولها ثمن يدفعه بعض الأعضاء (الكبد، الكلى، القلب و..) كذلك هو الحال مع وسائل الراحة التي لن يكون الإنترنت آخرها. فقد أتتنا بنوع جديد (قديم) من التلوّث يطرق الباب بقوة وينذرنا بأن الكائنات الحية على الأرض قد أصبحت أمام مرحلة تأقلم جديدة من الصعب التنبؤ بمسارها في المستقبل.

خطوط التوتر العالي

بدأ الانتباه يتركز على إمكانية تأثير الحقول الكهربائية الناتجة عن نقل التيار الكهربائي (بذبذبة 50 هرتز) عبر أسلاك معدنية منذ ستينيات القرن العشرين الميلادي. وقد جرت تجارب ودراسات عديدة عن الانحرافات الصحية التي يعانيها العاملون قرب خطوط التوتر العالي وقرب محطات توليد الطاقة وسكان المناطق المجاورة لها.

إن الحقل الكهربائي تحت خطوط التوتر العالي يؤدي إلى تراكم الشحنات الكهربائية، وإلى ارتفاع في الكمون الكهربائي (بالنسبة لكمون الأرض) في الأجسام المعزولة عن الأرض، بما في ذلك جسم الإنسان الذي يحتذي حذاءً عازلاً للكهرباء، وفي أجسام الحيوانات ذوات الحوافر، وفي هياكل السيارات والناقلات ذات العجلات العازلة (المصنوعة من المطاط). ويقود الكمون المرتفع في جسم الإنسان (والحيوانات) إلى تفريغ الشحنات الكهربائية من الجسم لتنتقل إلى الأعشاب وأغصان الأشجار وغيرها. ومع أن عملية التفريغ هذه ليست خطيرة على جسم الإنسان نظراً لضآلة التيار، إلا أنها تسبب شعوراً غير مريح، ومن الممكن أن تكون سبباً لإصابات عديدة مثل الهلع وفقدان الذاكرة والبطء في تنظيم الحركة وغير ذلك. ويختلف الأمر إذا أمضى الإنسان وقتاً طويلاً تحت خطوط الكهرباء التي تنقل تياراً عالي التوتر.

لقد أجريت دراسات طبية كبيرة على السكان القريبين من خطوط التوتر العالي في أميركا (في سنوات 1979، 1985، 1991م)، في السويد (1985، 1992م) وفي فنلندا (1993، 1994م). وقد أكدت هذه التجارب، حسب المصدر (1) الفرضية عن دور الحقول المغناطيسية الضعيفة في تشجيع بعض الأمراض السرطانية وخاصة اللوكيميا.

واتخذت في بعض الدول المتقدمة إجراءات عديدة لحماية السكان من خطر الحقول الكهربائية والمغناطيسية الناتجة عن خطوط التوتر العالي. ففي السويد ينصح ببناء مؤسسات الأطفال وبناء البيوت السكنية في مناطق لا تزيد فيها قوة الحقل المغناطيسي على 0.2 إلى 0.3 ميكروتسلا. وفي روسيا هناك حدود مكتوبة في وثيقة رسمية صادرة سنة 1990م لقوة الحقل الكهربائي المسموح به في أماكن تواجد الناس نذكر منها الأرقام التالية:

- داخل المباني المسكونة: 500 فولت/متر
- في مكاني تلاقي خطوط التوتر مع شارع تمر عليه سيارات: 10 كيلوفولت/متر

ولحماية السكان على مقربة من خطوط التوتر العالي تم ترسيم مناطق يحظر فيها تشييد الأبنية السكنية حددت أبعادها الأفقية عن إسقاط خطوط التوتر كما يلي:

- 20 متراً لخطوط التوتر بقوة 330 كيلوفولت
- 30 متراً لخطوط التوتر بقوة 500 كيلوفولت
- 40 متراً لخطوط التوتر بقوة 650 كيلوفولت
- 55 متراً لخطوط التوتر بقوة 1150 كيلوفولت

(وهناك معلومة قديمة أستطيع دعمها بتجربتي الشخصية مفادها أن الحقول الكهرومغناطيسية تؤثر سلباً في النحل فإذا ما وضعت قفران النحل تحت خطوط التوتر العالي تعرضت للإفساد).

الأدوات الكهربائية المنزلية

كل جهاز كهربائي يعتبر مصدراً للإشعاعات الكهرومغناطيسية، بما في ذلك الأدوات الكهربائية التي نستعملها يومياً في منازلنا بدءاً بمكواة الثياب وانتهاء بالميكروويف مروراً بالفرن الكهربائي والمكنسة الكهربائية ومصابيح

الإنارة الكهربائية والبراد والتلفزيون والحاسوب وغير ذلك. ولكي نعطي القارئ فكرة سريعة عن الحقول المغناطيسية التي تولدها الأدوات الكهربائية المنزلية سوف نستعين بالجدول التالي المستعار من دراسة بعنوان: "الحقول الكهربائية والمغناطيسية – مراقبة الأخطار السرطانية" سبق وصدر سنة 1996م.

الجهاز الكهربائي	قوة الحقل المغناطيسي (ميكروتسلا) على مسافة:		
	3 سم	30 سم	100 سم
ميكروويف	200 - 75	8 - 4	0.8 - 0.3
غسالة	40 - 0.8	3 - 0.2	0.2 - 0.01
فرن كهربائي	200 - 6	4 - 0.4	0.1 - 0.01
مصباح كهربائي	400 - 40	2 - 0.5	0.3 - 0.01
تلفزيون	50 - 2.5	2 - 0.04	0.2 - 0.01

محطات البث الراديوي

مع تطور نظام الاتصالات الراديوية زادت أخطار التأثير الكهرومغناطيسي للحقول ذات الذبذبات العالية في صحة الإنسان (تتراوح ذبذبات الموجات الراديوية ما بين 10 هرتز أي بطول موجة 300 كلم وعشرة آلاف جيغاهرتز أي بطول موجة 0.03 سم). ويمكن لمحطات البث الراديوي أن تسبب ضرراً للساكنين على مقربة منها. ولحماية السكان من خطر التلوث الكهرومغناطيسي الناتج عن محطات الراديو والتلفزيون توضع شروط تحدد شروط بنائها وبعدها عن الأماكن السكنية. بالنسبة للمحطات الضعيفة (بقوة 5 كيلوفولت). وتعتبر المنطقة الخطرة دائرة بشعاع 20 متراً للموجات المتوسطة و 175 متراً للموجات القصيرة. وللمحطات المتوسطة القوة (5 – 25 كيلوفولت) 20 – 150 متر للموجات المتوسطة و 175 – 400 متر للموجات القصيرة. أما بالنسبة للمحطات القوية فتتسع دائرة المنطقة الخطرة إلى 150 – 960 متر للموجات المتوسطة و 400 – 2500 متر للموجات القصيرة.

أما الموضوع الذي يدور حوله النقاش الأوسع في هذه الأيام فهو موضوع الهاتف الخلوي. دراسات تؤكد وشركات تنفي مسؤولية الجهاز الخلوي عن بعض الأمراض الخبيثة. لكن لا أحد ينفي التأثير السلبي لهذا الجهاز الذي يلاحق الأذن على صحة الإنسان فهناك عوارض تظهر في كل إنسان يستعمل الجهاز الخلوي.

في أوروبا الغربية وأمريكا يستعمل الهاتف الخلوي في الحالات القصوى عندما يكون لا بد منه لكنه وللأسف يتم استعماله عندنا كيفما اتفق، لأوقات طويلة. والهاتف الخلوي لا يضر فقط بالشخص الذي يستعمله فمحطات الإرسال والاستقبال منتشرة في المدن بكثافة مما يعني أن الإشعاعات المتطايرة منها تملأ سماء هذه المدن. في مدينة موسكو الواسعة أظهرت القياسات أن سماء المدينة تحتضن إشعاعات ناتجة عن محطات الخلوي تفوق الحد الآمن المسموح به، ولا أعتقد أن العواصم العربية أكثر أماناً في هذا المضمار!

هناك تجارب كثيرة أجريت على مستعملي الهاتف الخلوي لا مجال لذكرها الآن وسوف أكتفي بذكر تجربتين: الأولى أجريت في أستراليا على جرذان وجهت إليهم أشعة ذات ذبذبات عالية فتبين أنها سببت لهم بعض أنواع الأورام السرطانية (الورم اللمفي Lymphoma). والتجربة الثانية طاولت أحد عشر ألفاً من سكان الدول الإسكندنافية تبين بنتيجتها ما يلي:

- سُجِّل تغير في نفيذية Permeability غشاء الخلايا العصبية في الدماغ مما يفسح في المجال أمام التعرض للإصابة بالسرطان.
- سجل تأثير في جهازي السمع والبصر.

سوف نكتفي بهذا القدر من الحديث عن الهاتف الخلوي ونؤجل التفاصيل إلى مناسبة أخرى لكننا سنورد بعض النصائح العامة في هذا الخصوص:

- ينصح بتقليص مدة استعمال الهاتف الخلوي (يفضل استعمال الهاتف السلكي).
- عند استعمال الهاتف الخلوي ينصح أن يكون ذلك في مكان مفتوح (إن استعماله في سيارة مقفلة مثلاً يزيد من ضرره كثيراً).
- عند استعماله ينصح بإحاطته جيداً باليد.
- ينصح باستعمال السماعة السلكية التي تصل الجهاز بالأذن.

باختصار إن مسألة تفاعل الإنسان مع الحقول الكهرومغناطيسية، أصبحت حيوية نظراً للتطور الهائل في الاتصالات الراديوية ومحطات البث الراديوي، ونتيجة للتوسع في استعمال الطاقة والانتشار الواسع للأدوات الكهربائية والإلكترونية. والحقول الكهرومغناطيسية تحولت إلى عناصر تلوّث بيئي والوقاية منها أصبحت مسألة تدجين لحضارة الكهرباء الحديثة.

كيف ترتاح..؟!

لا يكفي المرء أن يتوقف عن العمل كي يشعر بالراحة. فهناك خطوات يمكنها بالرغم من بساطتها أن تؤمن للإنسان التعب شعوراً أكبر بالراحة، وينصح الأخصائيون بما يأتي:

1 - أوجد لنفسك مكاناً هادئاً، واجلس.

2 - افتح ياقة القميص أو الثوب حتى ولو لم تكن منزعجاً مباشرة منها. وأيضاً حل شريط الحذاء والساعة، فسوف تشعر بأنك أقل انحباساً في ملابسك.

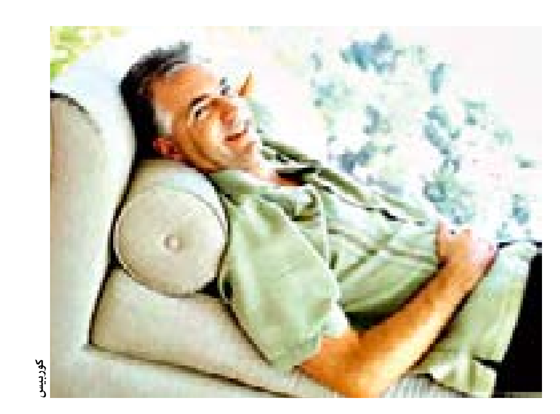
3 - خفف وزنك عن نفسك، ففتش عن نقاط إسناد لرأسك، رقبتك، ساعديك ورجليك.. وإذا توافرت وسادة صغيرة ضعها خلف أسفل ظهرك.

4 - تنفس بعمق.

5 - اغمض عينيك. البعض ينصحك هنا بألا تفكر في شيء. ولكنه أمر صعب على الكثيرين. ولذا يمكنك أن تعود بذاكرتك إلى أكثر الأماكن ارتياحاً سبق لك وكنت فيها من قبل. تذكر الأصوات والروائح الطيبة والمناظر الجميلة.

6 - جرّب هذا التمرين لمدة 15 دقيقة يومياً.

وهنا يقول الأخصائيون إن الآثار الإيجابية لهذا التمرين لن تقتصر على الشعور بالراحة الجسدية، بل تصل أيضاً إلى حد منع الهرمونات المحركة للكآبة من الانتشار في الدم والوصول إلى الدماغ.


كوربيس

ما هو الوقت اللازم لهضم الطعام؟

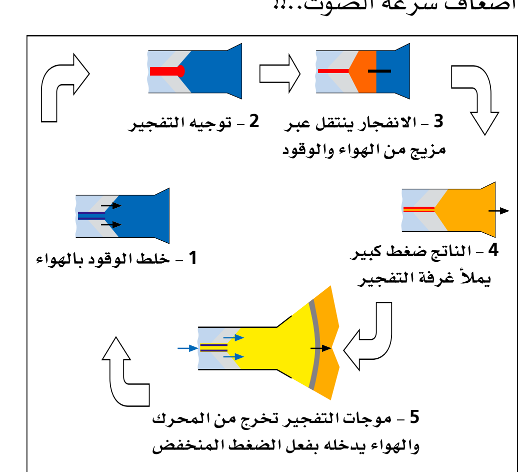

المحترف السعودي

المواد السكرية البسيطة مثل الجلولوكوز يتم هضمها على الفور. فهي تتألف من جزيئات بسيطة تدخل الدورة الدموية خلال دقائق. ويمكن لهذه الجزيئات أن تصل إلى الأطراف بينما نكون لا نزال نمضغ لقمة أخرى من المأكول نفسه. أما معظم الأطعمة الأخرى فتحتاج إلى معالجة ليكتمل هضمها وتصل خواصها الغذائية عبر الدم إلى الخلايا.

تبدأ هذه المعالجة في الفم حيث يتم تقطيعها ليسهل بلعها. ومنذ هذه اللحظة يتم إفراز أنزيمات تتولى تفكيك الكثير من محتويات الطعام. ومن الفم ينتقل الطعام المقطّع إلى المعدة حيث يبقى لمدة ساعتين. المعدة هي المكان الذي تتفكك فيه معظم الأطعمة بواسطة عملية طحن تقوم بها العضلات، وكيميائياً بواسطة الأنزيمات والحوامض والعصارات الهضمية. ومن هناك ينتقل هذا العصير إلى الأمعاء الدقيقة التي تمتصه وتنقله إلى الدورة الدموية. أما المواد التي لا تتفكك مثل الألياف فإنها تصل إلى الأمعاء الغليظة بعد 6 ساعات. وتبقى هذه في الجهاز الهضمي حوالي 30 ساعة قبل خروجها من الجسم. البروتين يحتاج من 4 إلى 6 ساعات كي يتفكك ويصل إلى الدم، أما المواد الدهنية فإنها تحتاج إلى 6 ساعات على الأقل... وتتوقف عملية الهضم على عوامل عدة أخرى مثل المضغ، وصحة الأسنان، وعمر الإنسان، وصحته وحجم جسمه.

محرك التفجير بعد محرك الاشتعال..

تعمل المختبرات في الجامعات وصناعة الطيران حالياً على تطوير شكل جديد من المحركات صار يعرف باسم "محرك التفجير النابض"، والذي يبدو أنه سيكون الصيحة الجديدة في عالم محركات الدفع النفّاث. يحدث الدفع في محرك التفجير النابض من خلال استخدام سلسلة من انفجارات محسوبة لخليط من الوقود والهواء تحصل في أنابيب تشبه كثيراً أنابيب عوادم السيارة. فعندما تُضخ شحنة من مزيج من الهواء والوقود في الأنبوب، يُبَخ مقدار ضئيل من وقود شديد التفجّر مثل الهيدروجين مع مؤكسد مثل الأكسجين في غرفة تقع عند الطرف المقفل من الأنبوب. وعندما يفجّر المزيج بشحنة كهربائية، يندفع إلى مسالك مرسومة بعناية ليحدث هياجاً قوياً في المزيج المشتعل، وتنشأ الطاقة من موجة التفجّر. ويعتقد المطورّون أن محرك التفجير النابض سيصبح أجدى وسائل الدفع في الطيران النفاث الأسرع من الصوت من حيث موازنة التكلفة بالأداء. وحالما يحلّون بعض المشكلات الكبرى، ومنها الجهد الحراري والارتجاج والصوت شديد القوة، سيكون في إمكانهم أن يقدموا محركاً يفوق أداء الوقود فيه أفضل أداء في المحركات التوربينية النفاثة. ويأمل هؤلاء في التوصّل لاحقاً إلى تسيير طائرات بسرعة تبلغ أربعة أضعاف سرعة الصوت..!!



مبدأ عمل محرك التفجير

إما الجوال أو النظارة!


المحترف السعودي

على الرغم من أن الاتجاه المطمئن حول التأثيرات المحتملة للهواتف النقّالة في صحة مستخدميها بدأ يرجح على التحذيرات المبالغة في تقدير المخاطر، فإن الجدل لا يزال قائماً.

آخر التحذيرات توجّهت إلى مستخدمي النظارات الطبية أو الشمسية. والعلّة في ذلك كما يقول بعض الباحثين أن النظارات يحيط بها إطار من المعدن يعمل كمنظومة هوائية مع هوائي الهاتف الجوال. وتصدر عن هذه المنظومة مجالات كهرومغناطيسية لها تأثير مباشر على شبكة العين التي تمتصها، مما يؤثر سلباً عليها ويورث متاعب مختلفة للبصر.

والحل؟ أن نختار بين النظارة والجوَّال.. أو على الأقل أن ننزع النظارة عند استخدام الجوّال، إذا كان لا غنى عن الاثنين.

المقالات العلمية المرفوضة!!



تتمتع المقالات والأبحاث التي تنشرها المجلات العلمية المتخصصة بمستوى رفيع من الصدقية والدقة. ولكن ماذا عن تلك المقالات التي ترفض هذه المجلات نشرها؟ هل هي ساقطة أو غير علمية؟ العالم الأمريكي بول لوثوربور الذي حاز على جائزة نوبل للطب للعام 2003م يقول: يمكنكم كتابة تاريخ العلم خلال الخمسين سنة الماضية من خلال الأبحاث والمقالات التي رُفضت من قبل مجلتي "Science" و "Nature". والمعروف أن هاتين المجلتين هما الأكثر انتشاراً في الأوساط العلمية منذ بداية القرن الماضي. وكان البحث الذي أجراه لوثوربور حول التصوير بواسطة الطنين المغناطيسي سنة 1973م قد رفض من قبل مجلة "Nature" ولم ينشر. غير أن عمله بمشاركة البريطاني بيتر مانسفيلد على اختراع هذا الجهاز أمّن له الفوز بجائزة نوبل.

من كل فجّ عميق

عبّاس

اطلب العلم

على مدى قرن ونصف بقي علم الآثار يعتمد أساساً على الرفش والمعول. يعمل بهما العلماء في أماكن "يتكهنون" باحتوائها على قطع أثرية دفينة. وكم وكم من القطع الأثرية الحساسة دُمرت نتيجة ضربة معول غير متعمدة خلال محاولة استخراجها؟ وكم من جهود البحث ذهبت سدى لأنها صرفت في الأماكن غير الصحيحة؟ أما اليوم..

بعدما أمضى عالم الآثار الأمريكي بروس زوكرمان عشرين سنة من دون جدوى في محاولة قراءة لوحات مسمارية تعود إلى بلاد ما بين النهرين، أتته النجدة من خبير كومبيوتر في شركة هيوليت باكارد المعروفة، إذ أخذ الخبير لوحة متآكلة يكاد لا يظهر عليها حرف واحد، وبعدما عالج صورها بالكومبيوتر، قال زوكرمان: "الكتابة التي كانت بمعظمها ممحوَّة بدت وكأنها تقفز من الطين. إني أرى حتى بصمات الكاتب وهو ينقش، والقطعة ما زالت طرية"!!

تقنيات جديدة لآثارنا القديمة

لقد استفاد علم الآثار من مختلف العلوم سابقاً. فقد اعتمد منذ سنوات عديدة على الفيزياء مثلاً لتحديد عمر هذه اللقية أو تلك بواسطة جهاز التحليل الطيفي. وهذا الجهاز يقيس كمية تآكل مادة "الكربون 14"، التي من الثابت أنها تتآكل إلى النصف كل 5730 سنة.. غير أن التقنيات الحديثة فتحت آفاقاً قلبت عمليات التنقيب رأساً على عقب.

فقد صار من الممكن تحديد مواقع القطع الأثرية الصغيرة في الحفريات الأثرية، بواسطة أجهزة الطنين المغناطيسي. الأمر الذي يزيل خطر تحطيم هذه القطع عن طريق الخطأ، ويوفر أيضاً الكثير من الجهود التي كانت تضيع سدى.

وأيضاً، صار من الممكن تصوير مواقع أثرية كاملة مدفونة بالكامل تحت الأرض، بواسطة نظام يقوم على إيصال الكهرباء إلى التربة لنشر حقل كهرومغناطيسي فيها، وتصويرها من الجو، وتحليل الصور بواسطة برامج كومبيوترية خاصة.

وحتى سنوات قليلة خلت كانت الاستكشافات الأثرية في البحار والمحيطات لا تطال أكثر من 5 في المائة من مجمل مساحاتها؛ لأن قدرة الإنسان على الغطس لا تتجاوز 300 قدم. ولكن مع تقدم علوم الكومبيوتر وصناعة الروبوت أو الإنسان الآلي تغير الوضع جذرياً، إذ يستطيع الروبوت المسمى "ROV" الغوص حتى 19600 قدم. وقد تمكن باحث واحد يدعى ماكان بواسطته من تحديد مواقع ٥ سفن رومانية غارقة في المتوسط قبالة إيطاليا. كما طور باحث من جامعة ماساشوستس يدعى دايفد مندل جهازاً يعمل على الموجات الصوتية يُربط بوسائط خرائطية لتصوير ما يوجد في قاع المحيطات.

وأكثر من ذلك يبدو علم الآثار منفتحاً على الاستفادة بشراهة من التطورات في كافة المجالات العلمية بدءاً بالخريطة الوراثية في الطب (لتحديد صلات القربى بين الفراعنة مثلاً) وصولاً إلى اكتشاف أشعة "T" التي يمكنها أن تخترق الجدران..

وإلى مزيد من اللقى والكنوز..

أمين نجيب

بكر سندي



بكر سندي



ريم الفيصل



رضا



إلى أي مدى يمكن أن يصبح الأبيض أشد بياضاً؟

ربع قرن بالتمام والكمال، وإعلانات مساحيق الغسيل تكرر الرسالة نفسها بالأسلوب نفسه تقريباً. والآن "صنف جديد ... لغسيل أشد بياضاً"!

وتتحرك الأيدي بقماش متسخ وتحدث التجربة السحرية أمام أعين المشاهدين واحدة بالمسحوق الجديد، والأخرى بمسحوق آخر ... ويثبت بالدليل القاطع أن "هذا الجديد" يعطي غسيلاً أشد بياضاً. ومع كل كومة ملابس متسخة يطالعنا إعلان جديد ليكرر الفكرة نفسها بالصورة والصوت.

الكلام نفسه والتجربة نفسها أمام المشاهدين، دخلت عليها مع تطور أساليب التصوير المتحرك، مشاهد الخيوط والحبيبات وكأنها مشاهدة مجهريّة لعملية التنظيف الساحقة. وذلك حتى تتيقن ربّة البيت من أن المسحوق سوف يتغلغل بالفعل إلى داخل النسيج ويقضي على البقع قضاء مبرماً.

ومن يتسنَّ له أن يراجع مجموعة من هذه الإعلانات عبر السنين ومجموعة من العلب إذا توافرت، سوف يرى أن الشركات تحار في قول الشيء ذاته بطريقة مختلفة، أو بالأحرى كيف ستزيد على الوعد السابق بغسيل شديد البياض للغسيل الأشد بياضاً.

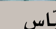
وهذا الأمر ينطبق على منتجات أخرى طبعاً مثل معجون الأسنان، فتقول العبارة الأولى "إنه يبيّض" ثم إنه يبيّض أكثر .. ثم إنه يحقق ذروة البياض ... ويكون هذا الوعد في البداية سطراً فوق اسم المسحوق ... ثم يوضع في نجمة ثم نجمة أكبر ثم نجمة أكبر حمراء .. ثم ماذا؟

اللافت للنظر أن جميع هذه المساحيق رغم المنافسة بينها أخذت تكرر منذ سنوات الإعلان نفسه، أي لا فرق أساسي في السيناريو بين إعلان مسحوق وإعلان مسحوق منافس. أي أن التكرار أفقي وعامودي إذا جاز التعبير. وجميع هذه الإعلانات تخلت عن أي أفكار أخرى مبتكرة، رمزية كانت أم شاعرية، ملتزمة بهذه الصيغة الوحيدة!

وفي كل مرّة تكون النتيجة ... أشد بياضاً!

كميل حوّا




عبّاس



ريم الفيصل

المرأة السعودية والرسم!

الهروب من ازدواجية الاختيار إلى اللوحة!!

كان احتراف المرأة للفنون التشكيلية ولا يزال موضع أسئلة تحاول مقارنته حجماً ونوعاً بإنتاج الفنانين من الرجال. وهذه الأسئلة ليست خاصة بثقافة معينة بل يكاد طرحها أن يكون عاماً في كل ثقافات العالم وأعرقها تمرساً في الفنون التشكيلية.
الناقد **محمد المنيف** يعرض لنا تجربة المرأة السعودية وتاريخها في مجال الفن التشكيلي المعاصر وما آل إليه واقعها اليوم.

إلى أي مدى تستطيع المرأة أن تتخلى عن واقعها المشحون بالكثير من التفاصيل والجزئيات كأم وإنسانة تبحث عن الوقت ليستوعب احتياجاتها اليومية، فتتحول إلى سجينة المرسم واللوحة مع إبداع كبير كانت هي في الأصل ملهمته في اللوحة والقصيدة والرواية والقصة، ولتصبح هي نفسها فنانة تعيش في عزلة مع الفكرة والتقنيات وتحديات معالجة العمل الفني بكل أسسها وقوانينها في عالم الألوان والخطوط والمساحات وأدواتها المتعددة، والغاية أن تقدم في النهاية أعمالاً تثير الدهشة والإعجاب متفاعلة مع معطيات الواقع بكل همومه وشؤونه وشجونه معيدة صياغتها في إطار ثقافتها المعاصرة؟

ثم يأتي سؤال أكثر التحاماً مع شخصية المرأة في إبداعها الفني بعد أن وضعت بصمتها وحضورها على الفن التشكيلي، وهو حول اختلاف هذا الأداء عن أداء الرجل. هل يقل أم يزيد؟ وهل المرأة في فنها بقيت تابعة لفن الرجل نتيجة التأثر بأعماله، خاصة وأنه سبقها بأشواط طويلة في هذا المضمار؟

قبل أن نُجيب عن هذه التساؤلات، علينا أن نتعرف على ملامح حضور الفنانة التشكيلية السعودية وتاريخه، مع الإشارة إلى أن تاريخ الفن على المستوى العالمي يؤكد أن دخول المرأة هذا المجال جاء متأخراً، ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. وتم ذلك بجهود فنانات كنّ في الأصل زوجات لفنانين لهم حضورهم الإبداعي في تلك الحقبة التاريخية. من هنا نجد العذر عندما نقول إن الحضور النسائي التشكيلي المحلي وبشكله المكثف، جاء بعد مرحلة من الحضور الرجالي الذي



تفصيل من لوحة الفنانة التشكيلية وفاء بهاي

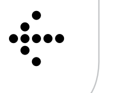
حقق فيه الرجل دوراً تأسيسياً كبيراً باستثناء أسماء قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة، برزت مع أول خطوة في بناء الحركة التشكيلية السعودية.

معارضهن

وتبع تلك المرحلة التأسيسية حضور نسائي في غالبية المعارض التي يمكننا أن نفصلها على النحو الآتي:

- المعارض الرسمية
- معارض القطاع الخاص
- معارض جماعية بجهود ذاتية
- معارض فنانات ممارسات ممن لهن تجارب
- معارض فنانات واعدات

وتُظهر هذه المعارض لغير المتخصص الكثير من الخلط بين من يمكن أن توصف أعمالهن بـ "الهواية"، وبين من لديهن مواصفات الاحتراف، أو من يمارسن أعمال الفنون التطبيقية لأغراض الديكور والتزيين. وهنا تتضح الفكرة القائلة إن الحالة التشكيلية النسائية تمر حالياً بزوبعة من عدم التنظيم والتصنيف، مما أدى إلى تراجع المستوى العام للفن التشكيلي عامة، والنسائي شكلاً ومضموناً، ثم إلى تراجع متابعة الجمهور له خصوصاً الجمهور الواعي الباحث عن العمل التشكيلي الناضج.





وجود بعض الأسماء على الساحة الفنية جاء نتيجة الاضطرار إلى مواجهة محدودية الإبداعات

وعند تفصيل أدوار تلك المعارض نجد أن الرسمية منها تقوم بدور تشجيعي وداعم للفنانين والفنانات مهما اختلفت مستويات الإبداع والقدرات. فاختلط فيها الغثّ بالثمين. وأصبحت المعارض ميداناً فسيحاً للجميع، الأمر الذي دفع بالكثير من الأسماء النسائية المعروفة والمحترفة إلى الانسحاب من المشاركات، فخلت الساحة للهاويات والواعدات، ومنحن الجوائز المتقدمة، وأضيفت إليهن صفة الفنانات في كل إصدار حول الفن التشكيلي.

من جهتها، لم تكن معارض القطاع الخاص أقل سوءاً من حيث التنظيم. إذ أن الهدف من معظمها كان دعائياً، فترك الباب مشرعاً أمام قصور النظرة المستقبلية لدى المعني بالتنظيم، أو من أوكل إليه وضع آلية المعرض أو المسابقة، أو توجيه الدعوات إلى المشاركات.

ثم تأتي المعارض الذاتية التي تقوم على جهود شخصية من بعض الفنانات. وهي فكرة جميلة وجدت القبول، وكان من أهم أسباب إقامتها تجاهل المعارض الأخرى لأعداد كبيرة من الراغبات في المشاركة، فوجدن أن عليهن القيام بعمل ما لخدمة إبداعهن والتعريف به. وكان لتلك الخطوات نجاح كبير على الصعيد الإعلامي. إلا أن المشكلة في الاختيار ونوعية الأعمال بقيت قائمة، وذلك لحاجة منظمي المعرض إلى كل الأعمال المشاركة من دون النظر إلى مستواها.

وعلى الرغم من النشاط الملحوظ الذي عرفته الحركة التشكيلية النسائية، فإن الحضور المكثف لم يسد النقص في المستوى، أو يوجد البديل عمن أثبتن جدارتهن من الأسماء القليلة، أو ممن كانت لهن الريادة، مع تراجع بعضهن عن المشاركة أو الحضور الإبداعي نتيجة مسببات كثيرة. ومنهن على سبيل المثال الفنانة صفية بن زقر (من مواليد جدة 1940م)، والتي أقامت أول معرض لها في "دار التربية الحديثة" في مدينة جدة سنة 1968م، فسُجّل في تاريخ الفن السعودي كأول معرض نسائي. وتأتي الفنانة منيرة موصلي في السياق التاريخي نفسه، إضافة إلى الفنانة نبيلة البسّام.

المرحلة الحالية بسلبياتها

بعد مرحلة الريادة تلك، نجد أن الساحة التشكيلية في الفترة الأخيرة تزخر بأعداد كبيرة من الأسماء النسائية التي دخلتها باندفاع نتيجة التعليم المتخصص العالي وتشجيع الجهات المعنية مثل الرئاسة العامة لرعاية الشباب التي أطلقت أول معرض تشكيلي جماعي للفنانات من مختلف مناطق المملكة.

إلا أن الفترة الأخيرة التي نحددها بما لا يزيد على الخمس أو الست سنوات الأخيرة، رسمت علامة استفهام كبيرة عند المتابع والراصد لمسيرة الفن التشكيلي المحلي. ومن أهم أسبابها أن وجود بعض الأسماء في الساحة جاء نتيجة الاضطرار إلى مواجهة محدودية الإبداعات، وبعضها لا يمكن أن يصنّف كأعمال تشكيلية بناءً على ما يتوجب أن تكون عليه الأعمال المتعارفة عالمياً على مقاييس جديتها بدءاً من الفكرة مروراً بالثقافة وانتهاءً بالتقنيات ومستوى أداء الفنانة. فغالبية الأعمال المشاركة في المعارض التشكيلية النسائية لا تتعدى ما تمّ إنجازه في أقسام التربية الفنية كمشاريع تخرج من المعاهد. وعلى الرغم من قصورها وتدني مستوى تأثيرها في المشاهد، فإن امتلاكها للحد الأدنى من مواصفات العمل الفني، يمكّن صاحباتها من الحصول على أول مشاركة في المعارض، والحصول بكل يسر وسهولة على صفة الفنانة.. وبناءً عليه، أصبحن وبشكل سريع في مصاف الأخريات ممن يعتبرن فنانات نتيجة ما تحقق لهن من إنجاز في الخبرات والتجارب، وربما يمتلكنه من مختزل ثقافي واعٍ لكل ما هو جديد في هذا الفن.





مارست الفنانة التشكيلية السعودية مختلف التجارب بمغامرة مدهشة خصوصاً عند اللواتي لم يتعلمن الفن دراسة أكاديمية أو تخرجن من معاهد ذات علاقة

هناك وجود غير منظّم وغير مدروس في المعارض عموماً لن يحقق أية إضافة إلى الساحة الفنية بقدر ما يؤدي إلى زعزعة الثقة. أما أهم أسبابه فهي الآتية:

- أن قسماً كبيراً من المشاركات لا يحملن من المعرفة الفنية غير ما تلقينه من دروس في كليات التربية الفنية وبشكل عابر لا يحقق القدر المطلوب لتصبح الدارسة فنانة تشكيلية بالمواصفات المفترضة.
- أن قبول أية مشاركة من قبل منظمي المعارض لمجرد التشجيع أعطى فرصاً للغثّ أكثر مما أعطى للثمين، وزعزع ثقة رواد المعارض الذين من حقهم أن يتوقعوا مشاهدة الأفضل.
- أن غالبية المشاركات في المعارض لا يفرقن بين هواية عابرة وبين موهبة مصقولة بالدراسة والبحث والتجريب اليومي، وفي مقدمتها القدرات الخاصة على الرسم.

إضافة إلى أن ما يقدم من أعمال يندرج عادة في واحد من ثلاثة تجمعات أو أربعة:

أ - أعمال اعتمد فيها على النقل من صور فوتوغرافية أو لوحات لفنانين عالميين، وبشكل يكشف ضعف المحاولات.

ب - أعمال تم التدخل في تنفيذها بمشاهدة من غير الفنانة نفسها، أو كُلِّف بها رسامون أو خطاطون يكشفه تنوع الطرح عند المشاركات من معرض إلى آخر.

ج - أعمال تعتمد على استلهام الزخرفة والنقوش أو الصور الخيالية بإيحاء حالم ورومانسي أقرب إلى رسم أغلفة القصص والدواوين الشعرية.

د - أعمال تندرج تحت مظلة التحديث أو الفن التجريدي إما لعدم قدرة الفنانة على تقديم ما يثبت قدراتها أو توقعاً منها أن مثل هذا الفعل هو السائد. من دون علمها بأن اللوحة التجريدية لا تأتي عبثاً أو صدفة، بقدر ما تختزل تجارب قوية ومتميزة. والأهم من ذلك هو أن الأسلوب لا يحتمل لَيَّ ذراعيه ليطاوع رغبة الفنان، بل يفترض بالفنان الانقياد له نتيجة مخاضه الطويل مع التجارب والعمل المتواصل.

..وبإيجابياتها أيضاً

من هنا، وللحفاظ على أن تكون قاعدة الإبداع النسائي صلبة، فإن الوقت لا يزال مهيئاً لضبط آلية صالحة ومجدية لتنظيم المعارض. تحدد فيها أولويات المشاركة والمستوى المطلوب، على أن يتم ذلك على أيدي لجانٍ قادرة على حسم النتائج وتقييم العمل تقييماً صحيحاً. فالساحة حافلة بالمبدعات. واستطاعت الفنانة التشكيلية السعودية أن تنافس وتحصد الجوائز. ولكل فنانة يهمها أمر إبداعها أن تبحث وتجرب وتصقل موهبتها بالخبرات. لا أن تضع الإبداع في حيّز الهواية والتسلية أو التقليد لمجرد الوجود. فلكل خطوة في الفن التشكيلي محاذيرها. إذ تتكشف فيها الحقائق وتبرز القدرات. ولم يعد العمل أو المعرض في حدود الأسرة أو الأصدقاء، بل تعداها إلى أعين المتلقين في كل أرجاء العالم، إضافة إلى أن الفن التشكيلي بكل وسائله ووسائطه ليس شكلاً من أشكال التجميل أو التزيين، بل أصبح رافداً في الفكر وعنصراً مهماً في بناء ثقافة العصر.

الفرص متاحة

والواقع أن مثل هذا الوجود وتلك الكثافة تعني أن الفرص قد أتيحت للإبداع المرن دون أي شروط أو مواصفات خصوصاً في مرحلة البدايات. دون أية شروط أو مواصفات خصوصاً في مرحلة البدايات. وهذا بالطبع سلاح ذو حدين. ففي حالة استمرار هذا التدفق دون وجود آلية تنظم ما قد تنعكس فيه النتائج على المستوى العام للفن ويصبح الوصول إلى الأفضل صعب التحقيق. أما في حالة مراجعة التنظيم ووضع الخطة المدروسة لتلقي من يستحق أن يمثل الفن النسائي فسوف نخرج بمحصلة رائعة ومحققة للهدف.

ونحن اليوم أمام عديد ليس بالقليل من الأسماء التي أصبحت الآن على هرم التميز وفي مقدمة الركب التشكيلي من الفنانات اللواتي يمكن لنا استخلاصهن، والأخذ بهن وتوظيف إبداعهن لتمثيل مسيرة التشكيلي السعودي مع زملائهم التشكيليين.

ويمكن لنا على سبيل المثال ذكر بعض الأسماء التي لفتت بإبداعها أعين النقاد والمتابعين محلياً ودولياً لما تمتعت به من ملكات فكرية وثقافية وتقنية عائدة إلى معرفة مستفيضة بمعنى الفعل التقني لتنفيذ العمل. وإذا عدنا للأسماء البارزة أو المستحقة للذكر والإشادة نجد منهن الفنانة فوزية عبداللطيف، منى القصبي، اعتدال عطيوي، نوال مصلي، زهرة أبو علي، إلهام بامحرز، مريم مشيخ، بدرية الناصر، شريفة السديري، شادية عالم، هدى العمر، رضية برقاوي، حميدة السنان، منى المروحن، سلوى العثمان، غادة بنت مساعد، شاليمار شربتلي، إضافة للرائدات منيرة الموصلي وصفية بن زقر ونبيلة البسام.

وحول اتجاهات الفنانات في احتواء العمل الفني فقد تنوعت بين تسجيل للواقع ورصد العادات والتقاليد إلى تجارب في استخدام الخامات المتنوعة وصولاً إلى النحت.

لقد مارست الفنانة التشكيلية السعودية مختلف التجارب بمغامرة مدهشة خصوصاً عند اللواتي لم يتعلمن الفن عن طريق الدراسة الأكاديمية أو تخرجن من معاهد ذات علاقة ومع هذا فقد أثمرت تجاربهن الكثير من النجاح والتميز وصل فيه الكثير من الفنانات إلى تحديد الشخصية أو الخصوصية التشكيلية على مختلف السبل والأساليب لمختلف المدارس الفنية العالمية مع حفظ الانتماء إلى الواقع والموروث المحلي بكل معطياته البصرية والفكرية الثابت منه والمتحرك.

عندما تقتني لوحة، فإن أول ما يخطر بذهنك هو كيف تختار إطاراً مناسباً لهذه اللوحة. وهي عملية محيّرة بالفعل وربما تحتاج إلى معرفة وخبرة. ونادراً ما يرضى المرء عن الإطار الذي اختاره. فالإطار قبل وضعه على اللوحة هو غير الإطار بعد وضعه عليها. خبيرة الإطارات الإيطالية ريتا كنّارسا تستعرض هنا أهم مبادئ اختيار الإطار المناسب.



كيف.. تختار إطاراً للوحتك؟

يعطي الإطار بعض اللوحات هيبة، ويضيف سبباً إضافياً للتمعن بها. ولكن يمكن لاختيار إطار غير مناسب أن يضر باللوحة ويضعفها، لذا يجب أن يراعى التوازن بين قوة العمل وقوة الإطار الذي يحيط به حتى لا يتسبب إطار رائع فنياً في الطغيان على لوحة أقل روعة منه، لأن وظيفة الإطار الرئيسة هي مساعدة العمل الفني وليس منافسته.

يتطلب اختيار إطار للوحة بعينها حِسّاً فنياً، لأن الإطار يُعدّ مكملاً للعمل الفني المرسوم، الغرض منه إبراز العمل الذي يحيط به. وعملية اختيار الإطار تعتمد بشكل شبه كلي على التناسق، وليس بالضرورة التوافق بين عناصر العرض الجوهرية وهي الإطار واللوحة والمحيط الذي ستعرض فيه. على أن لا ننسى أن الهدف هو إبراز اللوحة وليس الإطار.

هناك علاقة حميمة بين الأسلوب الفني الذي رسمت به اللوحة ونوع الإطار وشكله العام. فمن الأفضل مثلاً أن توضع اللوحة التي تحتوي على رسمٍ أو شكلٍ مرسومٍ بأحد الأساليب الفنية الحديثة في إطارٍ عصري حديث، بعكس اللوحة الكلاسيكية القديمة، أو المعتمدة على الأسلوب الكلاسيكي في اللون والتصميم وإن كانت حديثة، والتي يفضل أن توضع في إطار كلاسيكي. وقد تكون هذه الخطوة الأولى أسهل الخطوات.

إن الرسم الذي يعرض في متحف أو معرض فني أو ما شابهه إلى جانب عدد آخر من الأعمال الفنية، يجب أن يكون اعتماد ألوان الإطار والأسلوب الفني لتصميمه متماشياً مع شكل ألوان الرسم نفسه والإضاءة، وانسجام الإطار بالأطر الأخرى من حوله، من دون التركيز كثيراً على المحيط.

أما إذا كان الرسم للاستعمال في المكتب أو المنزل لأغراض التأثيث والديكور، فيجب أن يؤخذ في الاعتبار الأسلوب الفني ولون الإطار بالمقارنة مع ألوان الأثاث في محيطه بالإضافة إلى أسلوب الرسم وألوانه واتجاه الضوء المسقط عليه.

وعندما تكون المساحة الفضائية المتاحة للعرض كبيرة ومتسعة، يكون من الأفضل استخدام إطار كبير وعريض، حتى وإن كانت اللوحة أصغر حجماً، لأن الإطار سيكون بارزاً في شكل كبير. أما في حالة المساحة الفضائية الضيقة، فإنها تحتاج إلى إطار أقل ظهوراً حتى لا يأخذ من أهمية اللوحة ذاتها. هذا العامل مهم جداً لأنه يظهر التباين والتعاكس، وفوق كل ذلك قيمة المعروض وقدره الفني.

هنا، لا بد من أن نوضح أن ما نعنيه بالضوء هو مستوى الإضاءة وألوانها المرسومة، والتي نعرفها عادة بـ «الفاتحة» أو «الداكنة». لذا فإن المرسوم ذا النسق اللوني الفاتح أو المتدرج يحتاج إلى إطار داكن يبرزه بحيث يكون اللون قريباً من ألوان الخطوط الأولى «الداكنة» في الرسم والتي تتلخص في النسق اللوني الداكن أو المتبخر، وهو اللون الذي يتلاشى في لون آخر «من المعتم إلى الصافي فالأكثر وضوحاً». بينما الرسم ذو النسق اللوني المعتم والداكن يُختار فيه العكس، وسيحتاج في الإطار إلى نسق لوني واضح وصافٍ أو متبخر ابتداءً من الفاتح رويداً رويداً إلى الداكن.

وبشكل عام، فإن رسوم المناظر من قرى وشواطئ أو الأشكال البشرية تحاط عادة بإطار سميك أو نحيل اعتماداً على حجم اللوحة بحيث يكون التناسب طردياً بينهما. فكلما كبر حجم اللوحة تزداد سماكة الإطار.

إلى ذلك تجدر الإشارة إلى أن كل اللوحات المائية المرسومة على الورق وحتى تلك المرسومة على أقمشة حساسة مثل الحرير، تحتاج في إطارها إلى الزجاج لحمايتها. ويتوافر اليوم في الأسواق أنواع كثيرة من الزجاج، غير أن أفضلها يبقى أكثرها شفافية، الخالي من الاخضرار. كما يوجد أيضاً نوع من الزجاج غير اللماع، سمته الأساسية تكمن في منعه لانعكاس الضوء على اللوحة. غير أن هذا النوع من الزجاج يحجب نسبة مئوية ضئيلة من وضوح الخطوط الدقيقة وتبدلات الكثافات اللونية الحسّاسة. لذا لا ننصح باستعماله إلا للوحات المائية حيث التناقض ما بين ألوانها قوي جداً وواضح لا يتأثر بفقدان بعض حدّته.

الحج والحجاج..

في كتب المستشرقين

بـدأ اهتمام الغرب ببلاد العرب منذ القرن الخامس قبل الميلاد في كتب هيرودوتس وثيوفرست تلميذ أرسطو، ولاحقاً في القرنين الأول والثاني للميلاد عند الجغرافي اليوناني سترابون، والمؤرِّخ الروماني بليني. بعد ذلك لم يضف الكثير على ما كتب آنذاك، حتى جاء القرن الخامس عشر الميلادي وبدأ تدفق الرحّالة الأوروبيين إلى الجزيرة العربية.

الزميل **خالد الطويلي**، يوجز بعض أهم هذه الزيارات التي دخلت في سياق الحج إلى الديار المقدسة، وأثمرت توصيفاً مدوناً عن المنطقة، فصارت تعد اليوم بمثابة مراجع عن الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال الحقب المختلفة التي شهدت هذه الرحلات.

بقيت مكة المكرمة منذ نشأتها وعلى مرّ العصور، مجهولة الملامح لغير العرب الذين كانوا يحجون إليها، وعصية على الغزو الأجنبي رغم محاولات أباطرة الروم وملوك فارس في حقب مختلفة. وكان عدم توافر معلومات واضحة عن الصحارى العربية من أهم الأسباب التي أحبطت أولئك الغزاة الذين راودتهم فكرة الغزو.

وخلال حقبة انتشار الإسلام في أوروبا، تفاقم ذلك الغموض الذي كان يحيط بمكة المكرمة وبالمدينة النبوية خصوصاً بالنسبة إلى أولئك الذين أرادوا معرفة ما يمكن عن منشأ الإسلام الذي ساق الجيوش إلى ديارهم. ولأنهم كانو ممنوعين من دخولها، ولبعد المسافة ومشقة السفر وخطورة المغامرة، تمكنت المدينتان من الاحتفاظ بأسرارهما وغموضهما عبر كل ذلك التاريخ المتقلب، وبقي حب المعرفة يدغدغ فضول المهتمين لاختراق حاجز سريتها ضمن مناطق جغرافية أخرى في المشرق اهتم بها تيار فكري غربي سمي بالاستشراق. وبتنوع خلفيات هؤلاء المهتمين وأهدافهم وتوجهاتهم وسبلهم، ظل الحج الوسيلة الأمثل لتغلغلهم إلى داخل هذا المجتمع المنغلق أمامهم. أتقنوا اللغة العربية، وانتحلوا شخصيات إسلامية في سبيل هذه المعلومات، رغم المخاطر التي كانت تحيط بهذا النوع من التسلل الذي أثار حسب روايات بعضهم ريبة أهل البلد وكاد يجلب الهلاك لهم. ولم يكن الفضول وحسب هو الذي أتى بهم جميعاً، فقد كان منهم الرحالة المستشرقون، وكان منهم الجواسيس ومنهم من ساقتهم ظروف مختلفة كالعبودية وخلافها إلى الحج. وقد عرفنا منهم من تسنّت له العودة إلى بلده من دون أن يهلك وأن ينشر مذكراته عن تلك الرحلات، ومنهم الكثير ممن لم تصلنا أخبارهم.

منهمٍ من أتى مملوكاً مكرهاً، ومنهم من حضّر لرحلته خلال سنوات

بدأ تدفق الرحالة المستشرقين إلى المنطقة خلال القرن الخامس عشر الميلادي في إطار لا يمكن عزله عن التطورات الدولية السياسية والعسكرية. وكانت كتاباتهم عنها متباينة من حيث الالتزام بالموضوعية والحياد، ولكنها كانت تعكس اهتمام الأوروبيين المتزايد بالشرق عندما بدأت البوادر الأولى للصراع من أجل السيطرة والتوسع، والذي بدأته إسبانيا والبرتغال ثم هولندا وفرنسا وبريطانيا كقوى بحرية استطاعت الوصول إلى الشرق العربي والجزيرة العربية.

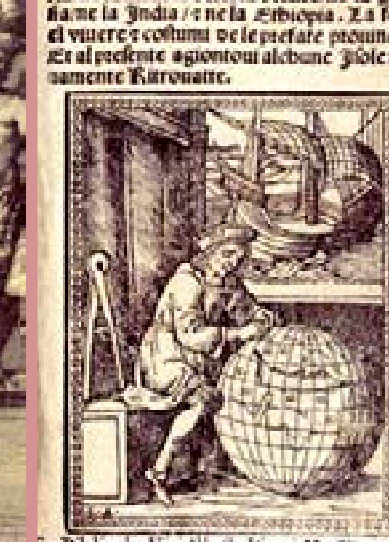
طلائعهم: مماليك أو في لباسهم

كان أول من ادّعى الوصول إلى مكة المكرمة من المستشرقين جون كابوت عام 1480م، أي قبل 12 عاماً من سقوط الأندلس واكتشاف أمريكا، ولكن لم يصل إلينا أي شيء مما كتب عن تلك الرحلة. أما أول سجل وصلنا حول رحلة مستشرق إلى الحج فكان حول رجل إيطالي يدعى لودفيجو دي فارتيما عام 1503م دخلها كجندي في حرس المماليك وانتحل لنفسه اسم "يونس المصري". ويبدو أن تقمص شخصية المملوك لفارتيما وغيره كما سيأتي ذكره

C. Snouck Hurgronje









لاحقاً كانت أكثر سهولة كون كثير من المماليك كانوا من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام.

أبحر فارتيما من البندقية في عام 1503م، وزار كلاً من الإسكندرية وطرابلس وأنطاكية وبيروت ودمشق وسارع منذ وصوله دمشق، إلى تعلّم اللغة العربية، واستعدّ لاستئناف الرحلة جنوباً، ثمّ أمّن لنفسه مكاناً في القافلة الذاهبة إلى مكة المكرمة، بعد أن عمل على عقد عُرى الصداقة مع أحد زعماء المماليك الذي عيّنه حارساً من حرّاس القافلة.

..المغامرة تنتهي عادة بكتاب يتضمن وصفاً للأماكن المقدسة وأحوالها وانبهاراً بمناسك الحج

وفي الثامن من أبريل 1503م تحرّك فارتيما إلى مكة المكرمة بزي جندي مملوك. وحينما وصل إلى المدينة بقي فيها ثلاثة أيام، ودخل الحرم الشريف، الذي يصفه وصفاً موجزاً، فيقول: "إنه مسجد مقبب يدخل إليه من بابين كبيرين، ويحمل سقفه حوالي أربعمائة عمود من الآجر الأبيض، وفيه عدد كبير من المصابيح المعلّقة – الثريّات – يناهز الثلاثة آلاف"، ويشير إلى وجود عدد من الكتب، في جهة من جهات المسجد التي تحتوي على تعاليم الدين الإسلامي.

وينتهز فارتيما الفرصة لتصحيح الاعتقاد الشائع في أوروبا آنذاك من أن جثمان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) معلّق في الفضاء، فيقول: "أما بخصوص هذه الأخبار فأنا أخالفها تماماً، وأؤكّد أن هذا ليس صحيحاً". ويذكر في الفصل الذي يتطرّق فيه إلى مكة المكرمة وتشييدها وإنشائها أنها مدينة جميلة تكتظ بالسكان، لأنّها تحتوي على ستة آلاف أسرة. ودورها حسنة للغاية، "مثل دور الإيطاليين"، على حد تعبيره، ويذكر كذلك أن مكة المكرمة لم تكن مسوّرة، لأن أسوارها هي الجبال الطبيعية التي تحيط بها، ولها أربعة مداخل. وقد اندهش فارتيما من كثرة الحجاج الهائلة وتعدد جنسياتهم وقومياتهم، فيقول أنه لم يجد مطلقاً، من قبل، مثل هذا العدد من الناس يجتمع في بقعة واحدة من الأرض.

ويمضي الرحالة في نقل انطباعاته ومشاهداته، فيذكر في الفصل المخصص للحج من رحلته أن مركز مكة المكرمة يوجد فيه "معبد" جميل جداً، على حدّ تعبيره، مبني من اللبن المشوي، وللمسجد الحرام، أو المعبد كما يسميه مئة باب، ثم يشير إلى وجود الكعبة الشريفة في الوسط من دون أن يذكر اسمها. ثم يصف بئر زمزم قائلاً: "إن لها قبة جميلة، وإن عمقها يبلغ سبعين قامة، وإن ستة أو سبعة رجال يقفون عادة حول البئر ليستقوا الماء للناس منها. وهؤلاء يريقون ثلاثة أسطل من ماء زمزم فوق كل حاج من الحجاج ، فيتبلل به من قمّة الرأس إلى أخمص القدم، ولو كان لباسه من حرير".

ويظل القرن السادس عشر الذي كاد يطبع بصبغة برتغالية، شاهداً على محاولات أخرى، على هذا

الصعيد وفي السياق نفسه. ففي يوليو 1565م حجّ إلى مكة المكرمة مملوك برتغالي الأصل مجهول الاسم، فكتب وصفاً دقيقاً عنها، رغم اختصاره واقتضاب ما جاء فيه. وقد اكتشف ما كتبه هذا المملوك في حاشية كتاب عربي موجود في مكتبة الفاتيكان برقم 217.

وفي الوقت نفسه تقريباً، وصل إلى مكة المكرمة رجل ألماني يسمى هانس وايلد كان الأتراك قد أخذوه أسيراً في هنغاريا، وسيق إلى مكة المكرمة، فلم يعد إلى ألمانيا إلاّ سنة 1611م. وبعده بسنوات قليلة أسر فتىً بندقي يدعى ماركو دي لومباردو وهو يعبر البحر الأبيض المتوسط بصحبة عمّه القبطان، فبُعث به إلى مكة المكرمة من مصر مصاحباً لابن سيده. وقد دوّن أشياء طريفة عن سفرته.

أما جوزيف بيتس فهو شاب انجليزي يافع من أهالي أوكسفورد، وقصته طريفة وغير عادية. فقد كان هذا البريطاني شديد التعلق بالبحر، وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره التحق بسفينة كانت متوجهة إلى أمريكا عام 1678م، وفي طريق العودة، على مقربة من الشواطئ الإسبانية، هاجم قراصنة جزائريون السفينة وأسروا أعضاء الطاقم ونقلوهم إلى العاصمة الجزائرية، حيث بيعوا في السوق كعبيد.

قام بيتس برفقة سيده الجزائري بالحج إلى مكة والمدينة في أواخر القرن السابع عشر. ثم تمكّن من الفرار، ونشر قصة رحلته تلك في بريطانيا سنة 1704م، وهي قصة فيها بعض الأخطاء والمبالغات الشائعة في الكتب المعاصرة له. ولكن الكتاب وعنوانه "وصف أمين لديانة وأخلاق المحمديين" اجتذب اهتماماً كبيراً. فقد كان بيتس من أوائل الإنجليز الذين دخلوا شبه الجزيرة العربية ووصفوا شعبها، والأماكن المقدسة فيها، وشعائر الحج في مكة، وقد زار كذلك قبر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ونفى كما فعل فارتيما من قبله حكاية أن القبر معلّق في الهواء، ويبدو أن هذه القصة كانت شائعة في أوروبا عن الجسد الشريف حتى أتى على نفيها أكثر من رحالة.

ويمضي بيتس في وصف قافلة الحجاج، وهو ينتقل بمعيّة سيده من القاهرة إلى السويس، ومنها إلى مرفأ صغير بين ينبع وجدة، ومن هناك استخدما الجمال للوصول إلى مكة المكرمة. ودامت إقامتهما هناك شهرين، وكان بيتس يرافق معلمه كل يوم في جولة حول المدينة، ويسجّل في ذهنه صور المباني وعادات الأهالي الدينية. وكان الجهد الذي بذله لتسجيل كل هذه التفاصيل مميزاً.

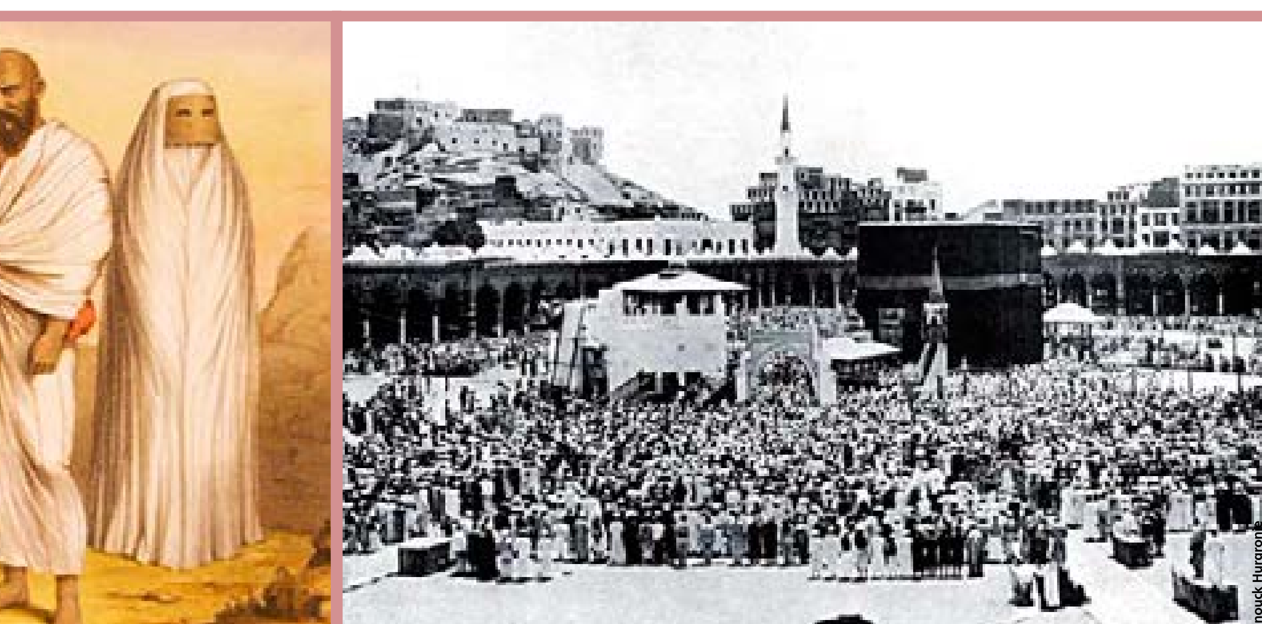
ويقدم بيتس انطباعاته حول مكة المكرمة، فيقول إنه لم يجد فيها شيئاً مثيراً أو مبهجاً. ولم يعجبه سكان مكة أيضاً، فهم فقراء ميالون إلى النحافة والهزال، ثم استرعى انتباهه "المتصوفون (الدراويش) الذين يعيشون حياة الزهد والتنسّك ويسافرون من أدنى البلاد إلى أقصاها، وهم يعيشون على صدقات الآخرين، يلبس الواحد منهم قفطاناً أبيض وقبعة طويلة بيضاء وعلى ظهر الواحد منهم جلد ضأن أو ماعز يرقد عليه، وفي يده يحمل عصا طويلة".

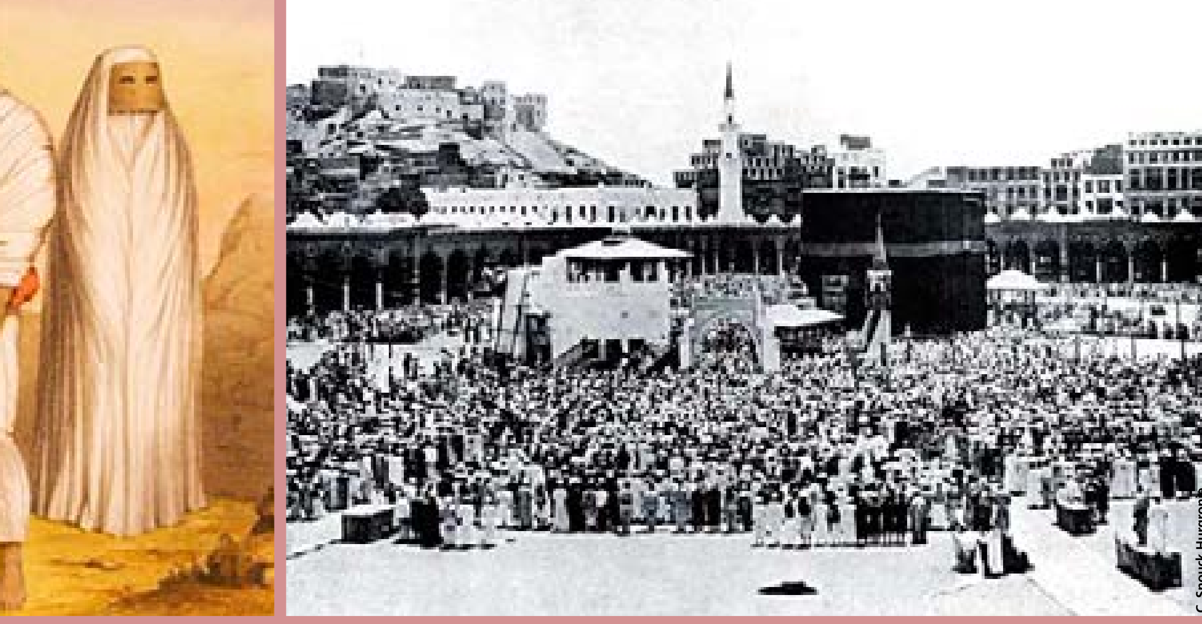
ويذكر خلال وصفه للحج ومناسكه أن سلطان مكة يقوم شخصياً بغسل الكعبة بماء زمزم، ثم بالماء المطيّب المعطّر. "وحينما يقومون بهذه العملية ترفع السلالم التي تؤدّي إلى بيت الله، ولذلك يحتشد الناس تحت الباب ليدفع ماء الغسيل عليهم حتى يتبللوا به من الرأس إلى القدم. ثم تقطع المكانس التي يكنس بها البيت قطعاً صغيرة، وترمى عليهم فيتلاقفونها، ومن يفز بقطعة منها يحتفظ بها كأثر".

ويضيف: "إن مكة كان فيها ماء كثير، لكنها خالية من العشب والزرع إلا في بعض الأماكن". على أنه وجد فيها عدّة أنواع من الفاكهة متوافرة للناس مثل العنب والبطيخ والخيار والقرع وما أشبه. وهذه يُؤتى بها في العادة من مكان يقع على مسيرة يومين أو ثلاثة، ربما قصد به الطائف.

الرحلات المحضّرة بعناية

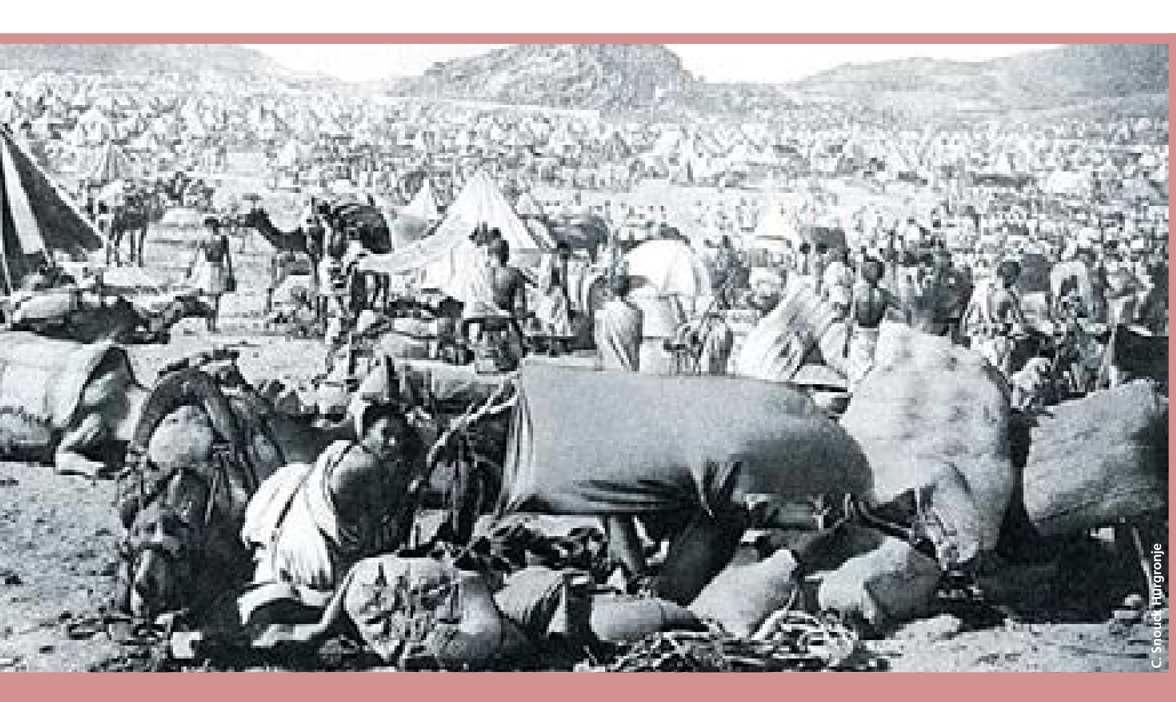
وفي عام 1807م وصل الحجاز رجل إسباني الأصل يُدعى دومنيكو باديا أي ليبليج، لينتحل اسماً ونسباً عربياً "علي بك العبّاسي"، وقد تضاربت الآراء في حقيقة هذا الرجل، فقد يكون عميلاً للفرنسيين أو البرتغاليين أو ربّما الإنجليز. وهناك من يذهب إلى





C. Snouck Hurgronje





C. Snouck Hurgronje

أنه كان جاسوساً لسلطان مصر محمد علي باشا، الذي كان يجهّز لحملة على الحجاز. على كل، فإن علي بك العباسي كان أول أوروبي احتك بالناس عن قرب من موقع لم يثر حساسيتهم. وكان لادعائه النسب العباسي، وتأكيده لشريف مكة بأنه كان واحداً من عائلتهم الوجه الذي دخل به قلوب الناس.

المستشرقون الأوائل ركزوا اهتمامهم على الجانب الديني ومناسك الحج، والمتأخرون منهم على وصف المدينتين

سعى علي بك إلى توخي الدقّة في كتاباته. فهو يصف بالتفصيل الأروقة المعمدة والقباب والمآذن في المسجد الحرام، ويخبرنا عن الأماكن المبلّطة والأماكن ذات الأرض الرملية. ويميّز الأمكنة التي تخص أتباع كل مذهب من المذاهب الأربعة في أرجاء الحرم. ويأتي بعد ذلك على إيراد تفاصيل أخرى عن مناسك الحج، فيُحدّث قرّاءه عن رمي الجمرات ويشرح رمزيتها.

ولم يكتف علي بك بزيارته الأولى، فغادر دمشق عام 1818م، متجهاً إلى زيارة مكة المكرمة للمرة الثانية ولكنه توفي على الطريق. وتقول التقارير البريطانية إن وفاته كانت بسبب مرض الديزنتاريا. في حين أن التقارير الفرنسية تؤكد بأنه قتل مسموماً من قبل البريطانيين.

بقي أن نشير إلى أن رحلات علي بك، قد طبعت بالإنجليزية عام 1816م، تحت عنوان "رحلات علي بك في المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا 1803 - 1807م"، وأعيد طبعها في لندن عام 1993م.

أمّا الرحّالة الثاني الذي قام بمهمّة مشابهة، فهو الألماني أولريخ سيتزن. غير أن المعلومات عنه شحيحة وموجزة جداً. ولد عام 1767م، ونجهل الكثير عن نشأته وحياته، وكل ما نعرفه أنه قضى عشرين سنة يدرس ويتأهب لرحلته إلى الشرق. فجاء إلى سوريا سنة 1805م وأقام فيها بضع سنين، وكتب في رحلته كتاباً قيّماً باللغة الألمانية قبل أن يعلن إسلامه ويتوجه إلى أداء فريضة الحج. فسافر إلى الحجاز، في زيّ درويش اسمه "الحاج موسى" ودخل مكة حاجاً سنة 1810م.

وزار الحجاز عدد آخر من الأوروبيين الرحالة بعد ذلك. وقد كانت حملة الخديوي محمد علي باشا على الحجاز، سبباً في دخول عدد من الأوروبيين مع الجيوش المصرية إلى الأراضي المقدّسة وزيارتهم مكة والمدينة، ومنهم السويسري بيركهارت، والإيطالي فيناتي، والجندي الأسكتلندي توماس كيث.

أما فيناتي، فهو رجل من أهالي فيرارا في إيطاليا. وقد قُدّر له بعد مغامرات عدة، أن يحجّ إلى مكة المكرّمة في 1814م، وقد اتخذ محمداً اسماً. كل ما لدينا من معلومات عنه، أنه سيق إلى الجنديّة في بلدته سنة 1805م ، ففرّ منها إلى ألبانيا، وعمل عند أحد الباشوات الأتراك فيها، واعتنق الإسلام. ثم توجّه إلى اسطنبول، وبعد مغامرات وتقلبات عدّة وصل إلى القاهرة في عام 1809م، وانخرط في سلك الحرس الألباني. ثم فرّ من الجندية عام 1814م وتوجه إلى مكة المكرمة، فحجّ فيها، وكتب عن ما شاهده بالتفصيل، ومنه قوله: "ولمّا كنت مسروراً لنجاحي في الفرار، كنت في وضع فكري يتقبّل الكثير من الانطباعات القويّة. ولذلك تأثرت كثيراً بجميع ما رأيت عندما دخلت البلدة (يقصد مكة) لأنّها وإن لم تكن واسعة ولا جميلة بحدّ ذاتها، فقد كان فيها شيء يبعث على الرهبة والاندهاش. وكان ذلك يلاحظ على الأخصّ عند الظهيرة، حينما يهدأ كل شيء تمام الهدوء، إلا المؤذّن الذي يدعو الناس إلى الصلاة من فوق المأذنة".

ويمضي فيناتي في وصف البيت الحرام والكعبة معلقاً على ازدحام الناس في مكة، وكثرة الحجّاج فيها فيقول: "وصلتْ إلى مكة، منذ أن أتيتُ إليها، قافلتان كبيرتان، إحداهما من آسيا والأخرى من إفريقيا، يبلغ عدد القادمين فيهما حوالي أربعين ألف شخص، كان يبدو عليهم كلهم مقدار ما يكنّونه في نفوسهم من الاحترام والتقديس للبيت الحرام".

عصر كبار المستشرقين

وفي الوقت الذي كان فيه فيناتي يقوم برحلة الحج إلى مكة، كان هناك مستشرق آخر يُعدّ من أشهر رحالي القرن التاسع عشر وأغزرهم علماً وثقافة وأبعدهم صيتاً وشهرة، يشارك في موسم الحج ذاته، متخفياً تحت اسم مستعار وهو "الشيخ إبراهيم".. ذلك هو الرحالة السويسري جون لويس بيركهارت الذي نزل في جدة في الثامن عشر من يوليو 1814م. وسار منها إلى الطائف لمقابلة الخديوي محمد علي باشا، ثم قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج.

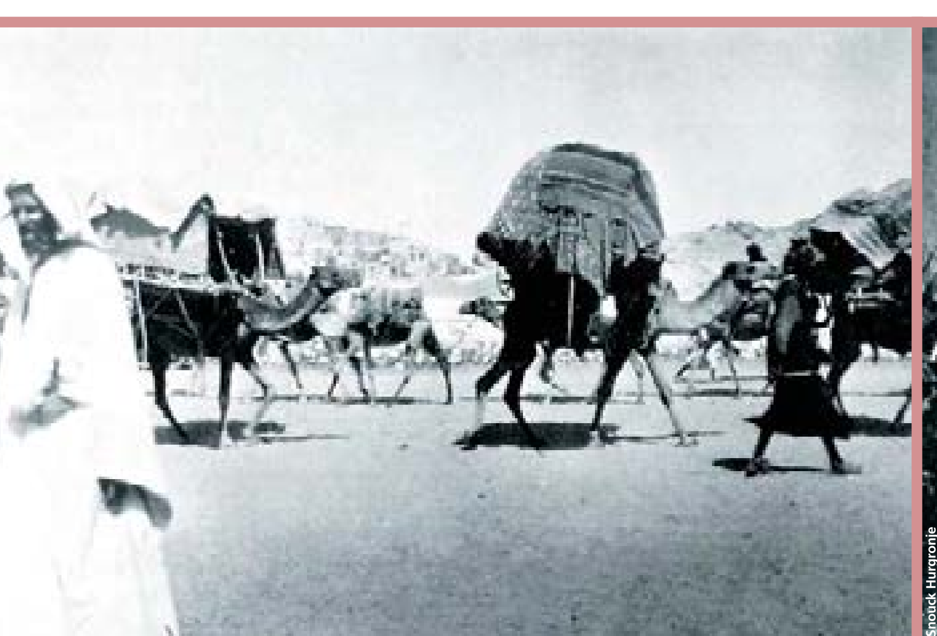
قبل أن يرحل بيركهارت إلى الحج، قرر أن يعدّ نفسه إعداداً كافياً لتلك الحياة المليئة بالمصاعب والاختبارات والمحن التي تنتظره. فالتحق بجامعة كمبردج عام 1808م لدراسة اللغة العربية والطب وعلم الفلك وعلوم أخرى. ثم قصد حلب حيث قرأ القرآن وتفقه في الدين الإسلامي ثم اعتنقه عام 1809م وتسمّى بإبراهيم بن عبدالله، وراح يعوّد نفسه على الحياة الصعبة، فهجر حياة الترف، وبات ينام على الأرض.

وصل بيركهارت إلى مكة، في 8 سبتمبر 1814م، وكانت معرفته باللغة العربية، واطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعداه على إنجاز مهامه بنجاح، حتى استطاع أن يعيش في مكة خلال موسم الحج كلّه، ويشترك في مناسكه وشعائره، من دون أن يثير أية شكوك.. وكان بيركهارت نفسه يقول إنّه من بقايا المماليك الذين قضى عليهم محمد علي باشا في مصر، حينما كان يُسأل عن هويته، وشخصية المملوكي والدرويش كانت مناسبة للتخفي بين الحجيج بالنسبة لرجل أوروبي كما فعل فارتيما من قبل. والملاحظ مما كتبه بيركهارت نفسه أن إقامته في مكة كانت مريحة جداً، إذ يقول: "خلال جميع رحلاتي في الشرق، لم أتمتع براحة كالتي عشتها في مكة. وسأحتفظ بذكريات جميلة عن إقامتي هنا".

ولا شكّ أن بيركهارت لم يُضع وقته سُدى، إذ وضع 350 صفحة من الملاحظات والوصف الدقيق للمدينة وأهلها.. وترك وصفاً مفصلاً لبيت الله الحرام، خلال ليالي شهر رمضان عندما "تلتمع آلاف الفوانيس في أعمدته" وعندما "تنعشنا النسمة الباردة فيه، بعد يوم طويل وحار من الصيام".

ومن طريف مايورده بيركهارت، في هذا الفصل، قائمة بأسماء الأبواب الموجودة في المسجد الحرام تحتوي على تسعة وثلاثين اسماً حديثاً، تقابلها الأسماء القديمة لبعض الأبواب. ويضيف في وصفه لمكة المكرمة: "إنها يمكن أن تعتبر بلدة جميلة، لأنّ شوارعها أعرض من شوارع المدن الشرقية الأخرى بوجه عام. وبيوتها عالية مبنية بالحجر، فيها عدد من الشبابيك التي تطلّ على الشوارع فتسبغ عليها منظراً مليئاً بالحيوية، بخلاف الدور في مصر وسوريا، التي لا تطلّ على الطرق في الغالب. وهي مثل جدة، تحتوي على عدد من الدور ذوات ثلاثة طوابق". ويقول كذلك: "إن مكة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تشكّل مانعاً حصيناً ضد العدو. وقد كان لها في الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمي جوانبها".





ويمضي بيركهارت في التطرق إلى العديد من التفصيلات، كالماء الذي يعتمد عليه سكان مكة، وبئر زمزم، وقناة زبيدة التي يسهب في سرد تاريخها وما شهدته من ترميم وإصلاح على مرّ التاريخ. كما يصف محلات مكة التجارية وأسواقها وأدق التفصيلات الأخرى عن حاراتها ومطوّفيها وسفوحها، وأجهزتها الإدارية، وأماكنها التاريخية.

أولهم كان جون كابوت في القرن الخامس عشر الميلادي، وآخرهم بيركهارت وبيرتون وهورخنيه في القرن التاسع عشر الميلادي

قدّر بيركهارت عدد سكان مكة في غير مواسم الحج، بخمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف نسمة، ثم يقول: "إن مكة كان بوسعها، في تلك الأيام ، أن تسكن ثلاثة أضعاف هذا العدد من الحجاج أيضاً". ويضيف في حديثه عن السكان أن جلّهم غرباء وأجانب عنها، من أهالي اليمن وحضرموت. وكان يليهم في العدد أبناء الهنود والمصريين والسوريين والمغاربة والأتراك. وكان هناك أيضاً مكيّون من أصل إيراني وتاتاري وبخاري وكردي. ومن كل بلد مسلم آخر تقريباً.

في منتصف يناير 1815م، غادر بيركهارت مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. ومن سوء حظه أنه وقع مريضاً بمرض البرداء (الملاريا)، حتى أصابه اليأس من نفسه، وظنّ أنه سيقضي نحبه في المدينة فيقبر فيها. لكنه مع ذلك استطاع أن يكتب عدّة فصول عنها في الجزء الثاني من رحلته. غير أن هذه الكتابات بقيت أقل شموليّة من كتاباته عن مكة.

وفي صبيحة يوم الخامس والعشرين من يوليو 1853م، وصل المدينة المنورة بريطاني متنكِّر باسم "الحاج عبدالله" ليغدو هو الآخر أحد أبرز الرحّالة الأوروبيين الذين استشرقوا.

ولم يكن هذا (الحاج) سوى السير ريتشارد فرنسيس بيرتون الذي كان يعمل موظفاً في شركة الهند الشرقية المعروفة، ورحل إلى إفريقيا والهند وسوريا وشمال إفريقيا والبرازيل وجزيرة العرب التي ظلّت بين هذه جميعاً، كما قال هو نفسه: "البلاد التي تولّعت بها".

استعدّ بيرتون، كما فعل بيركهارت من قبل أن يقدم على رحلته الخطرة بأشهر عديدة، واتخذ جميع التدابير اللازمة للقيام بمهمته خير قيام، حتى أنه عمد إلى الاختتان وهو يومئذ في الثانية والثلاثين من عمره! وخلع عنه ثيابه الأوروبية، واستبدلها بملابس مسلم أفغاني في طريقه إلى أداء فريضة الحج، وتسمّى باسم الحاج عبدالله. وقد وصف لنا بيرتون بدقّة رحلته هذه في كتاب ممتع من جزأين ضخمين هو "الحج إلى المدينة ومكة".

وفي طريقه إلى الشرق، كان بيرتون يعمل على إتقان دوره كمسلم في تفاصيل الحياة اليومية للمسلم، منتحلاً شخصية نبيل فارسي بداية الأمر، ثم شخصية درويش متجوّل. وعن سبب إقدامه على هذه الخطوة، يقول بيرتون: "ليس هنالك من شخصية مناسبة للتخفّي في العالم الإسلامي أكثر من شخصية الدرويش. فهذه الشخصية يمكن لأي رجل من أية طبقة أن يتلبّسها، من أي عمر أو من أي مذهب. كما يسمح للدراويش بتجاوز أو تجاهل أصول الأدب والمعاملة كأشخاص قد انسلخوا عن المجتمع، وتوقّفوا عن الظهور على مسرح الحياة".

وصل بيرتون إلى المدينة المنورة أولاً وكتب عن تشكيلات خدم الحرم النبوي، وما يلبث أن يقارنها بما قرأه عند بيركهارت. ويعلمنا بيرتون أن حجم المدينة المنورة حين زارها كان أكبر بمرة وثلث من حجم مدينة السويس، أو بقدر نصف حجم مكة، وهي عبارة عن مكان مسوّر يؤلّف شكلاً بيضاوياً غير منتظم، ولها أربع بوّابات.. وهناك عمارات ضخمة وأبراج مزدوجة متقاربة.. وفي داخل المدينة الظليل ترى الجنود يحرسون المدينة، وأصحاب الجمال يتشاجرون، وكثيراً من الرجال الذين لا عمل لهم يتسكّعون. ثم يصف البنايات العامة فيقول: إن هناك أربع خانات كبيرة وبضع مقاه صغيرة، وحماماً ممتازاً، ويقدّر عدد السكّان بـ 16 ألف نسمة.

في 11 سبتمبر 1853م، وصل بيرتون إلى مكة المكرمة بعد رحلة متعبة حافلة بالمخاطر؛ ليستقر به المقام في بيت مرافقه الشاب محمد البسيوني الذي كان دليله ومرافقه منذ بداية الرحلة.

يقول بيرتون عن مكة حينما وصلها لأول مرة: إنه لم يجد فيها ذلك الجمال الرشيق المتناسق الذي يتجلّى في آثار اليونان وإيطاليا، (وهذا دليل على التحول الذي طرأ على معمار مكة في الفترة ما بين زيارة فارتيما الذي وصف دورها بأنها تشبه الدور الإيطالية، وبين زيارة بيرتون لها) ولا الفخامة المتجلّية في أبنية الهند، ومع هذا فقد كان المنظر غريباً فريداً بالنسبة إليه، وكتب: "شاهدت احتفالات دينية في مناطق مختلفة، لكنني لم أرَ مثل هذه المشاهد المهيبة والرائعة في أي مكان آخر".

ومن المستشرقين الذين قاموا بالحج بغرض التجسس، أو التعرف على أحوال مواطني مستعمرات بلادهم، الهولندي سنوك هورخنيه الذي كان أستاذاً للغة العربية في جامعة لندن، وعاش 17 عاماً في جزر الهند الشرقية (أندونيسيا)، ثم زار مكة وبقي فيها ستة أشهر بين العامين 1884 و 1885م.

وتزامنت هذه الزيارة مع قيام حركات مقاومة للاستعمار الهولندي في تلك الجزر الآسيوية التي يحج منها عشرات الآلاف إلى مكة سنوياً، وكان الهدف منها التعرف على المؤثرات التي تدفع الثوار إلى العصيان بشكل خاص بعد عودتهم من مكة. والتقط هورخنيه آنذاك كمية كبيرة من الصور الفوتوغرافية لمواطني هذه الجزر إضافة إلى أماكن عديدة في مكة وجوارها.

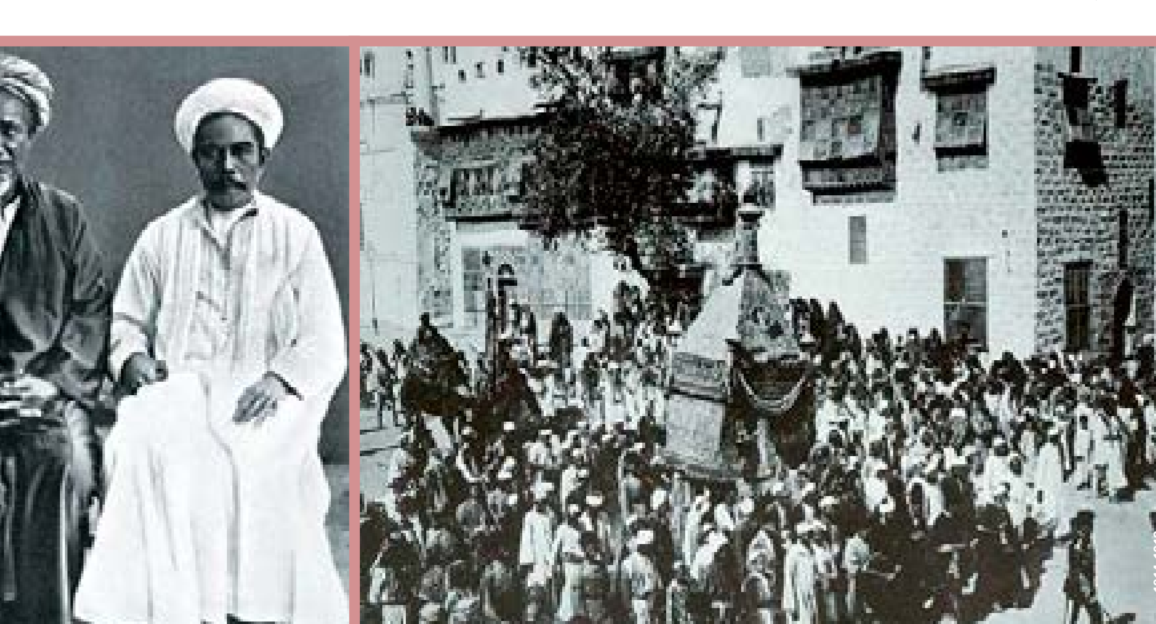
إن قائمة الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة طويلة في الحقيقة، إذ تضم إضافة إلى المشاهير الذين ذكرناهم عدداً أكبر ممن هم أقل شهرة. وبشكل عام يمكن القول أن ملاحظات هؤلاء. اختلفت بمرور الزمن، فقد كان الأوائل منهم أكثر اهتماماً بشرح تفاصيل الدين ومناسك الحج، وتعبيراتهم تطبعها الدهشة وأحياناً الانبهار وأحياناً التعصب الديني. كما أن الأوائل ركزوا على دحض الأخطاء والخرافات الرائجة في أوروبا عن الدين الإسلامي ومقدساته.

أما المتأخرون منهم، فقد ذهبوا إلى وصف أدق لحال سكان مكة والمدينة والحجاج وتركيباتهم الإثنية وأعدادهم وطبقاتهم وأحوالهم المادية والسياسية والاجتماعية. كما تركز وصفهم للمدينتين على ذكر تحصيناتهما ومصادر المؤونة والماء فيهما كما استغل رحالة كل بلد أوروبي فرصة الحج للتجسس على حجاج مستعمرات بلده.

وقد كانت هناك بضع عوامل مشتركة بين هؤلاء الرحالة الأوائل منهم أو المتأخرين، فقد شاع بينهم تقمص شخصيات يسهل لهم التسلل عبرها وتبرير سحنتهم الأوروبية من خلالها مثل جنود المماليك، أو تصرفاتهم الغريبة مثل الدراويش. كما أن جميعهم تعلم اللغة العربية وأجادها واستعد للرحلة وتعلم الدروس ممن سبقوه إليها بفطنة شديدة.



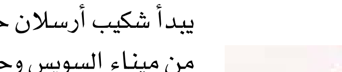
Anonymous 1914-1918



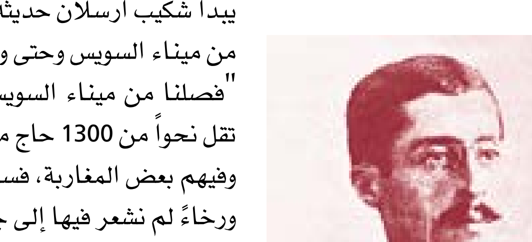




Dr. F. G. Clemow (1906)







.. والحاج شكيب أرسلان مع الملك عبدالعزيز

الأمير شكيب أرسلان الأديب والسياسي والمؤرخ، قام في العام 1347هـ (1929م) برحلة بغرض الحج، جاءت متميزة عن معظم رحلات غيره من الأدباء. ويكمن تميزها في لقاء أمير البيان بجلالة الملك عبدالعزيز، يرحمه الله، في رحلته هذه، فترك لنا انطباعاته التي نورد بعضها في هذه المقتطفات التي اختارها عبدالله ابن محمد الحقيل.

خصّ الأمير شكيب أرسلان (1286 - 1366هـ) رحلته إلى الحج بكتاب مستقل عن باقي مؤلفاته سمّاه "الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف"، والذي لا يزال حتى اليوم إلى جانب مؤلفاته الأخرى مرجعاً تاريخياً، حافلاً بالانطباعات العميقة التي تكتسب أهميتها من شخصية "أمير البيان" الذي ملأ المشرق العربي نثراً بليغاً وأدباً رفيعاً.

من ميناء السويس

يبدأ شكيب أرسلان حديثه عن رحلة الحاج انطلاقاً من ميناء السويس وحتى وصوله إلى جدة فيقول: "فصلنا من ميناء السويس في 8 مايو على باخرة تقل نحواً من 1300 حاج من إخواننا المصريين، وفيهم بعض المغاربة، فسارت بنا الباخرة رهواً ورخاءً لم نشعر فيها إلى جدة بأدنى حركة للبحر تزعج الراكب، وإنما كان المزعج هو اكتظاظ السفينة بالراكبين حتى لا يقدر أحد أن يمر من شدة الزحام.

وفي اليوم الثالث من مسيرنا ناوحنا ميناء رابغ، ولما كان الحجيج الوارد من الشمال في البحر الأحمر عليه أن يحرم من رابغ، فقد أحرم جميع الحجاج الذين في الباخرة، وارتفعت الأصوات من كل جهة: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. فاستشعر الناس من الخشوع في أثناء ضجيج الحجيج هذا ما اتصل بأعمال القلوب، وتغلغل في سرائر النفوس، وأحس الجميع بأن البيت الذي يخلع الناس تعظيماً له أثوابهم قبل الوقوف بعتبته بمسيرة يومين، ويشتملون في القصد إليه ما ليس فيه شيء من المخيط، لبيت مقدّس، لا يؤمه الناس كما يأمّون سائر البيوت، وأنه فوق بيوت الملوك، وفوق مقاصير القياصرة، وأواوين الأكاسرة، التي لا يحرم في الطريق إليها أحد لا من بعيد ولا من قريب.

وما زال الناس مستشعرين الخشوع تلك الليلة، مواظبين على التلبية، مترقبين طلوع الفجر الذي يدنيهم من جدة، ميناء البيت العظيم الذي يأمونه، إلى أن انفلق الصبح، وأخذت تبدو جبال الحجاز للعين المجردة، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتسبيح والتكبير، وازداد ضجيج التلبية للعلي الكبير، وخالط الهيبة والخشوع بالقدوم على البيت الحرام، الفرح والابتهاج بالوصول إلى أطهر بقعة وأقدس مرام، ولم تكن ترى إلا عيوناً شاخصة، ولا تحسّ إلا قلوباً راقصة، والجميع متطلعون إلى سواحل الحجاز منتظرون ببالغ الصبر أن يُقبلوا على جدة. فلما كان ضحى اليوم الرابع من ذي الحجة دخلت الباخرة مرسى جدة، لكن بتؤدة عظيمة؛ لما في هذا المرسى من الجبال والصخور التي تكاد رؤوسها تبرز من تحت لجاج البحر وإذا بخمس عشرة باخرة راسيات في ذلك الميناء على أبعاد متفاوتة من البر".

منظران في جدة

ثم يسترسل في وصف جدة وغرابة ألوان بحرها قائلاً: "ولقد طاب لي من ميناء جدة منظران لا يزالان إلى الآن منقوشين في لوح خاطري، أحدهما رؤية هذه البواخر الواقفة في الميناء ناطقة بلسان حالها: إنه وإن كانت هذه السواحل قفاراً لا تستحق أن ترفأ إليها البوارج، ولا السفن فإن وراءها من المعنوي أمراً عظيماً ومقصداً كريماً، هذه البواخر الكثيرة ماثلة أمام جدة من أجله، ولقد قيل لي في جدة ماذا رأيت؟ فمن العادة أن تجتمع في مياه جدة من أجله، ثلاثون باخرة وأربعون باخرة، وقد يبلغ عدد الراسي فيها إلى خمسين باخرة، حتى يعود البحر هناك غاباً أشباً، وتظن نفسك في هامبورغ أو نيويورك.

وأما المنظر الثاني فهو منظر مياه هذا الميناء، فلقد طفت كثيراً من البحار وعرفت أكثر البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر البلطيك وبحر المانش والأوقيانوس الأطلانتيك، ولم يقع بصري على شيء يشبه مياه بحر جدة في البهاء واللمعان".

> **شعرت في الحجاز أني تظللني راية عربية محضة حقيقية، ولم أجد الحرارة في جدة فوق ما تتحمله النفس**

ومع جلالة الملك

وبعد أن يسهب في وصف ميناء جدة، يمهد أرسلان للحديث عن لقائه بجلالة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - بالتطرق سريعاً إلى مشاعره وانطباعاته فيقول: "شعرت في الحجاز بأنني تظللني راية عربية محضة حقيقية، لا راية مشوبة بشعار أجنبي. وأحمد الله على بقاء هذه الجزيرة تحت سلطان أهلها دون سواهم، ولا تعرف شيئاً من الامتيازات الأجنبية التي تكاد تغرق في لججها الأمم التي تحت الوصاية، سوى مملكة ابن سعود الخاضعة للشريعة الإسلامية بجميع أحكامها.

ثم شاهدتُ جلالة ملك هذه الديار وخادم الحرمين الشريفين عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود وكان في جدة ذلك اليوم، فوجدت فيه الملك الأشم الأصيد، الذي تلوح سيماء البطولة على وجهه، والعاهل الصنديد الأنجد الذي كأنما قدّ ثوب استقلال العرب الحقيقي على قدمه، فحمدت الله على أن عيني رأت فوق ما أذني سمعت، وتفاءلت خيراً في مستقبل هذه الأمة.

ركبت بدعوة جلالة الملك عبدالعزيز إلى يساره في السيارة، وسرنا بمعيّته مساء يوم وصولي، وذلك إلى البلد الأمين، حماه رب العالمين. ولم أجد الحرارة في جدة فوق ما تتحمله النفس حتى نفس الذي لم يتعود الحر، بل هواء البحر يرطّب جو جدة ويخفف من سموم الصحراء، وذلك بخلاف مكة التي حرها شديد".

من جدة إلى مكة

ثم أخذ بعد ذلك في وصف الطريق من جدة إلى مكة قائلاً: "فأما الطريق من جدة إلى مكة في هذا الفصل فليس فيها ما يسرح به النظر في مؤنق أو ناضر. فلا ترى من أولها إلى ما يقارب آخرها غصناً أخضر يلوح، ولا رقعة بقدر الكف خضراء. ولا يكاد يقع بصرك من الجانبين إلا على رمال محرقة وعلى آكام وأهاضيب أكثرها من الحجارة السود كأنها من بقايا البراكين.

وكانت قوافل الحجاج من جدة إلى مكة خيطاً غير منقطع والجمال تتهادى تحت الشقادف، وكثيراً ما تضيق بها السبيل على رحبها، وكان الملك أيده الله من شدة إشفاقه على الحاج وعلى الرعية لا يرفع نظره دقيقة عن القوافل والسوابل ولا يفتأ ينتهر سائق سيارته كلما ساقها بعجلة قائلاً له: تريد أن تذبح الناس. وكل هذا لشدة خوفه أن تمسّ سيارته شقدفاً أو تؤذي جملاً أو جمالاً، وهكذا شأن الراعي البرّ الرؤوف برعيته، الذي وجد أنه معمور بمعرفة واجباته.

وما زلنا نسير حتى دخلنا حدود مكة التي يحرم فيها الصيد فالمسافة بالسيارة لا تتجاوز أربع ساعات، وبعد ذلك وصلنا وصرنا بين البيوت، فعلمنا أننا تشرفنا بدخول البلدة التي تشرفت بمولد محمد سيد الوجود (صلى الله عليه وسلم)، وبالبيت الذي طهره إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) للطائفين والعاكفين والركع السجود، فقصدنا توّاً إلى البيت الحرام حيث طفنا وسعينا، وجأرنا ودعونا، والله يتقبل الدعاء ويغفر الذنوب في ذلك المقام الكريم".



كانت ترتع آمنةً في شبه الجزيرة العربيّة: حمر وحش وبقر وحش[1]، وغزلان ووعول ونعام.. ولم يبق منها إلاّ ذكرها في شعرنا الجاهليّ مقترنةً بأقدم وسيلة عيش عرفها الإنسان وأكثر الرّياضات تدليلاً على لذّة القتل.. للتّسلية: الصّيد. فهل نلوم الشّعر الجاهليّ على انقراضها!؟ الدكتورة سوسن يموت[2] أبحرت في هذه الرحلة الجاهلية..

حيوانات «قرّضها» الشّعر

يحتلّ الصّيد موقعًا كبيراً في الشِّعر الجاهليّ، فإن خلت قصيدة من مشهد صيد فإنّها قد لا تخلو من صورة منه أو إشارة إليه. ومشاهد الصّيد ترد في القصائد إمّا بشكل مباشر حين يعمد الشّاعر إلى وصف مشهد صيد قام به وذلك فخراً بذاته أو بفرسه، و إمّا في معرض تعزّي الشّاعر لفقد عزيز بتتبّع مظاهر الموت في كائنات الطّبيعة، وإمّا استطراداً في وصف الشّاعر لناقته أو فرسه بحيوان أثناء عدوه هرباً من صائد، وهي الأغلب. ومع أنّ الفكرة الشّائعة هي أنّ مشهد الصّيد نمطيّ وواقعيّ كالشّعر الجاهليّ عامّة، إلاّ أنّ هناك تنويعات كبرى ضمن هذه النّمطيّة تفرضها كيفيّة ورود هذا المشهد في القصيدة وتطال طرق الصّيد ونتائجه ما يشي بخروج هذه المشاهد عن واقعيّتها لتتكيّف مع بنية القصيدة بشكل عام، وما ألفه الشّاعر في بيئته من صور التّنظيم الاجتماعيّ والاستسلام لمفهوم السّيادة والصّبر على صعوبات الحياة ومواجهتها بالإقدام والمدافعة.

الصيد في مشاهد الصّائد- الواصف

في الشّكل الأوّل (المباشر) يكون الصّائد هو الواصف ويأتي مشهد الصّيد استكمالاً لصفات فرس الشّاعر وإبرازاً لها، حينما يعمد الشّاعر إلى وصف سرعة هذا الفرس في اللّحاق بالطّريدة وتمكين الصّائد منها. ويصوّر عبد المسيح بن عسلة فرسه بأنّه:

لا يَنفَعُ الوحشُ مِنهُ أن تحذّرَهُ

كـأنّـه عَـالـقٌ منـها بِـخُـطّـافِ

والصّيد يأتي أيضاً استكمالاً لصفات الفتوة الجاهليّة، فهو فعل فخر بالذّات يتباهى به الجاهليّ أمام الآخرين كما يفصح قول زهير بن أبي سلمى:

وقد أروحُ أمامَ الحيِّ مُقتَنِصاً

قُمْراً مراتِعُها القيعانُ والنَّبَكُ

ويقترن الصّيد في هذه المشاهد بثلاثة عناصر متلازمة وهي الفرس، الرّمح، القطيع. فالصّيد يتمّ دائمًا من على صهوة الفرس. و"الضّحايا" هي دائمًا قطعان من الوحش. فالصّائد- الواصف لا يصيد حيواناً مفرداً إلاّ أن يتمّ ذلك عرضاً. والوسيلة المستخدمة في الصّيد في هذه المشاهد هي الرّمح لا غيره من الوسائل الّتي تظهر في غير هذه الفئة من المشاهد كالقوس والسّهام أو الأفخاخ. والمكان الصّالح للصّيد هو مكان مخصب ترتاده القطعان للرّعي وهو موضع يتحاماه النّاس إلاّ الشّجاع منهم. أمّا خير وقت يتمّ فيه الصّيد فهو الصّبح. ويصف أبو دؤاد الإياديّ كيف انتظر وصحبه حتّى تضيء لهم قطعة من اللّيل وتلوح الخيوط الأولى من الصّباح فيغدون بالفرس ضامِر الحالبين كسِوار المتهالكة على الرّجال:

...فـلـمّـا أضــاءت لـنـا سُـدفَةٌ

ولاحَ مِـنَ الصّبحِ خيطٌ أنــارَا

غـدونــا بــهِ كَـسِــوارِ الـهَـلـوكِ

مـضـطَـمِـراً حـالِـبـاه اضطمارا

والصّيد في هذه المشاهد نشاط مترف يدلّل على الحياة اللاّهية المترفة الّتي يحياها الشّاعر. فهذه المشاهد لا تعوزها عناصر الأبّهة الكاملة من مراقب "يربأ" القطعان أي يرصدها من مكان مرتفع ويستتر كالذّئب:

بَعَثنا ربيئًا قبلَ ذلك مُخمِلاً

كذئب الغضا يمشي الضّراءَ ويتَّقي

كما لا تخلو من غلام خادم مدرّب على ركوب الخيل متعوّد النّحر جريء في اللّحاق بالطّرائد عندما يبلغ الصّيد أحياناً حدّ المأزق، فهو في ذلك ينوب عن الواصف نفسه أو عن الجماعة الّتي خرجت تصطاد إلاّ في أحوال قليلة يتدخّل فيها الصّائد الواصف حين يخفق غلامه فيوجّه إليه نصائح تتعلّق بكيفيّة الصّيد ومعاملة الفرس. أمّا دور الشّاعر فلا يتعدّى الجلوس بين صحب يتساقون تحت ظلال البُرودِ ويتمتّعون بالغناءِ واللّحمِ مشويّاً ومطبوخاً في القدور يذكر الأعشى:

وظَلِلنـا بـيـن شــاوٍ وذي قِـدرٍ

وســاقٍ ومُسمِــع محفـــالِ

واقتران الفرس بمشاهد الصّائد - الواصف له ما يسوّغه. فإنّ الصّيد وسيلة للّهو والتّرف لا يكتمل إلاّ بوجود الفرس. فالفرس رمز للغنى ورهافة العيش. واقتناء الجياد كان حكراً على الفئة الغنيّة المقتدرة.

مشاهد الصّائد- الموصوف

في هذه الفئة من المشاهد تختفي صورة الصائد - الواصف اللاّهي المترف لتظهر صورة الصّائد المحترف الّذي اتّخذ الصّيد مهنة يعتاش منها. فهو إمّا يصيد لغيره من المترفين كما مرّ، وإمّا يصيد طلبًا للقوت. على أنّ صورته تكاد تكون دائماً واحدة في الحالتين. فهو فقير قشف أغبر قصير العظام ضئيل قد يبس جسمه من الضّرّ وشدّة الحال مشقّق اللّحم غائر العينين. يقول أوس بن حجر:

صدٍ غائرُ العينين شقّقَ لحمَهُ

سمائمُ قيظٍ فهو أسود شاسِفُ

وثياب هذا الصّائد تدلّ على ما يعانيه فهو لبّاسٌ الخلق من الثّياب لا يملك غيرها كما يقول أبو ذؤيب الهذليّ:

يُدني الحَشيفَ عليهِ كي يواريَها

ونـفـسَـه وهــو لـلأطـمـارِ لـبّـاسُ

ولذلك فهو يتحسّبُ للإخفاق وتضطرب نفسُه إذا قُدِّرَ له أن يعود بلا صيد. ويزداد همّه حين يطلب الصّيد ليقيم به أود زوج وأولاد عوابس ضامرين كاليعاسيب يرتقبون عودته. يقول بشر بن أبي خازم الأسديّ:

أبو صبية شُعثٍ تُطيفُ بِشَخصِهِ

كوالِحُ أمثالُ اليعاسيبِ ضُمَّرُ

وقد تميّز الصّائد في كثير من الأحيان بالاسم والنسبة كمسعود بن سعد ومشجّعة الجرمي وغيرهما. وفي صيد الثّيران نجد أنّ المحترفين لذلك ينتمون إلى جديلة أو لحيان أو ثعل أو بني أسد أو فقيم أو نبهان أو أنمار أو الغوث. وقد اقترن بصيد الحمر أسماء ذلاّن وعامر وصباح وجلاّن والخضر من القبائل. كما تميّز منهم عامر الخضريّ والعكراش بن ذؤيب وكعب بن سعد وابنا غمار وابنا يزيد بن مسهر وعثلب.

وتختلف طريقة الصيد في هذه الفئة جذريّاً عن طريقته في فئة الصّائد - الواصف. فالصّيد

---

(1) وهي لا تمت بصلة إلى البقر المعروف وإنَما هي حيوان أقرب إلى الغزال وتعرف بالإنجليزيّة بالـ (oryx). ويصفه الشّعراء بأنّه أبيض أخنس أسفع الخدّين حادّ القرنين موشي القوائم ضامر طاوي البطن.

(2) باحثة في الأدب العربي.

لا يتمّ بالرّماح من على ظهور الخيل بل بواسطة الرّماة المتخفّين المسلّحين بالقسيّ والسّهام والكلاب المدرّبة. كما تظهر شخصيّات جديدة في مسرح الحدث. منها النّاجش وهو الّذي يثير الصّيد ويحوشه ليمرّ على الصّيّاد بحيث لا يستطيع أن يروغ عن الوجهة الّتي يترصدّه فيها الصّائد. و هذه الوجهة تكون عادة طريقًا ضيّقًا لا تستطيع الطّريدة أن تتحوّل عنه.

وهنا يتقبّل الصّيد احتمالات مختلفة فإمّا أن تُغرى الكلاب باللّحاق به، وهنا يأتي دور المؤسد وهو مدرّبها وقد تعوّدت على أمره ونهيه، وإمّا أن يتصدّى له النّابل أو النّبالة مباشرة يرشقونه.

يقول أبو ذؤيب:

حتّى إذا ارتدّت و أقصَدّ عُصبَةً
منها وقـامَ شَـريـدُها يتَضَرَّعُ
فَـدَنـا لـه ربُّ الـكِـلابِ بِكفِّـهِ
بيِـضٌ رِهــابٌ ريشـهنَّ مـقـزَّعُ
فَـرَمـى لِيُـنـفِـذّ فـذَّهـا فأصابه
سهمٌ فـأَنـفَـذَ طُـرَّتَـيـه الـمِـنـزَع

وبالطّبع قد تكون عمليّة الصّيد مزيجاً لبعض هذه الطّرق أو كلّها. فقد يبادر النّبالة برمي السّهام حتّى إذا عجزوا أرسلوا كلابهم، وهو الأكثر ندرة، كقول لبيد:

حتّى إذا يئِس الرُّماةُ وأرسلوا
غُضفاً دواجِنَ قافِلاً أعصامُها

وأهمّ السّمات البارزة في كلاب الصّيد أنّها مسترخية الآذان سفع اللّون زرق العيون متباعدة الأطراف صغيرة الرّأس واسعة الأشداق وهي ضامرة أنحلها كثرة الإطلاق. تجوّع لتكون أضرى، مدرّبة تدريبًا كاملاً على الإغراء سريعة جسورة قويّة يستبين في نحورها وفي آذانها أثر المعارك السابّقة. فهي أقرب إلى النّحل والزّنابير أو السّهام أو الخطاطيف... و لهذه الكلاب أسماء تدعى بها حين ندائها أو نهرها أو إيسادها، ومنها زنباع وفارع وعطاف وأجبل وركاح وسائل وكساب وسخام وملحم وسلهب... وكلاب الصّيد تقلّد في أعناقها لتمسك وتطوّق بسيور من جلد يابسة "قافلة أعصامها" ولعلّ ذلك أن يكون لجفاف الدّماء عليها.

أمّا سلاح الصّيد الأساس في هذه الفئة من المشاهد وهو القوس والسّهام فالشّعر مليء بأوصافه. وهو يصنع من أنواع شجر معيّن كالنّبع أو السّدر الضّال. وهناك الكثير من التّفاصيل حول صنع القوس تفرّد في عرضها الشّمّاخ بن ضرار الذّبيانيّ.

وتوصف القوس بصفرتها الّتي يجعلها الشّمّاخ زعفراناً تذوبه نساء عطّار يمانٍ ويخزنّه: "تُميرُهُ خوازنُ عطّرٍ يمانٍ كوانِزُ" وهي ملساء زوراء مائلة الجوانب ليّنة قويّة الوسط والوتر. ويتفنّن الشّعراء في وصف صوتها فهي هتوف صوتها كعزيف الجنّ أو النّحل أو الجمر أو ترنّم العود أو ترنّم الثّكلى:

إذا أنبضَ الرّمونَ عنها ترنّمت
تـرنُّـم ثَكلى أوجَعَتها الجنائِزُ

أمّا السّهام فتصنع من الأشجار الّتي تصنع منها القوس. و يراعى في السّهم أن يكون معتدل الطّول منتفخ المتن مدمجاً دقيقاً مستوياً وقد يشرّب نصله السّمّ. و لا بدّ للنّصل أن يكون حادّاً مرهفاً عريضاً أبيض مصقولاً.

وفي هذه الفئة من المشاهد وفئة المشاهد الّتي تأتي تدليلاً على الموت، لا يكون الثّور المطارد في قطيع وإنّما يكون مفرداً. وهو بعد أن رعى فترة طويلة أدركته شدّة العطش فصام عن الأكل أيّاماً وصار همّه أن يجد الماء، ومن أجله يقوم برحلة طويلة. و تفاجئه الطّبيعة بسقوط المطر فيلجأ إلى شجرة من الأرطى يحاول أن ينكرس في جوفها فيتهيّل الرّمل تحت رجليه وتنطف عليه نقط المطر فلا يستطيع النّوم. وهو في تحرّفه وحركة رأسه يشبه الصّيقل الّذي أكبّ على السّيف يجلو صدأه:

جـنـوح الـهـالـكـيّ عـلـى يـديـه
مُـكِـبّـاً يجتلي نُـقـبَ الـنِّـصـالِ

ويطلع عليه الصّبح فيفاجئه الصّائدون وكلابهم فيبدأ بالهرب لكنّ عزّة نفسه وثقته بقرنيه/ سلاحه تردّانه إلى ساحة المعركة.

وهنا تدور معركة ما بين جائع ظامىء وجائعين فيكرّ كالمحارب النّجد فيصرع الكلاب:

يَـخُـشُّ بِـمِـدراه الـقـلـوبَ كأنّما
به ظمأٌ من داخلِ الجوفِ يُنقَعُ

ثمّ يستأنف السّعي للوصول إلى الماء. يشقّ خمائل الدّهناء كسهم الرّهان أو الشّهاب أو الشّعلة.

وفي مشاهد صيد حمر الوحش تكون الأخيرة في رحلة أيضاً لطلب الماء لشدّة الظّمأ ويتفنّن الشّعر في وصف صبرها على حزونة المناطق الّتي يجتازها القطيع "توقُّدُها في الصَّخرِ نيرانُ عَرْفَجِ" وجوّ الرّحلة المتلهّب القائظ:

إذا استقبَلَتهُ الشّمسُ صدَّ بِوجْهِهِ
كما صدّ عن نارِ المُهوِّلِ حالِفُ

ويظهر الحمار ذكراً حازماً شديد الغيرة مستقوياً على أتنه الحامل "متى ما تُخالفْهُ عن القَصدِ يُعذَمِ" "لِنابيْهِ في أكفالِهِنَّ كُلومُ" مبادراً يقودها للورد ويرتبىء لها.

وقلّما يمهل الشّاعر القطيع الوقت الكافي للريّ إذ يفاجئه الصّائد بنباله. إلاّ أنّ الحمار ينجو دائمًا وتنجو معه بعض الأتن فيشايعها في الهرب ويحميها من النّبال المشرّعة.

بين الواقع والشّعر

وفي غياب الدّليل على أنّ الثّور حيوان مفرد بطبعه على عكس الحمار الّذي لا يوجد إلاّ مع أتنه، ومع إجماع مشاهد الصّيد في فئة الصّائد - الواصف على جعل الثّور جزءاً من قطيع، يجعل غلبة انفراد الثّور و اجتماع الحمر في مشاهد الصّيد من هذه الفئة مسألة شعريّة بحتة قصد إليها الشّاعر الجاهليّ ليطوّع هذا المشهد لقدرة الحيوان الرّئيس وإمكاناته بحيث يظلّ محافظاً على صورة التّفوّق لكونه في الأساس معادلاً لناقة الشّاعر أو راحلته الّتي شبّهها به. فإذا كان الثّور الوحشيّ يمثّل البطولة الفرديّة المطلقة لأنّه مسلّح بسلاح فرديّ يمكّنه من الدّفاع عن نفسه فإنّ الحمار يستعيض عن عجزه عن القتال بعلاقته بأتنه يحقّق عليها سيطرته من جهة ويحقّق بالألفة الاجتماعيّة بينهما أفقًا جديداً: الإرهاص بالحمل والتّوالد واستمرار الحياة.

ومن السّهل أن نعلّل اختلاف مصير الحيوان باختلاف شخصيّة الصّائد. فالموت غالب في القصائد الّتي يرد فيها الصّيد في معرض رثاء لأنّ الغاية في القصيدة هو التّعزّي بتتبّع مظاهر الموت في الكائنات. كما أنّ غلبته في فئة القصائد الّتي يكون فيها الصّائد هو الواصف متوقّعة لأنّ الهدف الأساس من إيراد المشهد هو تبيان صفات الواصف أو صفات الفرس، وحسن أدائه في الصّيد هو جزء منها. أمّا نجاة الحيوان الغالب حين يكون الصّائد هو الموصوف أي حين يأتي مشهد الصّيد استطراداً لتشبيه فرس الشّاعر أو ناقته بحيوان ما، فإنّ ذلك لأنّ اهتمام الشّاعر معلّق بالحيوان المصيد لأنّه عدل للفرس أو النّاقة الّتي يصفها الشّاعر. وبموت الحيوان يفقد تشبيه راحلة الشّاعر به قيمته.

ديوان الأمس ديوان اليوم

لو كنتِ في روما معي

كنَّا تبادَلنَا الشِّجاراتِ الَخفيفة
والعتابا

والخُبزَ
والضَّحكَ المؤجَّلَ
والقصائدَ
والشبَّابا

والحبَّ تحتَ الشَّمسِ
حَيثُ الحبُّ
لا يخشَى عقابا

لو كُنتِ في «روما» معي
لو كُنتِ في «روما» معي!!
في شارعٍ يَمتَصُني
شجَناً
ويأكُلُني اغْتِرابا

جِئنا، ولم يَأتِ الطريقُ
فلا تُحبِّيني
غيابا

أنا ما عَشِقتُك شَوكَةً
حتَّى تُحبّيني عذابا
ما زارني مطرُ المحبةِ
منذ خاصمْت السحابا

لو كُنتِ في روما معي
لَفَتَحتُها
بَاباً
فَبَابَا

أحمد بخيت - القاهرة

موضوعها مشرقي مستوحى من تاريخ في العصر الجاهلي، ومؤلفها مغربي، والترحيب بها عربي عام. إنها "زهرة الجاهلية" للروائي سالم حمّيش، الصادرة عن دار الآداب في بيروت.
الناقد **إلياس سحّاب** يقدم هنا قراءته لهذا العمل المتميِّز على ضوء محتواه وأيضاً لما يمثله على صعيد التواصل بين المغرب العربي ومشرقه، وإسقاطات محتواها على حياتنا المعاصرة.

حمّيش المغربي يؤرِّخ للجاهلية بفانتازيا ساحرة

زهرة الجاهلية

هذا روائي من المغرب اخترق الحواجز التقليدية بين المغرب والمشرق، التي تحولت عند الأدباء والمثقفين المغاربة أشبه بعقدة تقليدية يتم ترددها بمناسبة وبغير مناسبة، ومفادها أن المغاربة يبالغون في تعشق الثقافة الواردة من بلدان المشرق، والاطلاع عليها بعمومياتها وخصوصياتها، ومتابعة مؤلفات كل نجومها في الرواية والشعر والقصة وسوى ذلك، بينما يبالغ المشارقة، بالمقابل، في عدم الاهتمام بثقافة المغرب ومثقفيه، إلى درجة الجهل أو التجاهل.

سالم حمّيش، روائي مغربي من جيل التسعينيات، أصدر ثمانية من كتبه التسعة في دور نشر مشرقية هي: دار الآداب ودار الطليعة اللبنانيتان، ودار رياض الريس السورية - اللبنانية، قبل أن ينتقل مركزها من لندن إلى بيروت.

أكثر من ذلك، كانت دار رياض الريس المنصة الأولى التي أطلقت الأديب المغربي في سماء الشهرة، عندما نال جائزة مجلة الناقد (التي كانت تصدر في لندن عن دار رياض نجيب الريس) للرواية، قبل أن تتولى الدار نفسها طباعة روايته "مجنون الحكم"، في العام 1990م.

أما دار الآداب البيروتية فلم تكتف بطباعة أربع روايات للروائي المغربي، بل إن إحدى هذه الروايات الثلاث المنشورة في العام 1997م (العلاّمة)، نال عنها حمّيش جائزة نجيب محفوظ للرواية العربية.


سامر معضاض

غير أن رواية حمّيش الأخيرة التي صدرت العام الماضي، "زهرة الجاهلية"، تكتسب موقعاً خاصاً في تلك العلاقة الملتبسة حتى الآن بين أدب المشرق وأدب المغرب، ومستعيدة ومستكملة تقليداً راسخاً في الثقافة العربية الكلاسيكية، عندما كان كبار مثقفي المغرب العربي والأندلس، في القرون الغابرة للنهضة الحضارية العربية الكبرى، يضعون مؤلفات أدبية وتاريخية، موضوعها مشرقي خالص (أشهرها العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي)، تعبيراً عن حنين عرب المغرب الطبيعي إلى المواقع الأساسية التي انطلقت منها الحضارة العربية والدعوة الإسلامية في المشرق.

في رواية "زهرة الجاهلية" يغوص الروائي المغربي سالم حمّيش عميقاً في جغرافية المشرق العربي وتاريخه، وكأنه يرد التحية للروائي اللبناني أمين معلوف في روايته "ليون الإفريقي".

تنتمي رواية حمّيش المغربي الأخيرة إلى ذلك النوع من الفانتازيا الأدبية التاريخية، التي تميز بها اللبناني أمين معلوف. وهي فنتازيا تنطلق أساساً من وقائع تاريخية ثابتة، ولكنها تنطلق بعد ذلك في الأفق الرحب للفانتازيا الأدبية فتخلط بين الوقائع الثابتة ووقائع أخرى متخيلة، كما تخلط بين شخصيات واقعية لها تاريخ معروف وثابت، وشخصيات أخرى متخيلة، وذلك في لون أدبي ممتع غرضه الغوص في الوقائع التاريخية لمنطقة جغرافية ما، وحقبة تاريخية ما، وصولاً إلى أعماق روح تلك المنطقة المعنية، في تلك الحقبة المعنية.

ومع أن رواية الأديب المغربي لا تتجاوز الصفحات التسعين، من القطع الصغير، فقد انطلق مؤلفها بين ثنايا وقائعها المعروفة تاريخياً، وخياله الروائي المجنح، للغوص في أعماق حياة الجزيرة العربية وثقافاتها في العصر الجاهلي الذي سبق ظهور الإسلام، منذ مطلع القرن السادس الميلادي. كما أن المؤلف لم يلجم خياله الفني عندما كان يجد في حياة العرب العامة في القرن الأخير للجاهلية من الظواهر السلبية ما يذكّر بظواهر سلبية مشابهة في حياة العرب المعاصرين. غير أن تلك المقارنات جاءت في نسيج الرواية أشبه بالقطبة الخفية فلا يعمد المؤلف في أي موقع من مواقع هذه المقارنات إلى أية إشارة مباشرة، ولكنه يعتمد أسلوب التلميح البعيد كل البعد عن التصريح (سنورد بعد هذا المقال نماذج مطولة لبعض هذه النصوص).

اعتمد سالم حمّيش لدعم فكرته الفنية على شخصية نسائية جاهلية اسمها زهرة البكرية، من قبيلة بكر بن وائل، التي هي قبيلة شاعري الجاهلية طرفة بن العبد وخاله المتلمس، ويبدو أن روايات الرواة أطلقت عليها اسم "زهرة الجاهلية" (عنوان الرواية) فشاع اسمها هذا واستقر. ويقول المؤلف إن سبب تواتر أخبارها في أسمار العرب راجع إلى كونها امرأة عمّرت طويلاً، وجربت كثيراً، وأنطقها الدهر بالكلام العميق العريق، بعضه كما ادّعت بالحرف: "من وحي الوجد وغلبته عليّ".

"تيتمت زهرة وهي دون العاشرة، إذ مات أبوها بسهم طائش أثناء حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب، ولحقت به أمها، بعد اشتداد غم الحداد عليها. كان لها من الحسن نصيب وافر، متوسطة القد والوزن، كثيفة الشعر، في عينيها الواسعتين سحر، وفي صوتها رقة ونغم".

رواية من المغرب تخترق الحواجز التقليدية بين المغرب والمشرق وتستعيد وتستكمل تقليداً قديماً في ثقافتنا الكلاسيكية

بعد مأساتها الأولى بوفاة والدها ووالدتها وهي طفلة، تعرضت لمأساة ثانية عندما توفي خالها الذي تولى رعايتها، وهي الوفاة المدونة في روايتين مختلفتين، تقول الأولى إنه بعدما نفقت الناقة التي كانت تقلهما، انتابت الخال حمى فادحة ماحِقة، فطلب من زهرة أن تنجو بنفسها وألقى بنفسه في مياه البحر الأحمر. أما الرواية الثانية، فتقول إن زهرة اضطرت إلى "معاركة الرجل وقتله بحجر.. ثم احتمت بقافلة من الحجاج نقلتها إلى مكة، ثم بقافلة تجار حملتها إلى ظاهر يثرب، حيث قضت أياماً مختبئة وراء أطلال بيت أبويها الدارس من كثرة إلحاح الريح والمطر عليه، فلما فقدت صبرها وأنهكها الجوع، خرجت إلى قبيلتها بشعر مشعث وجسم ضامر، فأخذها شيخ عجوز جارية في منزله (...) وبعد أيام عاودتها العافية (...) واسترجعت اهتمامها بذاتها وحرصها على النظافة والتزين الخفيف".

بعد هذه البداية المأساوية، يدخل المؤلف بهذه الشخصية في أعماق عادات وتقاليد وأحداث ومعتقدات العصر الجاهلي، بأسلوب فني أخاذ يراعي روح ذلك العصر، حتى في صياغة أسلوبه اللغوي، باقتدار وجمال.

إلى جانب الشخصية الرئيسة في الرواية (زهرة)، يبتكر المؤلف شخصية "شيخ هائم ضال، يبحث عن ربه آناء الليل وأطراف النهار" اسمه أبو القرني، ويلقبونه تفضلاً أو تجاوزاً بـ "الغوث". هذه الشخصية تظهر لزهرة في بعض لحظات الضيق، لتغيثها ثم تختفي. بعد ذلك، تقترن زهرة بأعرابي خدعها حسن صورته، ولكنها تكتشف فيه لاحقاً الشراسة وجلافة الطبع.. تزوجته وأنجبت منه فتاة فائقة البشاشة والصحة. لكن زواجها التعس ينتهي بقيام الزوج بوأد ابنته، على عادة أهل الجاهلية.

مع شعراء الجاهلية

ينطلق المؤلف بعد ذلك إلى أعماق العصر الجاهلي. من خلال ابتكاره شبكة من علاقات متخيلة بين بطلة روايته "زهرة" وخمسة من أشهر شعراء الجاهلية، وفقاً لتسلسل ظهورهم على مسرح الحياة أو خروجهم منه. يبدأ بالمهلهل (531م) ثم أمرئ القيس (540م) ثم طرفة بن العبد (564م) ثم المتلمس (569م) ثم عنترة بن شداد (525 – 615م)، مع ذكر عابر لشاعر جاهلي آخر من الصعاليك هو الشنفرى من أوائل القرن السادس.

– من خلال علاقة زهرة بالمهلهل تعرض الرواية لجلسات أدبية كان يخصصها المهلهل للنساء، في خيمة له بواحة في غرب مكة، مفروشة بالحصائر والقطائف، يجلس فيها متجملاً متعطراً مع أنه كان قد بلغ من العمر عتياً، حيث روي "أن للمهلهل في الزينة مذهباً، وفي معاشرة النساء قصصاً، حتى لقب بالمتزين، ولقب بالزير أيضاً، متبوعاً باسمه الصغير سالم".

ثم يروي المؤلف كيف كانت القبيلة تغفر للمهلهل غزواته تلك "لقاء أن ينطلق لسانه ويذلق في تعليم العيال والبنات بطولات تغلب في حرب البسوس، وانتصاراتها المظفرة على بكر بن وائل". ويتخذ المؤلف من ديوان المهلهل مسرحاً يروي من خلاله أخبار ابن اخته (امرئ القيس) وأشهر حكايات المجتمع الجاهلي وعاداته وقيمه في زمن تداخل اليهودية بالمسيحية بالوثنية. وتنتهي علاقة زهرة بالمهلهل بعد أن يكمل المؤلف الاستغلال الفني لتلك العلاقة في سرد وقائع شاملة من مختلف جوانب حياة المجتمع الجاهلي، بنفور زهرة الجاهلية من جرأة المهلهل الطاعن في السن، في مغازلتها.

– يبدأ المؤلف سرد العلاقة بين زهرة وامرئ القيس باحتمالين: تسللها إلى خبائه، أو تسلله إلى خبائها، في إشارة مقصودة لطبائع ذلك العصر. أما هدف العلاقة فيحدده المؤلف برغبة زهرة في أن تشكو لامرئ القيس خاله المهلهل. ثم ينطلق ليعرض من خلال تلك العلاقة الجديدة تفاصيل ما كان يميز الذكر عن الأنثى في المجتمع الجاهلي، إضافة إلى تفاصيل العلاقات الزوجية. ثم تعرّج الرواية بالطبع على رحلة امرئ القيس التي قصد فيها قيصر الروم طلباً للثأر لأبيه الملك واسترداد ملكه في عرش كندة، ثم موته بوباء الجدري في أنقرة حيث دفن، ويغتنم المؤلف

هذه القصة التاريخية الحقيقية لإدانة فكرة دعم السلطة السياسية من الخارج.

– علاقة زهرة بطرفة بن العبد، يطرحها المؤلف ليعرض الحياة البوهيمية التي عاشها ذلك الشاعر الذي وصل إلى ذروة نبوغه الشعري (أحد شعراء المعلقات) برغم عمره القصير (538 – 564م)، ويعرض لنقاش فكري غني بين زهرة وطرفة بن العبد في شؤون ذلك العصر وشجونه. ولعل أعمق مقاطع ذلك الفصل من الرواية، تعريض طرفة بن العبد بهشاشة وسطحية المنافسة السياسية والمنافسة الثقافية في عصره (يستخدمه المؤلف في إسقاط واضح على عصرنا الراهن) فيروي عراكاً بين شويعرين، تبارزا لأن كلاً منهما لم يعترف للآخر بأنه وحيد زمانه في الشعر، ثم ينتقل من مجال الشعر، ليعمم نظرته إلى زمانه (وزماننا) بكل قيمه الثقافية والسياسية، فيقول المؤلف على لسان طرفة:

زهرة شخصية تاريخية والشعراء الذين اتصَلت بهم كذلك ولكن الأحداث متخيلة

"عبثية أيامنا، يا زهرة الأزهار، وحروبنا الدامية الدامسة، كعراك الشويعرين، طرر وترّهات في بقاع لا نسغ لها ولا مجد.. إنا هنا بين السهول والهضاب، نسكن أو نترحّل متعيشين، ونحشو دنيانا بالآلهة والغيلان والمردة، وبأوهام أخرى، عسانا نلهو عن غربتنا في الكون، أو ترتفع عقيرتنا بالتضرع والشكوى أمام طاغوت الفراغ المؤبد".

– بعد ذلك، تنتقل علاقة زهرة من طرفة بن العبد، إلى خاله المتلمس، في مواصلة فنية رفيعة، لعرض طبيعة الصحراء العربية وطبيعة حياة مجتمعاتها في العصر الجاهلي.

– أما عنترة بن شداد، فلا تتعرف إليه زهرة إلا في شيخوخته (عمّر تسعين عاماً كما تقول المراجع)، فتكون العبارة الأولى على لسان زهرة عندما تقابل عنترة أول مرة: "ألست أنت عنترة بن شداد العبسي، أو ما تبقى من عنترة؟". ويتركز حوار الاثنين بعد ذلك في شرح عنترة لما أرادت زهرة أن تعرفه عن غرامه بعبلة، وعن دور "التفريق الجلدي" (التعبير الفني عن "التمييز العنصري") في استحالة ذلك الغرام، ويتخذ المؤلف مدخلاً فنياً رائعاً لذلك الحوار، يستند إلى أشهر أبيات عنترة في التغزل بعبلة والتعبير عن عشقه ووجده:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
مني، وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت، كبارق ثغرك المتبسم

ويتحول موضوع التمييز العنصري في كل العصور إلى موضوع أساسي للحوار بين زهرة وعنترة. بعد هذه الجولة الشاملة العميقة الأغوار التي يقودنا سالم حمّيش فيها عبر علاقات زهرة الجاهلية لخمسة من كبار شعراء الجاهلية (ثلاثة منهم من شعراء المعلقات)، يختم جولته بلوحة فنية رائعة امتدت على أربع صفحات ونصف، في خاتمة روايته، تختلط فيها الصور الفنية الرائعة، بخلاصة فكرية يحاكم المؤلف من خلالها الجاهلية العربية في عصرها القديم، كما في كل عصر.

الدكتور بنسالم حمِّيش

- اشتهر باسم سالم حمّيَش.
- من مواليد مكناس بالمغرب في أغسطس 1949م.
- تلقى دراسته العليا في الفلسفة وعلم الاجتماع في الرباط أولاً ثم في باريس حيث حصل على شهادة الدكتوراة في الفلسفة من جامعة السوربون سنة 1987م.
- كاتب ومؤلف بالعربية والفرنسية كما يجيد الإنجليزية والإسبانية واليونانية.
- له أعمال عديدة في البحث التاريخي والفكري والفلسفي، وأخرى في الإبداع الشعري والروائي.
- نال جائزة مجلة "الناقد" عام 1990م على روايته "مجنون الحكم" التي اختارها اتحاد كتاب مصر ضمن أحسن روايات القرن العشرين. وترجمت إلى الإسبانية والفرنسية والإنجليزية. كما حصل على جوائز عربية عديدة منها جائزة نجيب محفوظ عام 2002م، وجائزة الأونيسكو سنة 2003م.
- عضو في مكتب اتحاد كتّاب المغرب.
- يعمل حالياً أستاذاً للفلسفة في جامعة محمد الخامس.



... من زهرة الجاهلية

صفحة 54 - 55:

قالت زهرة: شكراً لك يا قيس وبورك فيك! وقوفك إلى جنبي ينعشني حسّاً ومعنى، واستقبالك لوعكات وجودي يبدِّد أوجاعي ويحيي آمالي. فيا لك من شاعر يعرف كيف يقلِّد رؤوس الثكالى بأكاليل الفرج والرجاء! أما عن أتعس اللحظات مع الأجلف، وهي كثيرة، لن أثقل عليك بذكرها مفصلة. فتقبل منِّي ما في أحداثها روّعني وهدَّ رأسي وكياني... في اليوم الذي تيسَّر لي خلاله الوضع بعد حمل أليم مرير، خرجت منِّي صبية تشبهني إلى حدّ كبير، فاعترتني فرحة جامحة بقدر ما امتلأ زوجي تطيُّراً مما وًضعت ونفوراً ما بعده نفور. ولم يمض شهر حتى أقدم الوغد على وأد مولودتي بعد أن كمّمني وكبّلني، وواراها التراب في مكان خفيّ ما زلت أجهله وأنشده. فتصوَّر يا قيس كلاكل غمتي وحافة اندحاري وقد بتُّ أجرجر الحياة فيّ، وطيفُ طفلتي الموؤدة يلازمني ويدميني في يقظتي ومنامي، وتصوّر أن لا أحد من العرب حرّك ساكناً، أو أتى يواسيني ويعزِّيني. فكيف لي أن أحيط العرب بمحبَّتي وأحطّهم محطّ افتخاري...

صفحة 58:

ومرَّت الأيّام والليالي، والمرأة في جحيمها الجاهليّ لا تعيش إلاّ على أمل رجوع الملك الضلّيل إلى عرشه وإليها. وكان وقتذاك أن بعث إليها القرني رسولاً أسكنها في غارٍ منيع، قريبٍ من أطلال بيت طفولتها. وهنا انطوت على نفسها وتقوقعت، مكتفيةً بالقوت الزهيد الذي أمستً تجود به علًيها يدٌ خفية، لا ريب أنَّها يدُ الولي المعمّم. وبينما هي على حالها لا تطلب من الحياة إلاّ الغيبوبة والهدأة بعد أن دوَّخها سراب الانتظار، إذ أتاها خبر موت زوجها متأثِّراً بشظية تلقاها في رجله بعد أن رفست جمجمة الشنفرى، فلم تقو المرأة إلاّ على الهمس بكلمات مفادها أنَّ هذه الميتة على هذا النحو لهي حقّاً من تدبير السماء، وأنَّ مقاطعة الحزن والحداد بهذه المناسبة واجب عليها... ودخل على المرأة رهط من الشعراء يسألونها عمّا هي فاعلة الآن وقد ترمّلت واحتدَّ الطلاق بينها وبين عرب هذا الزمان، فقالت: "إنّي حقّاً في خصام مرير مع عصري، لكنّي عامرة بالأمل في أن تبرز في هذا الليل العربيّ البهيم وجوه مشرقة تجذب الناس إليها، وتنفخ فيهم روحاً نورانية تنشئهم نشأً آخر". وذهب الشعراء بالجواب مكتوباً على سعف النخل، كأنَّهم يريدون نشره بين القبائل أو تضمينه أبيات القصائد.

صفحة 72 - 73:

مضى شهر فآخر، وفي غرة الثالث أقدم على المرأة في غارها رجل يُدعى المتلمِّس، فسلَّم ونعى إليها طرفة، واصفاً كيف قُتل غيلةً على الطريقة المحفوظة في ديوان العرب.

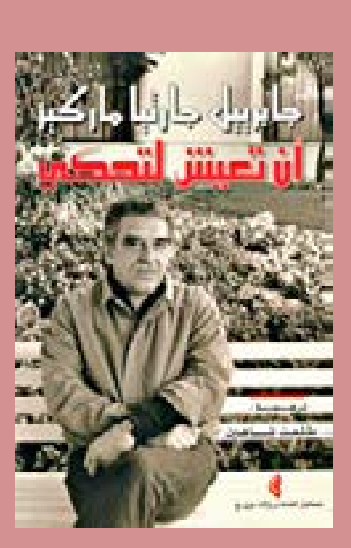
قال: أنا المتلمِّس، خال طرفة ورفيقه في الطريق إلى البحرين. قصدنا معاً هذا البلد وكلانا متأبِّط كتاباً من ملك الحيرة، عمرو بن هند اللخمي، إلى عامله هناك، يأمره فيه بإحسان مثوانا وإغداق الهبات والمال علينا. لكن ما إن أوشكنا على إكمال السفرة حتى اعتراني ريب شديد في مضمون كتابي ففتحته، فإذا فيه أمر بقتلي، فولّيت راجعاً بعد أن يئست من حثّ طرفة على فضّ كتابه والاطلاّع عليه. وقد علمت بما أُخبرك الآن به: إنَّ طرفة قد قتل على يد عامل جديد استعمله عمرو بن هند بعد أن رفض السابق تنفيذ ما في الكتاب لقرابة تجمعه بالمُوصَى به...

لم تنبس زهرة بكلمة، بل انزوت في عقر غارها، وطلبت من المتلمِّس أن يتركها ولا يخبر عنها أحداً. ولما انفردت أخذها نعاس ناعم سرعان ما انتظم في حلقات رؤى ثأرية شديدة متلاحقة:

فقد رأت أنها تحوّلت إلى حورية تمارس في حق عتاة العصر الإغراء والجذب، ثم تقتل كل ساقط في شباكها بخنجر شديد الطعن...

ورأت الصحراء تزحف رمالُ كثبانها وسهولها على كلّ أخضر وكل حيّ... ورأت السماء تمطر أوحالاً كحلاء، وسيولاً من القطران والكبريت والدم... واعتورت حلقاتِ نوم المرأة رؤى أخرى أفدح وأعتى...

إقرأ للأدب



مذكرات ماركيز

...والحياة عند كاتب الرواية الكولومبي الأشهر في أمريكا اللاتينية، غابريل غارثيا ماركيز "ليست ما عاشها الواحد منا"، كما يقول في أكثر كتبه إثارة لشوق القراء "بل ما يتذكرها وكيف يتذكرها ليحكيها".

في سيرة حياته يكشف ماركيز أصداء وظلال شخصيات وحكايات تسكن أعمالاً روائية له مثل "مائة عام من العزلة"، "والحب في زمن الكوليرا"، و"الكولونيل لا يجد من يكاتبه"، و"وقائع موت معلن"، الأمر الذي يجعل من رواية "أن تعيش لتحكي" رفيقاً لا غنى عنه لمشاهد لا تُنسى من رواياته الخالدة.

لم يكن أحد يتوقع أن يقوم الكاتب الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 1982م بكتابة مذكراته الشخصية وإصدارها، لأنه لم يكن معروفاً عنه أنه يميل إلى ذلك النوع من الكتابة، إذ كان يعتبر دائماً أن رواياته هي إعادة كتابة لحياته التي عاشها، وخصوصاً ذكرياته خلال الطفولة التي قضاها في بيت جده "الكولونيل" الذي قضى عمره في انتظار رسالة حكومية تشكره على شجاعته، وتكافئه على حسن بلائه من أجل الوطن براتب مالي يقيه شر الحاجة. لكن عندما وقف الكاتبٍ أمام جمهور مهرجانٍ كبير في المكسيك قبل سنوات ثلاث؛ ليقرأ صفًحاتٍ كتبها عن حياته الخاصة أذهل الحضور، فأوضح أن ما رواه ليس سوى كتابات قرر أن يسجِّل فيها أشياءً خاصة بحياته، حسب ترتيبها التاريخي. ويقص في هذا الجزء الأول بعضاً من حياته منذ قرر امتهان الكتابة ليتوقف في العام 1955م أي عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره.

الجزء الأول من مذكراته بقي سراً طوال 13 عاماً. غير أن ماركيز خرج عن صمته بعد قراءة ذلك الفصل في المكسيك؛ ليصرح أنه يكتب مذكراته. وكان خلال فترة الصمت كتب روايتين "الجنرال في مصيدته" و"الحب وشياطين أخرى"، ومارس الكتابة الصحافية وتابع أحوال الصحافيين، وما كانوا يتعرضون له على أيدي تجار المخدرات والجماعات المسلحة، وأنتج رواية ثالثة.. هي "نبأ اختطاف".

كان لاكتشاف ماركيز إصابته بمرض السرطان عام 1999م أثر في تراجع نشاطه السياسي المحموم، وتحوله إلى مصارعة المرض. وحاول من خلال نشر الفصل الأول من مذكراته في صحيفة "البابيس" الرد على من أشاعوا خطورة وضعه الصحي. وفي هذا الجزء تناول ذكريات رحلته الأولى إلى قريته "بارانكيا" لبيع منزل الجد القديم، ودورِ أمه في تخفيف وقع اتخاذه من مهنة الكتابَة حرفة لكسب عيشه، على الأب الذي كان يحلم له بمستقبل أفضل له من مهنة يعتبر أنها لا تجلب سوى الشقاء لصاحبها.

مذكرات ماركيز صدرت في العام 2002م في طبعة من مليون نسخة تم تقديمها في كل من برشلونة (إسبانيا) وبوغوتا (كولومبيا) ويونيس ايريس (الأرجنتين) ومكسيكو (المكسيك) في وقت واحد، بعدما كان الكاتب أعاد صياغتها مخفضاً عدد الصفحات من 900 إلى 596 صفحة فقط. ولا أحد يعرف ولا حتى الكاتب نفسه عدد الأجزاء التي ستصدر لاحقاً لاستكمال هذه المذكرات.

والرواية المذكورة ترجمها إلى اللغة العربية الدكتور طلعت شاهين وصدرت عن دار "سنابل للنشر والتوزيع" - مصر 2003م.

قول آخر..

«استقبال الآخر» هو عنوان كتاب يعده حالياً الدكتور سعد البازعي.

الآخر هو الغرب. أما الاستقبال، فيوضح الدكتور البازعي أنه اعتمده لازدواجية في المعنى تجمع ما بين فتح الباب أمام الوافد أو ملاقاته، والمعنى الفقهي وهو التطلع صوب القبلة، أي جعل الغرب قبلة توجهنا. هذه الإشارة وردت في المحاضرة التي ألقاها المؤلف مؤخراً في نادي المنطقة الشرقية الأدبي، وتركز موضوعها على أطروحة الكتاب، ألا وهي علاقتنا بثقافة الغرب وأشكال تفاعلنا معها.

السؤال ليس جديداً. طرحه المثقفون العرب منذ عصر النهضة في القرن التاسع عشر. وتفاوتت أجوبتهم ولا تزال تزداد تفاوتاً وهروباً إلى الأمام مع تأزم أوضاع ثقافتنا المعاصرة. ما استوقفنا في محاضرة الدكتور البازعي كان العمق الذي تناول فيه مختلف الأطروحات عند النقاد العرب، ودقته في تحليل وتقييم كل منها في مكيال بالغ

«استقبال الآخر»

الحساسية، نابع من توازنه الرائع بين الانفتاح على الثقافات الأخرى والحفاظ على الخصوصية المحلية. ومثل هذا التزاوج بين احترام الأصالة المحلية والانفتاح الواعي على الآخر بات اليوم خشبة الخلاص الوحيدة للخروج بالثقافة العربية من تمزقها الحالي بين متغربين منسحقين أمام الآخر من جهة، ومنغلقين على أنفسهم يعتقدون أن الحضارة برمتها بدأت وانتهت بهم من جهة أخرى.

الأطروحات التي ناقشها الدكتور البازعي باختصار في محاضرته (ويناقشها بتوسع في كتابه المرتقب)، تبدأ بأكثرها تعقيداً عند شكري عيّاد ويمنى العيد وجابر عصفور وغيرهم.. وتنتهي بأبسطها وهي القائلة «بوجوب أن نأخذ من الغرب ما يفيدنا ونترك ما لا يفيدنا». وقد أشار الدكتور البازعي إلى هذا الكلام وعلى وجهه علامة ضيق من بساطته وسهولته، إذ أنه لا يعني شيئاً محدداً عند الانتقال إلى التحديات الفعلية. وهو في ردة فعله على حق. وهنا نغتنمها مناسبة لإضافة قول آخر.

إن الأخذ عن الثقافات الأخرى أو التفاعل معها، لا يمكنه أن يكون سليماً إذا جاء بقرار. فكل عمل أدبي أو فني يستحق فعلاً هذا الاسم، هو نتيجة همّ أو اهتمام معين. فعندما يكون هذا الهم أو الاهتمام واحداً عند ثقافتين مختلفتين فلا بأس في أن تستفيد إحداهما من تجربة الآخرى. أما في حال اختلاف الهم أو الاهتمام، فإن تبني أسلوب تعاطي الآخر مع همّه الخاص به لن يؤدي سوى إلى هدر الطاقات عبثاً على أعمال لا يمكن أن يكون لها أي مكان أو مكانة. خاصة وأن الهم العام أو الاهتمام العام لا يمكن استيراده، إنه خاص بكل مجتمع وإن تكرر في مجتمعات عديدة في بعض الأحيان. وهذا ما يفسر محاصرة بعض النتاجات الثقافية الغارقة في تغربها المجاني في دوائر متناهية الصغر، تعجز عن الخروج منها إلى من يفترض أن تكون موجهة إليه.

وماذا عن العالمية؟

منذ ظهور الدراسات الأولى حول اجتماعية الفن والأدب في القرن التاسع عشر، ردد الكثيرون (وربما الآلاف) من الفنانين والأدباء والنقاد بأنه لا يمكن الوصول إلى العالمية إلا انطلاقاً من البيئة المحلية المحددة بدقة. وهذا الحكم لم يأت من باب التكهن أو التبشير، بل نتيجة نظرة شاملة إلى تاريخ الأعمال التي نسميها اليوم عالمية. فعبقرية الناقد أو الفنان تكمن في مواجهة الهم أو الاهتمام المحلي ومعالجته بشكل قابل للإسقاط على اهتمامات إنسانية عامة. المدهش هو أن السؤال لا يزال يطرح عندنا وكأننا أول من فكر فيه..

عبود عطية



سرّ المدينة وسحرها!







محطات في تاريخ المدينة:
8000 ق.م. أول مدينة محميّة بسور في أريحا
6500 ق.م. أول استخدام لأدوات معدنية في الشرق
5000 ق.م. بداية الاستيطان في دمشق أقدم عاصمة في العالم

"كانت باريس منظر بهيج وساحر، وخصوصاً في ذلك النهار، عندما تراها من قمة أبراج «نوتردام» تحت الشعاع الأول لفجر أحد أيّام الصيف. على الأغلب في أحد أيام يوليو. السماء زرقاء صافية. وضوء نجوم متلكئة يخف تدريجياً في بعض النقاط، كانت إحداها شديدة اللمعان في الشرق، في المنطقة الأكثر إشراقا من السماء. الشمس على وشك الظهور؛ وباريس قد بدأت تحرك. بفضل ذلك الشعاع شديد البياض والنقاء، تراءى للأعين بوضوح شديد مناظر كونتها آلاف البيوت من ناحية الشرق. وكان الخيال العملاق لهذه الأبراج يثب من سطح إلى سطح، ومن أحد أطراف تلك المدينة العظيمة إلى طرف آخر. وقد بدأ يسمع الضجيج وبعض الأصوات من عدة أحياء".

فيكتور هيجو
من رواية أحدب نوتردام

تقف على رصيف .. تمرّ من تحته شبكات مياه وكهرباء وهاتف وصرف صحّي، لكنك لا تشعر بوجودها، تماماً كما لا يشعر الإنسان بجريان دمه وحركة حواسه ونمو شعره! أمامك الشارع المنتظم فيه إشارات ضوئية وعلامات عبور إلى الرصيف الآخر. وعلى هذا الرصيف أبنية، على مستوى نظرك تصطف محلات قد يكون فيها اللحّام والخبّاز والصيدلي والبقّال وبائع الثياب والعطّار. ثم هناك مزين الشعر والمكتبة وغيرها مما يلبّي حاجات الناس اليوميّة.

تمر أمامك العربات بأشكالها المختلفة والسيارات الخاصة، سيارات الشحن ووسائل النقل والدراجات والعربات المحملة بمختلف السلع. وبقربك على الرصيف غرفةٍ هاتف عام وصمّام بارز لمياه الإطفاء. وإلى كل ذلك أُضيف اليوم أجهزة الصرّاف الآلي وماكينات لبيع المشروبات والمأكولات. أما إذا عبرت الطريق إلى شوارع أخرى تمر أمام المطاعم والمقاهي ومراكز الشرطة والأبنية الحكوميّة والمصارف ومكاتب الشركات حتى تصل إلى المسارح والمكتبات العامة والفنادق، ناهيك عن المتنزهات والملاعب الكبيرة والمدارس والجامعات والمستشفيات. كل هذا تعطيك إيّاه المدينة في مسافة قد لا تتعدى كما يقال بالمثل العامي "رمية حجر"، أي السير على الأقدام لمدة وجيزة أو في أسوأ الأحوال رحلة قصيرة في سيارة أو وسيلة نقل عام.

سر المدينة هو في قرب الخدمات من بعضها. وهي التي قامت في الأصل كي تكون مركزاً لتبادل الحاجات والخدمات بحيث يسد الإنسان كل حاجاته ومتطلباته مقابل ما يقدمه من جهد منتج. إذا كان السر في توفّر الحاجات والسهولة في تحقيقها هو من أسرار انجذاب الناس إلى المدن، فلها إضافة إلى ذلك سحراً عجيباً.

سحر الازدحام

سحر المدينة هو أولاً في الازدحام نفسه. ففي حركته وضوضائه جاذبيّة آسرة للنفس البشريّة، إضافة إلى أنه انخراط في الكثرة وشعور بكونك جزء من جسد شديد الحيويّة، قوي النبض ثري في تنوّعه وسرعة تغيّره. ولكل ازدحام في المدينة طعمه الخاص. فهناك ازدحام توجّه الناس إلى أعمالهم ومدارسهم وجامعاتهم في الصباح، وازدحام عودتهم إلى المنازل والخروج مجدداً إلى المطاعم وأماكن الترفيه، وازدحام المباريات الرياضيّة والمهرجانات والاحتفالات وغيرها.

من وَسط هذا الازدحام تراك تَصل إلى مقعد هو بدوره عمق هذا السحر... فضوضاء الازدحامِ العام والعارم تعود وتنتظم لتأخذ أشكالاً جديدة ضمن قاعة المطعم أو المقهى أو المسرح والسينما أو ساحة الملعب الرياضي.

هذا هو سحر المدينة الذي لا يخبو، بل يشتد توهجّه كلما كانت المدينة أعظم شأناً وأشد حيويّة وبهجة. والحياة في المدينة المعاصرة تندفع إلى وسطها وتخرج منه مرتين يومياً.. مرّة في النهار ومرّة في الليل.

ليل المدينة ونهارها

ليل المدينة غير نهارها. ففي نهار المدينة أقسام واضحة، أما ليلها فواحد. هناك فجر المدينة.. وفجرها قصّة. وهناك صبح المدينة. وصبح المدينة قصّة أخرى.. ثم هناك ظهر المدينة حين يصل صخبها إلى ذروته ثم يبدأ بالتلاشي رويداً رويداً عند المغرب، لتأخذ إجازة قصيرة قبل أن يبدأ ليلها. نور النهار غير أضواء الليل. نور النهار صريح وأضواء الليل مريبة غامضة وهي علامات وإشارات ودعوات يجهلها النهار.

...أما فجرها

ولفجرها نوره وناسه. الفجر الصامت الهادئ تخترقه أصوات قليلة وواضحة. إنها أصوات أناس آخرين لا يراهم غيرك والفجر. منهم شراذم أهل السهر المتأخر الذين خرجوا لتوهم مع إقفال الملاهي لأبوابها ليتسكّعوا إلى مقهى أو ملاذ آخر. ومنهم فئات كادحة تهيئ للمدينة يوماً جديداً. مزارعون يحملون محاصيل اليوم في سيارات أو عربات لا ترى شبيهاً لها أثناء النهار، إلى المطاعم والباعة. ومثلهم صيّادو الأسماك وبائعو الزهور، وإلى جانبهم أصناف من العمالة التي تبدأ عملها وتنهيه قبل أن تصحو المدينة، وكأن المدينة ربة بيت مدللة تُهَيَّأ طلباتها باكراً. وبين الفجر وساعات الصباح الأولى تتغير حال المدينة كل دقيقة. فما إن يُنهي روّاد الفجر دورتهم، حتى يحين وقت إنصراف موظفو الأعمال المبكرة وطلاب المدارس البعيدة. ثم يزداد الازدحام بموظفي الأعمال العادية، إلى أن يأتي موعد دوام المديرين وكبار المسؤولين.. فإذا حلت التاسعة يكون نصاب العمل النهاري قد اكتمل.

مدينة المال.. ومدينة الفكر والفن

تتسابق المدن لاحتكار ما استطاعت في ميداني المال والفكر.. ولهذا يُشَدّ الرحال إلى المدن، فإلى جانب التجار ورجال الأعمال، هناك الأدباء والفنانون من فن العمارة حتى الرسم والموسيقى والغناء. وقد عرفت بعض المدن بنوع واحد من الفنون وغدا كأنه حكر عليها.. باريس الرسم والفنون الجميلة والأزياء.. وفيينا الموسيقى الكلاسيكية.. والقاهرة للموسيقى العربية.. ونيوأورلينز موسيقى الجاز ولندن الفروسية والخيل.. وأمستردام عاصمة الزهور.. وبعض المدن شجعت الفكر والتيارات الفلسفية وبعضها اعتبرت عواصم للأديان والمعتقدات. وبعض المدن تستعيض عن ذلك بمهرجانات واحتفالات موسمية ومعارض، مثل الريو دي جينيرو وفرانكفورت وصولاً إلى دبي بمهرجانها المعروف.

كانت مقاهي المدن ملتقيات لتبادل الأفكار والميول والإتجاهات، وبعض أعظم فلاسفة العصر الحديث وأدباؤه ارتادوا مقاهي أصبحت أشبه بزوايا الطرق..

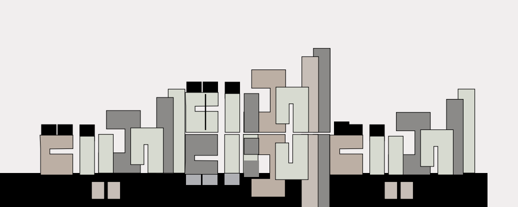
مدينة الضيف ومدينة المُضيف

تختلف نظرة الزائر إلى المدينة عن نظرة أهلها لها، فقد يحب ما يكرهون ويكره فيها ما يحبون. وقد أصبح لدى زائر اليوم رغبة عميقة في أن يكتشف أسرار المدينة التي يزورها، وأن يتعرف إلى ما هو خلف "الوجبة السياحية" التي تقدم له ولأي سائح آخر. وتراه يحرص منذ وصوله على البحث عمّن يدله إلى "المدينة الحقيقية"، مدينة المُضيف لا مدينة الضيف، مدينة المقيم لا مدينة الزائر العابر. يريد أن يذهب إلى "أحيائها غير السياحية، ومطاعمها غير السياحية، بل وأن يتعرف إلى أهلها غير السياحيين". ومما يشبع رغبته تلك أن يُدعى إلى بيت عادي، ويأكل وجبة تعدّها أم لأولادها. فيشعر عندها أن المدينة أكرمته وائتمنته على أسرارها وفتحت له أبوابها بالفعل!



المحترف السعودي

مدينة التوقعات الكبيرة



4300 ق.م. أول مدينة في العالم: أوروك، العراق ● 3400 ق.م. ظهور الكتابات في بلاد العراق القديمة ● 3300 ق.م. ظهور المدن على ضفاف النيل

يستغرب المرء أحياناً أن فلاسفة عصور غابرة حاولوا وضع تصور للمدينة الفاضلة بدءاً بأفلاطون، الفيلسوف اليوناني في كتابه "الجمهورية". منهم كذلك الفيلسوف العربي الشهير أبو النصر الفارابي الذي رسم رؤاه لهذه المدينة "التي يقصد الاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تُنَال بها السعادة" ويقول "فالانسان محتاج في معاشه وشؤون حياته إلى أشياء كثيرة، غير أنه ليس بقادر على توفيرها بمفرده". ومن أهم ما ورد على لسان الفارابي أنه يحدد للمدينة حداً أدنى من الحجم. و يرى أن الخير والكمال الأقصى إنما يُنَال "أولاً" بالمدينة، لا بالاجتماع الذي هو أنقص منها، على هذا تكون المدينة هي أصغر وحدة سياسية يمكن بالاجتماع فيها أن يبلغ الإنسان سعادته المأمولة".

لا شك أن العصور القديمة قد شهدت مدناً عظيمة بعضها نما وتوسع حتى كاد يشبه المدن المعاصرة. ومن أقصى الشرق إلى الغرب من الصين والهند إلى أثينا وروما شهدت العصور الغابرة ظهورَ مدنٍ واضمحلالها كأهم دليل على صعود وأفول نجم الممالك والإمبراطوريات.

مدينة العصر بداية أُخرى

كانت المدينة القديمة امتداداً للريف الزراعي وتجمعاً رسمَ الجماعة، وعلى رأسها سلطانها، شكله ووظائفه. أنت في مدينة التاريخ الغابر، عضو في جماعة ودورك ضمن الجماعة، زارعاً أو صانعاً أو محارباً. والمدينة القديمة نمت بنمو قدرات السلطان وازدياد ثروته واستمرت أسيرة للمحصول الزراعي في توافره وشحّه. على النقيض من ذلك تماماً، نشأت المدينة المعاصرة بفعل إرادة أفراد، خرجوا من البيئة القديمة والمجتمع القديم، وخطّوا لأنفسهم طريقاً خاصاً. خرجوا تجاراً وحرفيين، واستوطنوا بيوتاً على جسور الأنهار سمِّيت أبراجاً. وتصرّفوا كأفراد أحرار من الأنماط القديمة ليؤسسوا حياة جديدة مختلفة. وكانوا بذلك مثالاً للنمط الإنساني الذي طبع العصر الحديث.. إنسان المبادرة الفردية. من هذه المبادرة نبتت ذهنية التخصص والابتكار والطموح والحلم الذي لا يقف عند حدود. لكن الإنسانية التي اختارت هذا النمط لتأخذ منه صيغة حياتها في كل مكان، وجدت نفسها وبكل فرد من أفرادها أمام صعوبات وتحديات لم تجد حلولاً لها حتى يومنا هذا.

ذروة كل شيء

زينت المدينة المعاصرة منذ نشوئها للإنسان آمالاً كبيرة وتوقعات وأحلام، فهرع الناس لها بأعداد لا حصر لها، كلٌ يحمل في جعبته حلماً وخطة نجاح. واكتظت المدن بالساعين بالكد والكفاح لتأمين عيشهم وتحقيق المزيد. وكم من أحلام تحققت وكم منها خاب.

يتحمل إنسان المدينة المعاصرة عبء نفسه بمفرده. إنه المسؤول الوحيد عن قوته وعن تنمية قدرات تكفل له هذا القوت، ووحده المسؤول عن مأواه وملبسه وذهابه وإيابه وصحته ومرضه وفرحه وحزنه. والمبادرة الفردية التي أعطته حرية الاختيار أثقلت كاهله بعبء لا فكاك منه، أمامه شعار واحد: النجاح أو الموت! فأنت سيد في متجرك أو مصنعك أو مختبرك أو عملك، أما إذا اختارت دورة الحياة الطاحنة للمدينة أن تقذف بك إلى الخارج فأنت محطم فقير مهان!.. ووحيد أيضاً.

كانت حياة القرية تساوي بين غالبية أفرادها إلى درجة تكاد فيها أن تكون قصة كل قرية قصة كل سكانها، أما المدينة فقد وضعت الفرد أمام حالة خاصة، ولكل فرد في المدينة قصة. فجاءت المدينة التي أضحت الصيغة الوحيدة للحياة في العصر الحديث، أو تكاد، مشتملة على الذروة في كل شيء: ذروة الحلم وذروة الإحباط، ذروة العلم والمعرفة، ذروة اختلاط المفاهيم وضياعها، ذروة الألفة والاجتماع وذروة الوحدة. فثراء المدينة لا يشابهه ثراء وكذلك فقرها.

كوربيس

طلع الصباح، فما ابتسمتُ
ولم يُنِرْ وجهي الصباحْ
وخرَجتُ مِنَ قلب المدينة،
أطلُب الرزق المتاح
ورجعت بعد الظهر، في جيبي قروش
فشربت شاياً في الطريقْ
ورتقت نعلي
ولعبت بالنرد الموزع بين كفي والصديق
قل ساعة أو ساعتينْ
قل عشرة أو عشرتينْ

أبيات لصلاح عبدالصبور فيها
تصوير لمشاعر إنسان المدينة العامل



كوربيس

نمو المدن

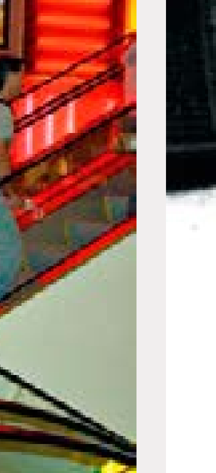
إن جاذبية حياة المدينة، وكونها مكاناً للاسترزاق، عرضها لتكاثف سكاني شديد لا فكاك منه، وأضحت أشد المدن جاذبية تنوء تحت كاهل تضخم سكاني خانق. وأصبح كل توسع في محيطها حلاً ومشكلة في آن معاً.

قبل سنوات استخدمت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) أحد أقمارها لمراقبة توسّع المدن لدراسة آثاره البيئية، وجاءت النتيجة المذهلة لتقول أن عدداً كبيراً من مدن العالم زادت مساحتها بنسبة 25 في المئة ما بين عامي 1990 و2000م فقط. الأمر الذي يكشف حجم التحدي الذي تواجهه المدينة المعاصرة. فبعد سنين قليلة تستعد مدن العالم لأن تضم نصف سكان المعمورة، أي حوالي أربعة بلايين نسمة، وذلك مقارنة بثلاثة بالمئة فقط منذ قرنين فقط. وإذا كان العالم يعاني من انفجار سكاني فإن هذا الانفجار يصيب المدن بالدرجة الأولى.

المدينة ترفع التحدي

على المدينة أن تؤمن المباني السكنية لوافديها الجدد، وأيضاً الطاقة، وشبكات الصرف الصحي، ومزيداً من الشوارع ووسائل النقل العام. باستثناء بعض المدن التي نشأت حديثاً كما هو الحال في أمريكا والجزيرة العربية، ما من مدينة قديمة حسبت لما ستواجهه في القرن العشرين الحساب الصحيح. لندن، باريس، القاهرة، روما، مومباي، بيروت.. استسلمت أمام الكثير من التحديات التي تواجهها في هذا المجال، وتوقفت حتى عن البحث عن حلول. وأحياناً، وفي إطار السعي إلى مواجهة متطلبات النمو وتلبيتها تقع "الأخطاء أو الشرور التي لا بدّ منها". فعندما شاء موسوليني بناء قطار الأنفاق لحل أزمة السير المتصاعدة في روما آنذاك، تعرقل المشروع في البدء عشرات المرات لأن العاملين عليه كانوا يعثرون على مواقع أثرية في بطن المدينة القديمة.. وبعد أن تكرر الأمر عدة مرات أمر موسوليني شق النفق رغم كل الآثار الموجودة حتى ولو اقتضى الأمر تدميرها!.

أدت النهضة الصناعية في جوار المدن الكبرى إلى تضخم النشاطات الاقتصادية، بالتالي إلى الحاجة المتزايدة لمكاتب الأعمال التي راحت تحتل الشقق السكنية مبعدة سكانها إلى مكان مجاور. حاولت بعض المدن القديمة إيجاد الحل في بناء ناطحات سحاب في وسطها كسباً للمساحة، كما هو الحال في باريس وفيينا وروما، غير أن هذا الحل أثار مهمهة غاضبة عند المدافعين عن التراث والشخصية الجمالية للمدينة، كما هو حال النقد العنيف الذي وجه إلى ناطحات سحاب مونبارناس في باريس، والتي تضم أكثر من خمسين طابقاً، للشكل النشاز الذي تبدو فيه بين الأبنية الحجرية القديمة وفوق سطوحها. الأمر الذي جعل تكرار الأمر أكثر صعوبة.



كوربيس



ماغنوم

مدن هي تراث العصر







تكونت غالبية المدن من بقايا تجمعات وقرى متناثرة ومتقاربة، تكاثرت بفعل النشاط الاقتصادي الذي يجذب إليها مزيداً من الصناعيين والتجار وعمال الخدمات المختلفة. وتتسع حاجاتها وتزداد متطلباتها وتتشابك، فتنمو من خلال تلبية هذه المتطلبات، ثم تأتي لحظة تشعر معها المدينة بأنها غدت مدينة بالفعل.

لعب موقع المدينة دوراً حاسماً في نموها وازدهارها. ومن أهم سمات الموقع الاتصال بالطرق والممرات. يعزز ذلك وجودها على ضفاف الأنهار أو شواطئ البحار. وإن كان لكل مدينة معاصرة قصة، فربما تمثل المدن الأمريكية الكبرى النموذج الأفضل لدراسة نشأة وتطور المدينة المعاصرة. فالغالبية العظمى من مدن العالم "غير الجديد" قامت على نواة أنقاض مدينة أو مدن قديمة، سواء أكان في أوروبا أو الشرق. أما المدن الأمريكية فمن أرض خلاء بزغت، وكأنك تؤسس مدينة كما تريدها منذ البداية.

ومن بين المدن الأمريكية، ربما تمثل شيكاغو المثال النموذجي. ولنهضة شيكاغو قصة تتجاوز موقعها الفريد على نهر شيكاغو وطرف بحيرة ميتشيغان. فقد أخذت اسمها من اسم الثوم البري الذي ينمو على ضفاف نهرها بلغة السكان الأصليين. وتعود قصة نهضتها الأولى إلى رجل يدعى وليام أوجدن الذي اشترى له شقيق زوجته قطعة أرض كبيرة هناك. وحين زار الموقع اعتقد لوهلة أن الصفقة كانت حمقاء.. إلا أنه سرعان ما اكتشف احتمالات نمو مدينة، وقرر أن يمد إليها سكة حديد. وحاول عبثاً إقناع أصحاب الأموال في (وول ستريت) بتمويل مشروعه وفشل في ذلك، فلجأ إلى أهل البلدة الذين تحمسوا للمشروع، على أمل في أن تساعدهم سكة الحديد على تصريف محصولهم. فتقدموا جماعات وأفراداً، رجالاً ونساءً، لشراء أسهم الشركة الجديدة.

وفي عام 1848م امتدت قضبان القطار الحديدية إلى البلدة. وانقلب حالها مع انطلاقة القطار الأولى، ثم توسعت شبكة القطار في كل اتجاه لتجعل قصة عاصمة السكك الحديدية هي قصة شيكاغو! وهذه البداية لشيكاغو بمبادرة أهلها طبع تاريخ المدينة التي استمر نموها وتوسعها وتخطيطها يخرج من أفكار أهلها وإرادتهم. وبالتالي أكد سمتها كمدينة نموذجية للروح التي صنعت العالم الجديد.

كتب أحد سكان البلدة يقول عنها: "يمكنك أن توقف البحث، فإن أمريكا بأسرها موجودة على ضفاف بحيرة ميتشيغان. شيكاغو هي أكثر المدن أمريكيةً، ليس فيها التوليفة العاطفية التي تتمتع بها لوس أنجلوس، ولا إدعاءات نيويورك وليست مثل واشنطن، فهي مدينة حية".

ولكن حيوية المدينة وثراءها جلبا معهما في بداية القرن العشرين إحدى أعنف الأزمات التي عرفتها أية مدينة أمريكية. فمن يستطيع أن يتذكر شيكاغو أو نيويورك وينسى المافيا، أكثر المنظمات عنفاً وإجراماً في تاريخ الولايات المتحدة والعالم! إن صورة رجال العصابات، وكما يعرفها الجميع من خلال الأفلام السينمائية بالدرجة الأولى، التصقت بصورة المدينة لسنوات طويلة. والجريمة المنظمة من الظواهر التي تقضّ مضاجع أهل المدن ومسؤوليها، ولا تضعف في مكان إلا لتقوى في مكان آخر.



شيكاغو كما بدت خلال معرضها الدولي عام 1893م

The Bettmann Archive, New York, NY (Sketch by John R. Chapin)



...أوكلاهوما المعاصرة

مدينة المدن

غابة من ناطحات السحاب وأكثر من عشرة ملايين نسمة وأكبر تجمع للأموال والشركات في العالم. لا شك أن نيويورك تمثّل حقيقة المدينة المعاصرة بكل ما في الكلمة من معنى. هي أكثر من مدينة أمريكية ولو أنها لا تقل أمريكيةً عن أية مدينة أمريكية أخرى. وأنت إن سألت عشرة أشخاص ما هي مدينة المدن لأجابك ثمانية على الأقل إنها نيويورك. فهي مدينة المدن المعاصرة بلا منازع. المدينة التي بدأت من لا شيء ثم جمعت كل شيء: المال والعمران والعلم والفكر والفن.

"ناطحات السحاب جميلة؛ لأنها نظيفة قاطعة كحد الموس. تلمع لأنها من الفولاذ الأبيض. زجاجها كالمرآة.. حجارتها تلمع كالزجاج. ولكن ناطحات السحاب ليس لها جذور في الأرض. إنها مجرد كميات هائلة من الحجارة أو الصفيح والحديد والزجاج، كوّمت بعضها على بعض".

كامل زهيري

المحترف السعودي

شعار نادي "شيكاغو بولز".. أحد أهم فرق كرة السلة الأمريكية

آل كابون.. رمز الجريمة المنظمة في شيكاغو الثلاثينيات

NARA (US National Archives & Records Admin.)

بين 3200 و1800 ق.م. بناء أول مدن الصين في مجتمع طبقي زراعي • 814 ق.م. أسست مدينة قرطاجة • 753 ق.م. حسب الأسطورة الرومانيّة أنشئت مدينة روما

نيويورك.. المستقبل على الورق

وإذا اتسم التفكير بتخطيط المدن بسمات عقلانيّة، بمعنى أن يكون مخطط المدينة بناءً على تفكير عملي لضمان سرعة حركة الناس والبضائع والخدمات، فإن المخطط الذي وضع لنيويورك كان نموذجاً صارخاً في بساطة هذا التفكير، وفي أسلوب تخطيط المدن الذي صار أمريكياً يُحتذى. إذ قُطِّعت المدينة إلى مربّعات وسمّيت شوارعها المتقاطعة بالأرقام. خططت مدينة نيويورك عام 1811م، على عكس المدن الأوروبية الكبرى التي سبقتها في التخطيط. فمخطط نيويورك شمل أراض أكبر بكثير من مما كانت تحتاجه المدينة، وكأنها بنيت على الورق للأيام القادمة. ورغم التنظيم العقلاني البارد للشوارع يقال أيضاً إن الفرد قد يتوه أحياناً في نيويورك بشكل لا مثيل له حتى في أكثر المدن الأوروبية تعقيداً.

قديمها جديد العالم

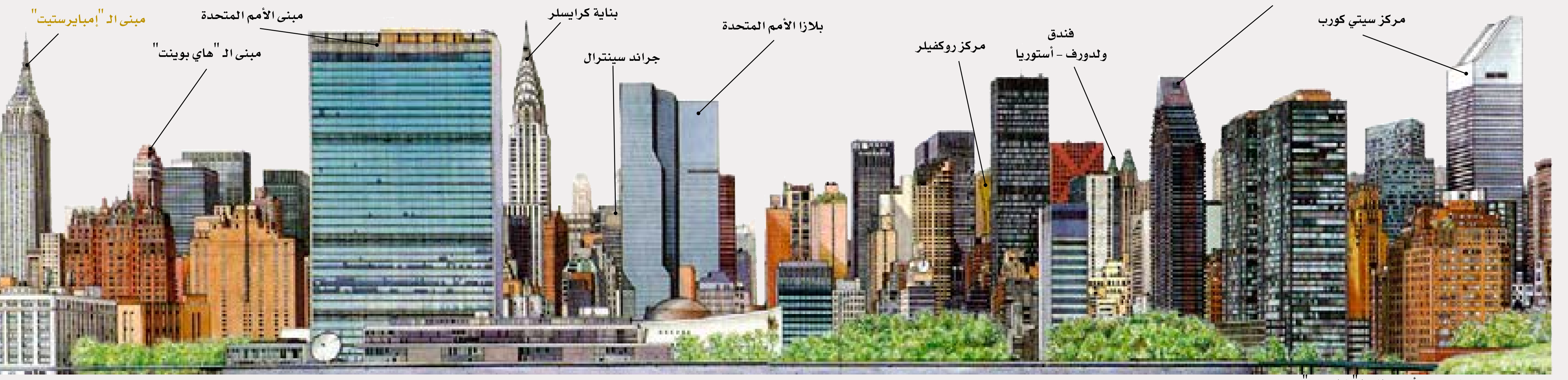
ليس هناك ما يميّز نيويورك أكثر من كونها خلاصة صرفة للعصر الحديث. ناطحة السحاب هي صرح هذا العصر. وحينما تزور مبنى مثل الإمباير ستيت فإنما تزور مسلّة العصر وأهرامه. ودرجات المبنى وأعمدته ومصاعده جميعها حديثة الطابع، تعطيك إحساساً كاملاً بأنك في حضرة التراث العريق للمعاصرة، وأن إحساسك بالانتماء إلى العصر يتصل بهذا المبنى ومقيّد بسلطانه كذلك!. مثّلت هذه المدينة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي أقوى نموذج للسعي وراء النجاح المالي والوظيفي. ولم يهرع الناس إلى مدينة سعياً وراء حياة أفضل أكثر مما هرعوا إلى نيويورك، ليس فقط في الولايات المتحدة الأمريكية بل في كل أنحاء المعمورة. كانت الميدان الأبرز أمام أي أمريكي يريد أن يثبت جدارته في مجال المال والأعمال. في ذلك الوقت، كانت الأفلام السينمائية تتفنن في تصوير جموع الموظفين في بذلاتهم يتراكضون على الأرصفة، داخلين إلى مراكز الأعمال في ناطحات السحاب وخارجين منها. وهو ما عُرف حينها بسباق الفئران.

لكن إذا اختلف الناس حول مدينة، فإنهم لم يختلفوا عليها بقدر ما اختلفوا على حياة نيويورك. مدينة لا تقبل الوسط، فإما أنت عاشقها كل العشق أو كاره لها كل الكره. أما أهلها فيقولون لك إن الحب والكراهية لمدينتهم ليسا إلا وجهين لعملة واحدة.

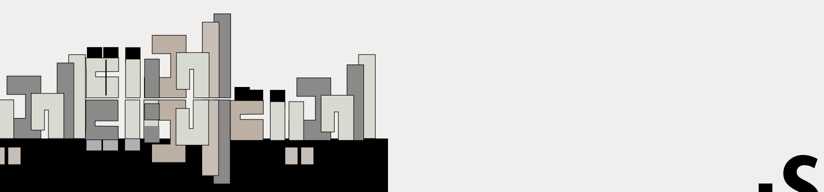
واليوم لا تزال نيويورك تمثل أكبر مراكز التغيير والابتكار والتجدد في العالم، ليس فقط في مجال المال. ويقال إن هناك ابتكاراً جديداً في كل ثانية في الولايات المتحدة، وأغلبها يتحقق في نيويورك أو يمر عبرها. وكونها معبراً أمر لا يقل شأناً عن كونها مركزاً، فأموال العالم ليست جميعها في نيويورك ولكن نسبة كبيرة منها تمر عبر المدينة.

طوكيو، هونغ كونغ، كوالالامبور، تاييه

وإذا جرّدت نيويورك من كل ميزاتها يبقى أنها المسؤولة الأولى والأخيرة عن جعل ناطحة السحاب رمز المدينة المعاصرة ومركز اعتزازها. فمن طوكيو إلى هونغ كونغ إلى كوالالامبور إلى تاييه إلى فرانكفورت وغيرها، لا زال العالم يتسابق إلى اليوم في بناء ناطحة سحاب أعلى وأعلى وجميعها تحاول أن تتباهى بنفسها أمام نيويورك!



واجهة نيويورك وتظهر بعض أهم معالمها "التاريخية"



المدينة الأخرى

تصاب مدن الازدحام بحالات تشبه الأوبئة المستعصية.. منها تفاقم أوضاع الأحياء الفقيرة ومنها الجريمة المنظمة وغير المنظمة ومنها الاكتظاظ الذي يصيبها بالشلل ولا من حل له أو دواء.

عيب المدينة.. حيّها الفقير!

ليس هناك ما يعيب المدينة المعاصرة أكثر من أحيائها الفقيرة. ولا فرق في ذلك بين أصغر المدن وأعلاها شأناً. بل يكاد الحي الفقير، أو ما يُعرف بمدن الصفيح أو أحزمة البؤس، أن يكون أشد بؤساً وتفجراً كلما كانت المدينة نفسها في حالة ازدهار اقتصادي وصناعي متزايد.

هارلم وبرونكس في نيويورك، سوهو في لندن، الكوت دور وباب غلينيانكور في باريس.. وفي المدن العربية القديمة، يمكن عادة معرفة الحي الفقير في المدينة من خلال اسمه. فإذا كان يبدأ بـ "باب" كذا، فغالباً ما يكون كذلك. لأن الفقراء كانوا يتجمعون في الماضي على مقربة من أبواب المدن التي أصبحت اليوم في داخلها. مثل باب اللوق في القاهرة، وباب الجابية في دمشق، وباب التبانة وباب الرمل في طرابلس. وعندما كانت لندن في ذروة مجدها الإمبراطوري، مثلت حالة صارخة في مجال تواجد مثل هذه الأحياء الفقيرة فيها، إذ وصلت مستويات الفقر والفوضى والمرض والجريمة إلى مستويات تاريخية في بعض أنحائها. ويُعتقد أن من أهم أسباب نشوء فكرة تخطيط المدن أو إعادة تخطيطها هو التخلص من أحياء الفقر هذه. فأضحى إخلاء بعض هذه الأحياء وهدم مبانيها، لإقامة الحدائق والمتنزهات أو بعض المباني الحديثة مكانها وإعادة إسكان أهلها في مبانٍ جديدة في الضواحي، من السياسات المعمول بها منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى اليوم.

لكن الحي الفقير يستمر داءاً تعجز كثير من مدن العالم أن تنجو منه. ورغم أن فكرة إعادة تخطيط المدينة بعمليات هدم وإعادة توزيع سكانها تبدو كآخر الحلول: الكي. إلا أن هذه العملية نفسها لا تجو من السلبيات. فهي كثيراً ما تذهب بمعالم تاريخية هامة في وجدان المدينة كما أنها من ناحية أخرى تخلق مساحات تقطع أوصال المدينة وتتعارض مع تماسك أحيائها.

تتألف ضواحي المدن المعاصرة في معظم دول العالم من المناطق الصناعية المبعدة بقرار سليم عن قلبها، ومن أحياء سكن الفقراء. غير أن ضواحي المدن المعاصرة ليست كلها أحزمة بؤس ومناطق صناعية، فبعضها عندما توافرت العناصر الاقتصادية والجغرافية اللازمة، تحوّل إلى مناطق سكن الأثرياء الراغبين في الابتعاد عن ضوضاء المدينة، ولا يحتاجون إلى التواجد في قلبها باستمرار. هكذا ظهرت ضواحي الأغنياء مثل "بفرلي هيلز" في ضاحية لوس أنجلوس. ومن الحلول الأخرى، هناك الهروب بالعاصمة الإدارية والسياسية إلى مدينة مستحدثة جملة وتفصيلاً لتخفيف الضغط عن المدينة الكبيرة.

جرائم المدن ... "مدنية"

عانت كبرى مدن العالم إلى جانب معضلة الحي الفقير، من داء الجريمة، المنظمة منها وغير المنظمة. والجريمة المنظمة على شهرتها ليست مدنية في جذورها وتفكيرها. وربما يعود منطقها إلى ما هو سابق لعقلية المدينة، خاصة وأن بداياتها قامت على التجمعات العرقية أو القومية: المافيا الإيطالية ثم الصينية والدنماركية واليوم الروسية، وغيرها. وقد شكّل انتشار الجريمة وأوجه العنف غير المنظم، حتى لمدن كبرى مثل نيويورك، ما يشبه الداء العضال وأصبح التجول محرّم على الناس في أحياء وأوقات معينة، وأصبحت المنازل شبه قلاع صغيرة محصنة بكافة أجهزة الحراسة الأمنية والأقفال المتينة.

طوابير العاطلين عن العمل في أحد أحياء نيويورك الفقيرة

ارتبط ارتفاع نسبة الجريمة بحالات الفقر عامة والفقر المفاجئ بشكل خاص، حين تنتشر البطالة وتقفل في وجوه الناس أسباب العيش. وارتبطت كذلك بتحلل في القيم الأخلاقية وما يرافقه من تفكك عائلي واجتماعي. كما عُزي انتشار الجريمة لتكاثر هجرات عرقية جديدة إلى المدن لتتراكم في أحياءها الفقيرة. وربما في هذه الأسباب ما يفسر غياب مثل هذه الجريمة بشكل واسع في مدن عربية وإسلامية مثل القاهرة التي تعاني من الكثافة السكانية والعوز والفقر ولكنها تتمتع بدرجة أفضل كثيراً من الأمان، وذلك دون أن يكون لدى أجهزتها نفس قدرات وإمكانات مدن كبرى مثل نيويورك وشيكاغو ولندن وباريس وغيرها!

رافقت الجريمة المنظمة وغير المنظمة تطور المدينة واكتسبت خصوصياتها منها، وقد أخذت أشكالاً جديدة مع عصر الأجهزة الرقمية فتطورت خطط سرقة المصارف من الهجوم المسلّح إلى دخول المصرف بأجهزة إلكترونية، إلى سرقة "نظيفة" بالكامل حيث تتم السرقة عبر أجهزة الكومبيوتر واختلاسات غير مرئيّة!

خير من ويل

أحياناً تخرج الحلول من رحم الكوارث مثل الحروب والزلازل. فتخرج المدينة من الكارثة، لتكتشف أن الحرب، مثلاً، قد قامت بما لم تجرؤ إدارتها على القيام به، وهدمت ما كانت تتمنى هدمه. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها برلين وستالينغراد (سانت بطرسبرج) اللتان أعطتهما عمليات التدمير العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية فرصة لإعادة تخطيطها والظهور في حلّة جمالية جديدة.

ربما تكون بيروت أقرب الأمثلة إلينا في هذا المجال. فبعدما كان قلبها مكتظاً بالسكان ويتسّم بالفوضى والعشوائية التي تطمس معالمه الجمالية، أتت الحرب على قسم كبير منها وأبقت على قسم آخر. وقام مخطط إعادة بناء وسط بيروت على أسس تأخذ في الحسبان ترميم الأبنية القديمة، وتخطيط الشوارع وتأهيل البنية التحتية اللازمة لاستيعاب نمو سكاني واقتصادي لسنوات طويلة ومقبلة. ومن يتجول في هذه المنطقة اليوم يكتشف مئات الأبنية الأثرية الرائعة التي أعيد تأهيلها، ومن بينها دور العبادة والمباني الحكومية المنتظمة حول شوارع عريضة، وحيث كل شيء يأخذ في الحسبان حجم النمو السكاني والاقتصادي لسنوات طويلة مقبلة، ويؤمّن فيها كل مستلزمات الحياة المدنية بدءاً بقدرات البنى التحتية، وصولاً إلى توزّع مبانيها على العمل والإسكان.

"المدينة مهما كان حجمها، تنقسم إلى قسمين، مدينة الفقراء ومدينة الأغنياء... وهما متحاربان"

أفلاطون، كبير فلاسفة الإغريق

إحدى مباني وسط بيروت بعد الحرب ثم بعد الترميم

100م: يصل عدد سكان روما إلى نصف مليون نسمة
762م: بنيت مدينة بغداد وكان اسمها "مدينة السلام"
775م: يصل عدد سكان بغداد إلى مليون نسمة



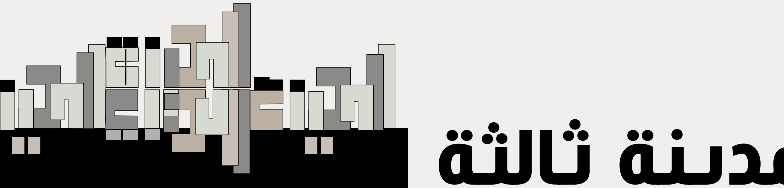

مجد وفقر وناطحات سحاب



مدينة الصفيح في مرآة مدينة الزجاج



قصة مدينتين ومدينة ثالثة



لكل مدينة منهما قصة مستقلة. إنهما باريس ولندن، المدينتان الأوروبيّتان اللتان تشابهتا من حيث النشأة والتطوّر حتى القرن التاسع عشر، حيث رسمت كل منهما مسارها الخاص بحيث أصبحتا اليوم مثالاً لدراسة الفارق بين شخصية مدينتين.

عندما كان نابليون يجول بضيفه ملك روتنبرغ على أحياء باريس، سأله عن رأيه فيها فأجابه قائلاً: "إنها جميلة جداً كمدينة اجتاحها جيش من المصممين المعماريين". فقد كانت العاصمة الفرنسية آنذاك قد عانت من إهمال رسمي دام قرناً كاملاً بعدما استوطن ملوك البلاد في ضاحية فرساي المجاورة. لهذا أولى الإمبراطور الطموح أهمية قصوى لإعادة تخطيط المدينة وتجديدها بشكل يحقق لها المكانة التي أرادها لها: عاصمة أوروبا ومن خلفها العالم بأسره.

هدمت في عصر نابليون الأول آلاف الأبنية الخشبية القديمة على ضفاف السين، ليقوم فوقها شارع الريفولي الحديث، وبدأ تخطيط الميادين الكبيرة وتزيينها، مثل تأهيل ساحة الكونكورد، وتزيين ساحة الفاندوم وبناء قوس النصر في آخر جادة الشانزيليزيه وما إلى ذلك من عشرات المشاريع، التي استوحت كلها ضخامة الهندسة اليونانية والرومانية القديمة، تماشياً مع سياسة "العودة إلى الجذور" التي طرحت نفسها كحل للأزمة التي رافقت الثورة الفرنسية وأعقبتها. بعد ذلك، وتحديداً خلال الربع الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي، أطلق نابليون الثالث يد المهندس والمخطط جورج هوسمان ليعيد رسم باريس، تلبية لمتطلبات تضخّمها السكاني واحتمالاته المستقبلية.

لم يناقض هوسمان الرؤية التي كانت قد وُضعت أُسُسها على يد نابليون الأول، بل دفعها حتى حدودها القصوى. فأخذ ساحة قوس النصر ليفرِّع عنها مزيداً من الشوارع العريضة في كل الاتجاهات، بلغ مجموعها اثني عشر شارعاً، فصارت تبدو من الجو أشبه بنجمة، وحملت فعلاً هذا الاسم: "Place De L'etoile".

احتاج تنفيذ هذا المخطط عملياً إلى هدم آلاف الأبنية وإعادة بناء بديل عنها ما بين عامي 1853 و1869م. كما أدى إلى إعادة إسكان 350 ألف نسمة، أغلبهم من الفقراء، في أماكن أخرى. فكان ذلك من أوائل الانقلابات العمرانية التي تضطر فيها مدينة إلى مواجهة الحقيقة غير المستحبّة المتمثلة في الأحياء المكتظة بالفقراء والتي غالباً ما تحاول المدن أن تتغافل عن وجودها أو تتناساها.

نجح التخطيط الجديد لباريس في تحويلها إلى مدينة خلابة، قادرة على استيعاب احتياجات النمو السكاني ومتطلباته حتى يومنا هذا. فالضخامة التي وضعت مقاييسها أساساً للاستجابة إلى احتياجات الأبهة الإمبراطورية وطموحاتها غير المحدودة، صارت السمة الضرورية لتلبية احتياجات الحياة الحديثة. تحولت شوارعها الفسيحة إلى أماكن للتنزّه تنشط فيها الحياة الاجتماعية واللقاءات، وكان جمالها مادةً رسمها مئات الفنانين. وبسبب المقاييس الكبيرة اتسعت هذه الشوارع لكل شيء وأينما كان: المقاهي، المطاعم، أماكن التسلية، وحتى أرصفتها، وفقط الأرصفة اتسعت للمكتبات والحفلات الموسيقية، حتى استحقت هذه المدينة عن جدارة لقب مدينة النور.

في المقابل، قاومت العاصمة البريطانية فكرة التنظيم الصارم، والمخططات التي تستند إلى أحلام فوقية تطبق على المدينة ككل بأسلوب وجده أهل لندن منافياً للمنطق البسيط. أو قل إن العاصمة البريطانية لم تجد نفسها ذات يوم ملزمة بمثل هذه المراجعة الشاملة التي عرفتها باريس. فنظامها السياسي تميّز باستمرارية مدهشة أصبحت مضرب مثل، لا ثورة، ولا أزمة وجود، ولا تطلّع نحو عظمة التاريخ الروماني واليوناني القديم. خاصة أن الرابط بين الأنكلوساكسون والجذور الرومانيّة هو أضعف بكثير مما هو عليه عند الشعوب اللاتينيّة مثل الفرنسيين.

كانت لندن في القرن التاسع عشر تعاني، وربما أكثر من باريس، من الأحياء السكنية المكتظّة بالسكان حيث تنتشر الأوبئة والأمراض، وتشكل مرتعاً للجريمة والفساد والاضطراب العام. واستدعى ذلك إجراءات جذرية لإنقاذ المدينة. لكن هذه الإجراءات لم تصل إلى حدود إعادة التخطيط الشاملة، بل اقتصرت على بناء مساكن جديدة عند أطراف المدينة لإسكان الفقراء وإخلاء مساكنهم



المحترف السعودي

أحد مراكز لندن، منطقة قصر باكنغهام، والحدائق الطبيعية خلفه

"ثلاثون عاماً. كان شجر الصفصاف يبيض ويخضّر ويصفر في الحدائق، وطير الوقواق يغني للربيع كل عام. ثلاثون عاماً وقاعة البرت تغص كل ليلة بعشّاق بيتهوفن وباخ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر. مسرحيّات برنارد شو تمثل في الروايات كورت والهيماركت. كانت ايدث ستول تغرد بالشعر، ومسرح البرنس اف ويلز يفيض بالشباب والألق. البحر في مدّه وجزره في بورتسمث وبرايتن، ومنطقة البحيرات تزدهي عاماً بعد عام. الجزيرة مثل لحن عذب، سعيد حزين، في تحول سرابي مع تحول الفصول. ثلاثون عاماً وأنا جزء من كل هذا، أعيش فيه، ولا أحسّ جماله الحقيقي".

الطيّب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال

في باريس المجد، وفي لندن المجد والفائدة.. برج إيفل وساعة بيج بن

المحترف السعودي

1000م: مدينة قرطبة تضم حوالي نصف مليون نسمة

1500م: ظهور الضواحي حول المدن الأوروبية المسوّرة

1775م: اختراع المحرك البخاري يطلق الصناعة وبناء المدن

القديمة. وهكذا بقيت لندن حتى يومنا هذا من دون نقطة مركزية رئيسة، بل ذات نقاط مركزية متعددة وما زالت المساحات الخضراء، بعضها متروك على طبيعته، توفر انفراجات كبيرة وسط العاصمة.

وترافق هذا الاختلاف في التخطيط مع اختلاف آخر في فن البناء. ففي حين نجد القصور الفرنسية بذخة بالزخارف والأثاث المذهب والمرايا، نجد القصور الإنجليزية بسيطة - إذا جاز التعبير - بالمقارنة، وكأنهم يترجمون بها أسلوبهم في السلطة والسياسة، حيث يؤثرون قلة التباهي، إلا فيما هو أساسي وجوهري.

التباين في شخصية المدينتين، من حيث التخطيط والمعمار، يحكي تبايناً أوضح على نمط الحياة في كل منها. وينسحب تخطيط باريس المرسوم على الورق والنابع من تصميم المخططين المعماريين على ترابط معالم المدينة، فتجد معهد الفنون الجميلة، مثلاً، يقع قبالة متحف اللوفر تماماً، وتحيط بهذا المعهد شوارع تضم عشرات دور العرض للفنون الراقية إضافة إلى المكتبات ودور النشر التي تنتهي في جوار جامعة السوربون العريقة، وما بين المعهد والجامعة عشرات ومئات المقاهي للنقاش والحوار والتفاعل. وعلى الجهة الأخرى من متحف اللوفر هناك ساحة الفاندوم حيث يحتشد أكبر تجمّع لأشهر مصممي المجوهرات في العالم، وعلى مقربة منها طرقات مماثلة تؤدي إلى شارع سانت هونوريه حيث يوجد أكبر تجمع لمصممي الأزياء الفرنسيين وأيضاً القصر الجمهوري ورئاسة الوزراء، وهو موازٍ تماماً لجادة الشانزيليزيه الشهيرة.. وفي كل هذه الأحياء المختلفة والصاخبة حياةً وإنتاجاً وإبداعاً، يمكن للمرء أن يتجول سيراً في ساعات قليلة، من دون أن يغيب نظره عن مشهد قصر، أو نصب تاريخي، أو مبنى دخل تاريخ الهندسة المعمارية. أما في لندن فالوضع يختلف تماماً، دون أن يعني ذلك قلة في ما تقدمه لك المدينة من أسباب العلم والثقافة والمعرفة، أكان في المكتبات أو المتاحف أو المسارح أو غيرها. وقد قيل "السمعة لباريس والفعل للندن!" وهذا الفارق يلخص المقارنة بين المدينتين. في الأولى تشعر بعظمة المدينة ولكن أيضاً تشعر بضغط من يقف في نقطة وسط تتجه إليها المدينة بأسرها، وفي الثانية يشعر بعظمة أقل ولكن بميزة التفلّت النسبي من تحمل نقطة الارتكاز والحركة دون شكل النجمة الهندسي. ففي حين يشعر الزائر في باريس بأن المدينة بأسرها تحيط به أو تتجه صوبه وأنه في وسطها أينما كان فيها، يشعر في لندن بأنه في مكان بعيد عن قلبها، حتى ولو كان فعلاً في منتصف أحد الميادين.

كوربيس

المحترف السعودي



كوربيس



نجمة باريس الـ "إتوال"، مركزية المدينة



القاهرة.. التراث الحي والحداثة التي لا بدّ منها

1843م: أول مجاري صرف صحي تحت الأرض في ألمانيا ✣ بين 1850 و 1914م: المدن العربيّة تتوسّع خارج أسوارها القديمة ✣ 1880م: اختراع الهاتف

قاهرة المعزّ.. معاصرة

القاهرة مزيج من مدينتين ومعهما عصرين. هي مزيج من المدينة القديمة التي تحمل عبقاً تاريخياً كثيفاً والمدينة التي تقدّم كل ما تقدمه المدينة المعاصرة من مزايا، وتعاني من نفس ما تعانيه من تحديات. وهي المدينة التي أعيد تخطيطها بطموحات وأحلام عواصم القرن التاسع عشر. كما أنها المدينة التي نمت بنزوح ريفي كثيف حوّلها إلى إحدى أكبر مدن العالم تعداداً بالسكان، كان التخطيط وإعادة التخطيط والتوسع الأفقي من أكبر هواجسها.

تأسست المدينة عام 969م على يد القائد العسكري جوهر الصقلي. سلكت في مطلع القرن التاسع عشر منعطفاً أوصلها إلى ما هي عليه اليوم. بدأ تحديث القاهرة على يد محمد علي باشا الذي استلم الحكم عام 1805م، وكان عدد سكان المدينة آنذاك نحو ثلاثمائة ألف نسمة، واستُكْمِل هذا التحديث بزخم على يد أولاده، وخاصة الخديوي إسماعيل باشا الذي حكم ما بين العامين 1863 و 1879م، معاصراً لحكم نابليون الثالث ولإعادة تخطيط العاصمة الفرنسية على يد المهندس هوسمان.

شهدت القاهرة آنذاك شقّ الشوارع العريضة والمستقيمة (مثل شارع محمد علي)، وذلك على حساب آلاف المنازل القديمة التي تمّ هدمها. وأقيمت المباني والقصور المتباعدة عن بعضها في غرب المدينة القديمة المزدحمة. واستوحى إسماعيل باشا الهندسة الأوروبية والفرنسية بشكل خاص في هذا النمط المعماري الجديد، الذي ما يزال موضوع جدل حتى يومنا هذا، ويمكننا أن نراه في القصور التي بناها وأيضاً في مبنى المتحف المصري وجسر قصر النيل وغير ذلك.

وترك الاحتلال الإنجليزي اللاحق (1882 – 1936م) بصماته أيضاً على المعالم العمرانية ونمط الحياة اليومية وعاداتها وصولاً إلى أسماء بعض المناطق والأحياء. غير أن الشخصية الإسلامية والتاريخية للمدينة استطاعت أن تصهر هذه المؤثرات الوافدة وأن تهضمها، وربما كانت بحاجة إليها كما يقول البعض كي تتمكن من رفع التحديات التي واجهتها في القرن العشرين، وأبرزها ازدياد عدد السكّان الذي وصل في العام 2000م إلى 12 مليون نسمة. مما أدى إلى إنشاء مدن جديدة في ضواحي المدينة العملاقة لتخفيف الضغط عنها. كان أول هذه المدن "مصر الجديدة" التي أقيمت خارج المدينة القديمة كحي للأثرياء. وفي السبعينيات أخذت الدولة تبحث عن حلول لتزايد في عدد السكان لم تعد قادرة على استيعابه، فكرّت مسبحة بناء المدن من 6 أكتوبر، إلى العاشر من رمضان إلى مدينة العبور.

بدءاً من نواة!

لم تبدأ مدن المملكة العربية السعودية من الصفر أو الأراضي البور تماماً لكنها بدأت من تجمعات بيوت قليلة وهذا ما أعطاها فرصة التخطيط المسبق لتتوسع مدنها بما يشبه توسع المدن الأميركية. وقد ساعد على ذلك أن الحاجة إلى التوسع قامت في نفس الفترة الزمنية التي توفرت فيها الامكانات المادية التي تسمح بالتخطيط المدروس له، وبالتالي بناء البنى التحتية القادرة على استيعاب نمو المدينة واحتياجات هذا النمو لسنين طويلة، وفي فترة لا تزيد عن عقدين فقط تضاعفت المساحة المأهولة في مدن مثل الرياض العاصمة أو جدة أو المدن الثلاث المتجاورة (الدمام والخبر والظهران) بنسبة قد لا تكون عرفتها مدن أخرى في العصر الحديث، ليس في المساحة وحسب بل وفي عدد السكان أيضاً. وبطبيعة الحال لم يكن هذا النمو السريع دون صعوبات مفاجئة غير مأخوذة في الحسبان تم تداركها مع مرور الوقت ونضوج التجربة. وجاءت ظاهرة مثل دبي لتقدم نموذجاً مثالياً لبناء مدينة فائقة العصرية في فترة زمنية قصيرة أيضاً وبنجاح قلّ نظيره.

أُم القرى وأنفاقها

واجهت مكّة المكرّمة مشكلة شبيهة بتلك التي واجهتها روما في عهد موسوليني، فقد انحصرت أم القرى في ذلك الوادي لآلاف السنين، وتكدّست مساكن أهلها حول الكعبة والحرم الشريف وعلى الجبال من حوله. ولمَّا جاءت الطفرة والتوسّع العمراني الذي لحق مدن المملكة فأخرج جدّة عن سورها الذي بقيت داخله لمئات السنين، لم تعرف مكّة كيف تخرج من بين الجبال المحيطة بها، حتى تم اختراق الجبال وحفر الأنفاق الطويلة داخلها كي تحل مشكلة الازدحام داخل مكّة وتربط بين الحرم والأحياء الجديدة التي خرجت عن نطاق العمران التقليدي، كما شيِّدت المباني الشاهقة حول الحرم لتتمكن من استيعاب الأعداد المتزايدة من الحجّاج والمعتمرين ولا تزال هناك خطط لتشييد المزيد ..







جدة.. المدينة الثانية في المملكة، لم تفقد مزاياها أمام العاصمة الرياض

...ثم وصلنا في أول جمادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية – حرسها الله –، وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كَرُمَت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها. فهي الفريدة في تجلّي سناها، والغريدة تجلى في جلاها، الزاهية بجمالها المغرب، والجامعة لمفترق المحاسن لتوسُّطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اختلاؤها، وكل طريفة فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنّفوا في عجائبها فأغربوا، وحسب المشوق إلى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب "المسالك".

ابن بطوطة في رحلته إلى الإسكندرية

العاصمة والمدينة الثانية

1885م: أول ناطحة سحاب في شيكاغو

كثيراً ما يلفت نظرنا أن العاصمة الرسمية لهذا البلد أو ذاك، ليست هي المدينة الأشهر أو الأكبر، فعاصمة سويسرا الرسمية هي بيرن، وليست زوريخ أو جنيف الأكثر شهرة طبعاً. وعاصمة أستراليا هي كامبيرا، وليست سيدني أو ملبورن، وعاصمة البرازيل هي برازيليا، وليست ريو دي جانيرو أو ساوباولو، وعاصمة كندا هي أوتاوا، وليست مونتريال أو تورنتو، إلخ... وهذا يقودنا إلى التنافس المزمن بين العاصمة والمدينة الثانية الذي يصل إلى حد الكراهية المكبوتة حيناً والمعلنة حيناً آخر.

كثير من المدن الثانية في دول العالم تشعر بأنها مغبونة أمام الاهتمام الذي تحظى به العاصمة وتسارع نموها. ولعل أوضحها الإسكندرية مقابل القاهرة. فقد كانت الإسكندرية قبل ألفي سنة من أعظم مدن العالم، وهاهي تنتقل إلى الصف الثاني بعد القاهرة. التي مضى على تأسيسها ألف عام فقط. الأمر نفسه ينطبق على مدينة حلب في سوريا، وفي إيطاليا يكنّ سكان مدينة ميلانو الصناعية والغنية في الشمال الشعور نفسه إلى روما القديمة والفقيرة في الجنوب.

وأحياناً تنمو العاصمة وتتضخّم ممتصّةً القسم الأكبر من عوامل النمو في بلادها فتتحول إلى المدينة الوحيدة في البلاد حيث تكون المدينة الثانية على مسافة شاسعة من العاصمة على صعيد التطور والنمو. ومن المدن العربية التي يمكن أن نذكرها على سبيل المثال بغداد وتونس.

وفي بعض الأحيان نجد نمواً متوازناً بين العاصمة والمدينة الثانية، إذ تحتفظ المدينتان بالمستوى نفسه تقريباً على صعيد النمو في الوطن الواحد. مثل مدينة جدّة التي لم يتضاءل دورها ولا نموها لصالح العاصمة الرياض. بل بقيت تستفيد من موقعها الجغرافي وقربها من الأماكن المقدسة.

ولا بد أحياناً من أخذ المكانة المكتسبة تاريخياً في الحسبان الذي قد يُبقي وزناً للمدينة الثانية، لا يستطيع القرار السياسي نقله إلى العاصمة. وهذا هو حال اسطنبول مثلاً التي بقيت لنحو خمسة قرون عاصمة للدولة العثمانية، فاكتسبت شخصية فريدة تبقيها فعلاً المدينة الأولى في تركيا بلا منازع رغم نقل العاصمة إلى أنقرة. الأمر نفسه ينطبق على ريو دي جانيرو مقابل العاصمة برازيليا، ومومباي المدينة الاقتصادية مقابل العاصمة الهندية السياسية الهادئة والوديعة نيودلهي.

قرطبة.. جوهرة العالم لخمسمائة عام!

بدأت قرطبة تتحول إلى مدينة كبرى على يد مؤسس الدولة العربية في الأندلس عبد الرحمن الداخل، لكنها لقيت أوج ازدهارها في عهد عبدالرحمن الناصر، الذي اتخذها عاصمة لملكه، وجعلها كبرى المدن الأوروبية، وأكثرها أخذاً بأسباب الثقافة. كانت قرطبة العاصمة الكبرى للأندلس، يفد إليها الملوك والسفراء، ونافست كبريات المدن الإسلامية في تلك الحقبة كالقاهرة ودمشق وبغداد والقيروان، حتى سمَّاها الأوروبيون "جوهرة العالم".

وصل عدد سكانها إلى نصف مليون نسمة في ذلك الزمن (بينما أصبح في العام 1995م، ربع مليون فقط)، وبلغ عدد ضواحيها 28 ضاحية، وكان فيها ثلاثمائة حمام عمومي، وثلاثة آلاف مسجد، وبقيت حتى سقوطها أعظم مدن أوروبا.

تناظر يوماً ابن رشد مع أبي بكر بن زهر، فقال: "إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها".

مفارقات في أسماء المدن

هناك مدن اشتهرت في العالم إلى درجة أن اسمها استنسخ مراراً وتكراراً، وأحياناً في البلد نفسه. وقد يكون المثال الأوضح على ذلك اسم الإسكندرية الذي يطلق على كثير من المدن الأمريكية إضافة إلى 58 مدينة وبلدة حول العالم! وهناك مدن حملت أسماء مدن أخرى مميّزة نفسها بأنها الجديدة.. مثل نيويورك التي هي (يورك الجديدة).. قس على ذلك (نيوجيرزي) أو نيو (أورليانز).. وهناك مدن حملت أكثر من اسم عبر التاريخ، مثل مكة التي ذكرت في القرآن الكريم باسم «بكة» ومن ألقابها «أم القرى». ومن المدن ما حملت أسماء مشاهير مثل «بطرس- بيرج» أو «لينين-غراد».. وهناك مدن حملت كلمة (مدينة) داخل اسمها، مثل غراد، وفيل، وبيرج، وبول، وأباد.. حيث تسمع «لويسفيل» و«هايدلبرج» و«اسطنبول» و«حيدرأباد»..



المدينة صوت وصورة

من اللوحات التي أرّخت في القرن التاسع عشر لحريق لندن الشهير

كوربيس

1914م: أول رحلة طيران تجارية • 1950م: نيويورك الأكثر سكاناً في العالم 12.5 مليون نسمة • 1983م: أول جهاز كمبيوتر

شكّل انتقال الإنسان إلى المدينة، خاصة في القرن التاسع عشر "الحدث" في حياة البشرية وتاريخها. وخلق نشوء المدينة المعاصرة بموازاة الثورة الصناعية تحولاً عنيفاً في شكل الحياة الإنسانية لا زالت آثاره تمتد إلى اليوم. وأصبح موضوعاً خصباً للرواية والشعر وجميع الفنون الأخرى.

بطل من المدينة

إذا ذكرت المدينة تذكر الناس رواية شارلز ديكنز "قصة مدينتين"، التي هي في الحقيقة قصة مدينة واحدة أساساً: باريس، والثورة التي كانت تغلي في أحياءها. لكن المدينة، هذه الظاهرة العنيفة المستجدة في الحياة الإنسانية بقيمها وأنماط سلوكها وفئاتها الاجتماعية الجديدة، وما عرفه الإنسان فيها من نجاح وفشل ومن متع وعذاب واغتراب، كلها كانت مادة نهل منها الرواة حتى الثمالة.

وكم من بطل رواية، مثل الشاب بيب في "توقعات كبيرة" لشارلز ديكنز، رحل من الريف إلى المدينة سعياً وراء حياة أخرى. وكذلك الرحيل إلى أمريكا في روايات فرانز كافكا وغيره تمثل خوضاً في تجربة المدينة. ولم تغب هذه المشاهد عن الرواية العربية. فنجيب محفوظ ويوسف إدريس كانا رواة حياة المدن تتخللها إطلالات ريفية. ولا مبالغة في القول أن الرواية المعاصرة من تولستوي ودوستيوفسكي وفكتور هوجو حتى كافكا وفتزجيرالد هي من صنع المدينة المعاصرة مثل الشعر الحديث والفنون عامة.

شاهدها

وفي القرن التاسع عشر، قبيل ظهور الانطباعيين وبموازاتهم، راجت مدرسة فنية كبيرة في فرنسا، دخلت طي النسيان في يومنا هذا، وهي مدرسة الرسميين، التي شكل رسم الشوارع والمباني العامة ومشاهد من داخل الشقق البرجوازية الفاخرة أبرز علاماتها، ومن أشهر أساتذة هذه المدرسة نذكر "بوغيرو" و"ميسونيه".

أمّا الانطباعية فقد قامت أساساً على انبهار روّادها الفرنسيين بانطباعية أوجين بودان ووليام تورنر. الأول رسم العديد من مدن هولندا، والثاني رسم لندن ومبانيها العامة.

وعلى الرغم من أن الرأي الشائع يحاول أن يؤطّر الانطباعيّة بالطبيعة، فإن الانطباعيين كانوا أكثر الرسّامين "مدينيةً" حتى آنذاك. فإضافة إلى المشاهد العامة في شوارع المدينة التي رسمها كالبوت ورينوار مثل لوحة "13 يوليو" وصولاً إلى مدينة إكس في لوحات عدّة لسيزان، يمكن القول أن الانطباعيين كانوا أفضل "مؤرِّخين تشكيليّين" لما كانت عليه الحياة التشكيليّة في باريس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدءاً بمشاهد الحياة اليوميّة داخل البيوت وصولاً إلى المطاعم والمسارح والحدائق العامة ودور اللهو وما إلى ذلك..

وفي القرن العشرين الميلادي، عندما ضغطت الحداثة بكافة جوانبها على حياة الإنسان، بدأت اللوحة بتسجيل موقف من المدينة ككل، كما هو حال لوحة فرنان ليجيه "المدينة"، التي حاول أن يعبّر فيها بأسلوبه التجريدي عن الرؤية المتجزأة التي تميِّز إدراك ابن المدينة لكل ما حوله. وفي النصف الثاني من القرن العشرين بلغ رسم المدينة ذروته عند الواقعيين الأمريكيين، ومنهم دايفيد هوكني، آندي وارهول، روي ليختنشتاين...

شارع في باريس تحت المطر - بريشة كايبوت

كوربيس

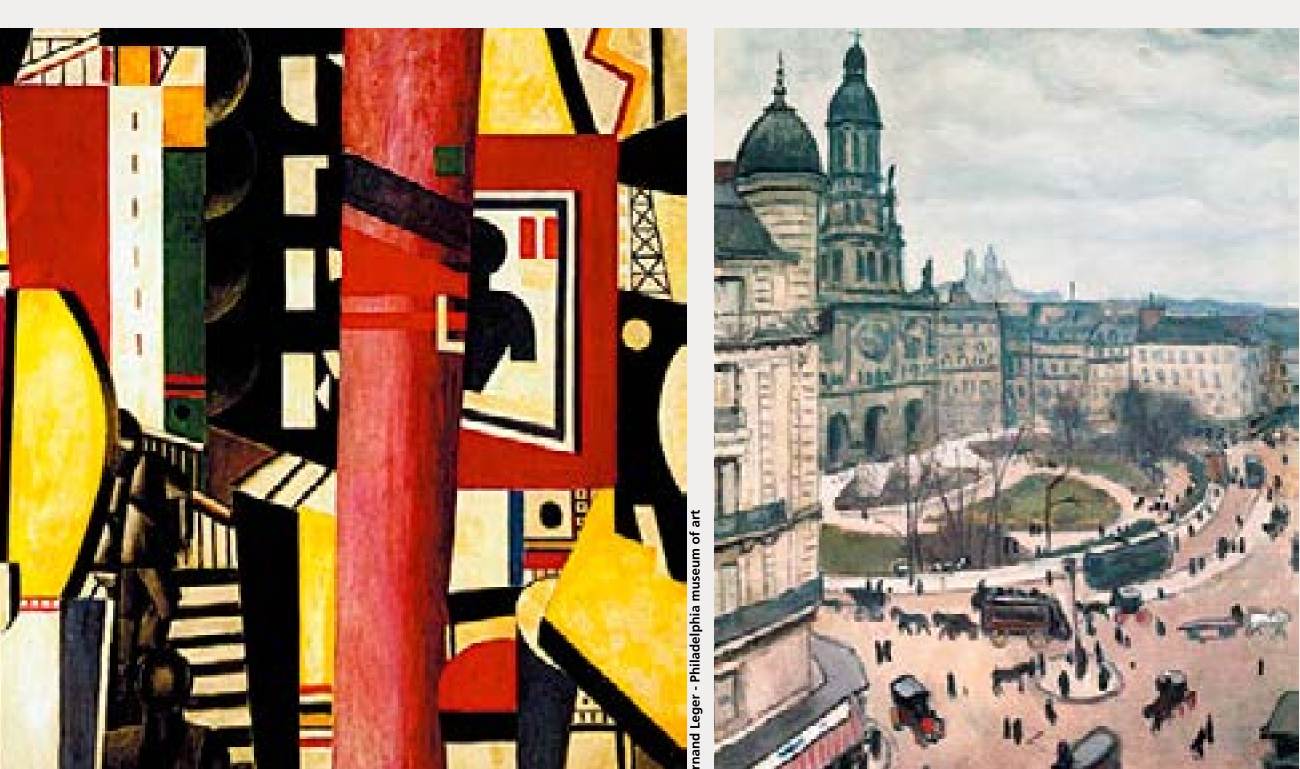
حتى أن بعضهم بنى معظم شهرته العالمية على رسم ناطحات السحاب وشوارع نيويورك مثل ريتشارد إستس أستاذ الواقعية الدقيقة.

واليوم بعد أن فقد حي مونمارتر في باريس أهميته بغروب الانطباعيّين عنه وأصبح مقصداً للسيّاح، يتجمّع هناك مئات الفنانين الذين يرسمون أساساً موضوعاً واحداً: مشاهد من باريس. صحيح أن هذه اللوحات رخيصة فنياً، ولكن موضوعها يجعل منها تذكارات، أو قُلْ ما يشبه بطاقات بريديّة فاخرة.

كلمات وألحان

كذلك تناول الموسيقيون المدينة، أكان في المقطوعات السمفونية أو الأغاني الخفيفة. وتعتبر السمفونية التاسعة لدفوردجاك "العالم الجديد" أشدّ الأعمال ارتباطاً بالمدينة، وقد استوحاها وأهداها إلى نيويورك. وفي الخمسينيات من القرن العشرين كانت باريس صاحبة الحصة الأكبر في الأغاني الفرنسية نفسها والأمريكية أيضاً، فاشتهرت أغاني فرانك سيناترا وهو ينشد حب المدينة الفرنسية، مدينة النور. أما في الأغنية العربية فقد غنّت فيروز مدناً كثيرة، غنتها لقيمتها المعنوية والوطنية بعيداً عن خصائصها المدينية، بدءاً بمكة المكرمة والقدس حتى دمشق وبيروت، وغيرها.

لكن لا شك أن أوسع الفنون تناولاً للمدينة كان الفن السينمائي.. وهو فن ولد في رحم المدينة المعاصرة حاملاً كل ابتكاراتها مرافقاً لكل آمالها وآلامها. وأعظم دليل على هذا التلازم أفلام الأبيض والأسود الصامتة المبكرة على يد أحد عباقرة هذا الفن، تشارلي شابلن، كانت مواضيعها أزمات الحياة والقيم في المدينة المعاصرة. وأعظم أفلامه "الأزمنة المعاصرة" يتناول بسخرية شديدة حال العمال الصناعيين، وفيلم "أضواء المدينة" الذي يتناول تشرّد الإنسان في المدينة. وتبعتها أفلام الجريمة المنظمة وغير المنظمة، والتي يستمر بريقها حتى يومنا هذا. وكرّت المسبحة، فمن ينسى "التانغو الأخير في باريس"، و"برلين"، و"القاهرة 30"، وغيرهم الكثير. ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم يبق موضوع من مواضيع المدينة المعاصرة لم يتناوله الفن السينمائي.



كوربيس

ميدان الترينيتيي بريشة ماركيه

Fernand Leger - Philadelphia museum of art

"المدينة".. التي لا ترى منها العين سوى أجزاء الأشياء، بريشة فرنان ليجيه

"إن الطبيعة لا تعنيني بشيء.. أنا أحب المدينة"

مايكل أنجلو
فنان عصر النهضة

مشهد من فيلم
أضواء المدينة
لشارلي شابلن

كوربيس

شخصي 1998م: نصف سكان العالم يقطنون في المدن، بعد أن كان 3٪ قبلها بقرنين فقط

الهروب من الزحام

المدينة المعاصرة كالحضارة التي صنعتها، أسلوب حياة وطريقة تفكير. وإذا ما قرر ابن المدينة أن يخرج إلى الطبيعة، فإن ما يقوم به، في الواقع، لن يكون أكثر من خروج إلى حديقة منزله. فنحن نعيش على كرة أرضية امتلكتها المدن جبلاً وسهلاً، وجواً.. وعلى وشك أن تمتلك بعض الفضاء! وما عادت الطبيعة البرية سوى حديقة مدننا، كبيرة كانت أم صغيرة..

نزور الطبيعة أو لا نزورها فنحن من المدينة. لا بل نحن المدينة بكل ما فيها وأينما اتجهنا ومهما بعدنا، فسوف نحمل مدينتنا معنا وفينا.. لا مفر.

آخر بيت في المدينة

أخذت أول الحملات على المدينة شكل الدعوة إلى العودة إلى الطبيعة، وتوجه النقد ضد الآلة الصمّاء والبناء القاسي المتكرر. وقد تزعّم الشعراء هذه الحملات واضعين المدينة في مواجهة الريف رغم أن المدينة بساحاتها وشوارعها ومقاهيها لم تقسُ على الشعراء بقدر ما قسوا عليها. إن هجاء المدينة سهل وهجاء الطبيعة صعب. ومن ذا الذي يجرؤ على ذم منظر الجبل أو الشجرة ومن ذا الذي يجرؤ أن يتغزل بمحرك سيارة أو مصعد بناية أو هاتف، أو جهاز الكمبيوتر؟ ولكن هل صحيح أن الآلة لا تستحق الشعر؟ وأن المحرك والهاتف والآلة الكاتبة والكاميرا أشياء لا تستحق الرسم أو الشعر مثل الشجرة أو الزهرة أو الحصان؟ وهل صحيح أن بائع الصحف على رصيف المدينة وعامل المطبعة أو مصنع النسيج، أو الطابعة على الآلة الكاتبة هم أقل شأناً لرومانسية الأدب وفرشاة الفن من الفلاح العائد من حقله وبائعة الحليب وعجوز القرية أو البدوي في الصحراء؟ وهل صحيح يا ترى أن غابة الشجر هي دوماً أشد جاذبية وأجمل من غابة الإسمنت.. المدينة؟

ربما تكون الأبيات الجميلة التي قالها محمود سامي البارودي في وصف القاهرة نموذجاً نادراً، في حب المدينة ووصفها كمدينة، في الشعر العربي:

حيث تجري السفينُ مستبقاتٌ
فوقَ نهرٍ، مثلَ اللّجينِ المذابِ
قد أحاطت بشاطئيه قصورٌ
مشرفاتٌ، يَلُحنَ مثلَ الضبابِ
ملعبٌ تسرح النواظر فيه
بينَ أفنانِ جنّةٍ وشِعابِ

وأبيات للشاعر الإنجليزي وليام ووردزورث عن صباح المدينة تجعل إطلالة الشمس على مبانيها أبهى من إطلالتها على الجبال والوديان:

ليس للأرض أجمل منها تعرضه
كئيب الروح من يمر بها ولا يدري روعة المدينة
وقد لبست ثوب الصباح صامتة عارية
السفن والأبراج والقباب والمسارح والمعابد
تجثم أمام السهول والسماء
لامعة مشعّة في الهواء النقي
وما أطلت شمس بهذا الجمال
إطلالتها الأولى على أودية وصخور وتلال
ما شعرت يوماً بمثل هذا السكون العميق
والنهر ينساب باختياره اللذيذ.
يا إلهي ... حتى المنازل تبدو نائمة
وذو القلب الكبير لا يزال مستلقياً.

ربما وجد الشعراء العرب في الدعوة الرومانسية، التي تدعو لهجر المدن والعودة إلى الطبيعة، في تراثهم زاداً غنياً، خاصة أن جذور شعرهم في البادية. وقد كان الانتصار لحياة البادية على حساب حياة الحضر دعوة مبكرة في هذا الشعر استمر على طول مسيرة الشعر العربي. أَوَلَم يعلن المتنبي:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب

وبعده بعصور، الأمير عبدالقادر الجزائري يدافع عن حياة البادية مؤكداً تلازمها مع الشعر:

لا تذممنّ بيوتاً خفَّ محملُها
وتمدحَنَّ بيوتَ الطين والحجرِ
لو كنتَ تعلمُ ما في البدوِ تعذرني
لكن جَهلتَ، وكم في الجَهل من ضررِ
الحسنُ يظهرُ في بيتين رونقهُ
بيتٌ منَ الشعرِ، أو بيتٌ من الشَعَرِ

ويتبعه خليل مطران طالباً حياة الصحراء:

ولُّوا المدينةَ وجهَكُمْ ودَعُوني
أنا في هواي، وعُزلتي، وجنوني

ثم الأخطل الصغير، بشارة الخوري:

عودوا إلى تلك القُرى فَلَقَدْ
سلختكُم عن قلبها المدُنُ
الذكرياتُ على مفاسدها
الأمُّ، والأخواتُ، والسَكَنُ

ورغم ورود بعض المدن غزلاً في قصائد شعراء محدثون مثل نزار قباني في قصائد لبيروت ودمشق، إلا أن صورة المدينة في الشعر الحديث كانت في معظمها قاتمة تجاوزت مجرد الحنين إلى الريف، حيث تبوأت المدينة موقع اللعنة وترنيمة الضياع ومسرح الموت. وكأن الشاعر كلما كان أكثر حداثة كان نقده للمدينة المعاصرة أشد مرارة وقسوة.

يقول أمل دنقل بعد زيارته الأولى للمدينة:

رأيتُ فيها اليشمكَ الأسودَ والبراقعا
وزرت أوكارَ البغاءِ واللصوصية
على مقاعد المحطّة الحديدية
نِمْتُ على حقائبي، في الليلة الأولى
حينَ وجدتُ الفندقَ الليليَّ مأهولا

وأحمد عبدالمعطي حجازي:

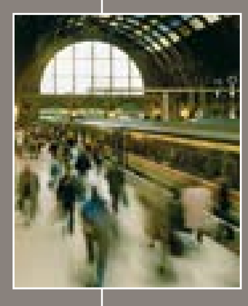
في زحمةِ المدينةِ المنهمرةْ
أموتُ، لا يعرفني أحدْ
أموتُ، لا يبكي أحدْ
فالناسُ في المدائنِ الكبرى، عَدَدْ
جاءَ وَلَدْ
ماتَ وَلَدْ

لكن هل هذا آخر بيت يقال في المدينة. أَوَ لَن تبقى المدينة دائماً نزاعاً بين مدينتين. مدينة الخير الوفير والشر الوفير. مدينة نحبها ومدينة نكرهها. مدينة نعم ومدينة لا. يقف الشاعر الروسي يوفجيني يوفتوشينكو بقامته الطويلة فاتحاً ذراعيه صارخاً بأعلى صوته:

أنا مثل قطار
يسرع منذ سنين عديدة
بين مدينة نعم
ومدينة لا
وأعصابي أسلاك مشدودة بين مدينة نعم
ومدينة لا ...



كوربيس



القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يناير - فبراير 2004
المجلد 53 العدد 1

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com